الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

فالح حسن

الجنّة المنبوذة

روايـة

الجنّة المنبوذة

رواية

فالح حسن

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN 978-614-02-0585-7

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: **786233 - 785108 - 785107 1 00961**
ص.ب: **13-5574** شوران - بيروت **2050-1102** – لبنان
فاكس: **786230 1 00961** – البريد الإلكتروني: **asp@asp.com.lb**
الموقع على شبكة الإنترنت: **http://www.asp.com.lb**

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

الشخصيات الحقيقية في الرواية

– البابا الكساندر السادس
– الكاردينال أسكانيو سفورزا
– الكاردينال رافائيل رياريو
– جيليا فارنيس
– أورسينو أورسيني
– ليوناردو دي فينشي
– مايكل آنجلو
– نيكولو مكيافيلي
– سيزار بورجيو
– التاجر اليهودي لويس دي سنتياغو
– جميع البابوات الذين تم ذكرهم

الفضائح التي ذكرت عن البابوات الذين اعتلوا الكرسي الرسولي في جلسة تحضير الأرواح كانت مقتبسة من المراجع التالية:

– إيمون دافي، القديسين والخطاة، ييل 2002
– بيتر دي روسا، كهنة المسيح، الجانب المظلم من البابوية، نيويورك 1988
– كيفين نايت، الموسوعة الكاثوليكية على شبكة الانترنت، 2009
– شحاده أبي خليل (نقله الى العربية)، تاريخ البابوات، 1988
– عبدالرحمن بديوي، موسوعة المستشرقين، 1992

حياة في القيروان

هناك، في أقاصي المغرب العربي تقبع مدينة القيروان.. رابعة الثلاث.. مدينة العلم والحكمة والتي تزخر بأروع أنماط التراث الاسلامي مكونة بذلك متحفا حيا للفنون والحضارة العربية والاسلامية. تميزت مدينة القيروان بجلال ماضيها العريق وبإشعاعها الروحي والثقافي والذي كان ينبع من بيت الحكمة، ذلك المكان الذي شهد فيه هاشم الطنجي الكشف عن خيوط سحر الجنة الفردوسية.. أطلانتس!!

كان بيت الحكمة في القيروان نواة العلم ومركز العلوم والمكان الذي يتردد إليه العلماء لدراسة العلوم الدينية والفلك والرياضيات والطب والعلوم الغريبة، الأمر الذي فتح شهية الآخرين على الدراسة هناك مثل البابا سلفستر الثاني الذي استقى علومه هناك وبشكل غريب ومثير للغاية!!

في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي كانت القيروان مدينة ذات عرقيات متعددة، فقد كان يسكنها المسلمون لطلب العلوم مع وجود بسيط لليهود الذين كانوا يمارسون التجارة فيها.

كان جامع عقبة مع دار الحكمة أول جامعة في العالم تدرّس كل أنواع العلوم والفنون وتتكون من مبانٍ كبيرة فيها عدد كبير من القاعات والحجرات المخصصة للمترجمين والمؤلفين والدارسين وكذلك قاعات المرصد الفلكي، ويتكون المبنى الرئيسي من طابقين، كان الطابق السفلي يضم قاعات خاصة بالكتب وأقسام الترجمة والتأليف والنسخ والتجليد والمطالعة والدراسة في كل مجالات المعرفة، أما الطابق العلوي فكان عبارة عن مهاجع وغرف المؤلفين والمترجمين والدارسين والعاملين.

كانت تلك المباني الجميلة ذات طابع أندلسي ومغربي ومزخرفة بزخارف متأثرة بذلك النمط السائد في سامراء وقباب ذات حنايا ركنية وأقواس كحدوة الفرس.

في ذلك المجمع العلمي المهيأ للدراسة كان هناك العديد من المكتبات ودور الدراسة والتعليم والغرف السرية التي كانت محظورة الا على كبار العلماء من الفلاسفة والأطباء والكيميائيين ومحضّري الأرواح، وتلك الأماكن المزدانة بالعلم والعلماء والمطرزة بفنون الشرق والغرب.

نشأ هاشم الطنجي عندما أتى به والده صغيرا من طنجه.. هاشم.. ذلك الصبي الذي شب على العلم واكتشف ما لم يكتشفه الآخرون.. هاشم.. الذي بدأ رحلة العذابات للوصول الى الحقيقة التي اكتشفها عندما أحرقته نيران الحقيقة التي أوقدها الشياطين الذين يتسترون تحت أجنحة الملائكة.

بدأت أحداث هذه الرواية المؤلمة والوحشية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي في مدينة القيروان وبالتحديد في دار الحكمة، عندما قدم هاشم من طنجه بعد وفاة أمه، حيث أصر والده على أن يتعلم هاشم في سن مبكرة، وتركه عند أستاذه عبدالقادر المالكي الملقب بالحافظ المالكي، وعاد أدراجه إلى المغرب العربي حيث يعيش.

لم يكن والده يعلم بأنه لن يتمكن من رؤية ابنه هاشم مرة أخرى.. فلقد قتله العلم والبحث عن الحقيقة.

كان هاشم غلاما ذكيا فطنا سريع الملاحظة، ذا ملامح عربية وعيون سوداء ذات نظرات حادة تدل على الفطنة والذكاء. توسّم الشيخ عبدالقادر المالكي في هاشم الذكاء وصفاء الذهن والاستعداد النفسي لطلب العلم، الأمر الذي جعله يهتم به أكثر من بقية زملائه الآخرين الذين يكبرونه سنا، فقد سأل أحدهم الشيخ المالكي قائلا له: ولكنك تهتم بذلك الصبي أكثر منا ونحن أكبر سنا منه.. تبسّم الشيخ وقال له لعله يكون كإبن بطوطه.. فكلاهما من طنجه. لم يرد الشيخ أن يحرج ذلك الطالب ويبرر تفضيله له

بسبب فطنة وذكاء هاشم واكتفى بذلك الرد، فمداراة الناس نصف العقل.

لم يكن هاشم يملك شيئا ولم يترك معه والده شيئا سوى بضعة دراهم تكفيه لعدة أيام ليقتات على الخبز والتمر، فتكفل شيخه المالكي بأمور معيشته وكان دائما ما يوكل له بعض المهام الأخرى كتنظيف قاعات الدرس وغسل بلاط الجامع.

كان يتقاضى مقابل ذلك بعض الدراهم القليلة والتي تكفيه ليعيش عيشة الكفاف ويجمع العلم معها. لقد نشأ في ذلك المجمع العلمي في دار الحكمة وهو يرى قبس نور الحقيقة يزداد وهجا يوما بعد يوم.

كان يذهب الى مكتبة دار الحكمة بعد انتهاء الدرس في كل يوم ليبحث بين رفوفها التي تزخر بنفائس أمهات الكتب حتى يجد ضالته، فيقرأ ويقرأ حتى تُغلق أبواب المكتبة وهو بداخلها، فقد كان يشعر بنهم شديد تجاه القراءة والمطالعة.

في كل يوم يتواجد هناك لا يقرأ كتبا معينة في مجال واحد وإنما كان يقرأ كل ما يشبع فضوله، فعندما يرى كتابا في أحد المجالات تراه لا يرفع بصره عنه حتى يقرأه بأكمله ولا يخرج من المكتبة حتى يقرصه الجوع الشديد أو لقضاء الحاجة.

وفي بعض الأحيان كان يشتهي قراءة كتب في مجال الكيمياء فتجده يذهب الى المكتبة ويأتي بمجموعة من الكتب في هذا المجال الى غرفته ولا يخرج حتى ينهي قراءتها، وأحيانا يشتهي قراءة كتب الفلك والرياضيات فيفعل تماما كما فعل سابقا وهكذا الحال في بقية المجالات الاخرى.

لقد أكسبته تلك القراءات والمطالعة المركزة إطلاعا واسعا وإلماما بكثير من العلوم المختلفة، كما أنه قرأ كتب اللاهوت المسيحي واليهودي والبوذي وقرأ علم المنطق وطبّق التصوف ومارس الحياة الروحية في أعلى مراتبها متأثرا بأفلاطون، وباحثا عن عالم المثل الملكوتي من خلال مدرسة فكرية وفلسفية متعالية وعميقة من أجل معرفة الحق وادراك جواهر الأمور.

لم يكن الوضع المادي الصعب لهاشم يسمح له بأن يعيش كبقية أقرانه في دار الحكمة، فقد كان كثيرا ما يشتهي حلوى «المقروض» التي تشتهر القيروان بصناعتها والتي كانت تصنع من الدقيق والتمر وزيت الزيتون، ولكنه لا يتمكن من أكلها في كل مرة يخرج فيها الى السوق فللأحوال المادية ظروف وصعوبات، ولكنه أحيانا يكتفي بمشاهدة بعض ألعاب السحرة ومروضي الأفاعي في سوق القيروان والتي كانت مثيرة بالنسبة اليه.

كان كثيرا ما يذهب بعد ذلك الى مقام سيدي الصبحي وهو مقام الصحابي الجليل أبو زمعة البلوي ويصلي هناك، ويطلب البركة بزيارته ممتعا نفسه بالنظر الى قطع الجص المنقوش بالزخارف الجميلة والسقف المصنوع من خشب الأرز المنقوش والخزف المغربي، والقبة المزدانة بالبلور الملون والأرضية المفروشة بالسجاد القيرواني المشهور، ليعود بعد ذلك الى غرفته الصغيرة في مهاجع طلبة علوم دار الحكمة.

وفي يوم من الأيام وعندما هم هاشم بالرجوع الى غرفته بعد عودته من السوق ولم يكن يملك درهما واحدا.. وقف عند بائع بطيخ يهم بالذهاب الى بيته قبيل غروب الشمس بقليل منتظراً ذهابه، وعندما ذهب البائع وجد هاشم بعض البطيخ الفاسد متروكا أرضاً، فقام بأخذ أفضل بطيخة فاسدة ووضعها داخل جلبابه وقفل مسرعا نحو غرفته ليتفاجأ بدخول أحد زملائه الى غرفته وهو يأكل بطيخة فاسدة، فلما رآه هاشم سأله عن سبب دخوله غرفته فقال له عزيزي هاشم لم أستطع أن آكل هذه البطيخة منذ مساء أمس بسبب وجود أحدهم في غرفتي فخشيت أن يطلع على أمري، فهذه البطيخة فاسدة وقد أخذتها من مكان بائع البطيخ ولو كنت أملك المال لما أكلتها. فتبسّم هاشم وأخرج البطيخة التي كان يخفيها تحت جلبابه وقال له هذه أيضا من نفس المكان، وجلس الاثنان يأكلان ويضحكان.

شب هاشم الطنجي على ذلك الوضع حتى بلغ الرابعة والعشرين من العمر واكتمل نضوجه الفكري

والبدني في دار الحكمة، فقد أحب الدراسة هناك وتعلق قلبه بمدينة القيروان، فلا هم له سوى القراءة وحب الاطلاع. لقد كان استاذه الشيخ عبدالقادر المالكي بمثابة والده، فقد كان يحنو عليه، وكثيرا ما كان يوصي به الاساتذة خيرا. فقد كان يحب هاشم كثيرا لاكتمال نبوغه وذكائه وقوة عزيمته وصبره، فكان الأب الروحي لهاشم وأستاذه الذي أنار له مشكاة العلم واليقين. لم يكن هاشم يحس في يوم من الأيام بأنه يعيش بعيدا عن أهله ووطنه.

صباح أحد الأيام فجع هاشم بوفاة أستاذه الشيخ فكانت مفاجأة قاسية لم يتوقعها، أحس هاشم باليتم وأحس بالغربة، ولم يعد أحد يهتم به، بل كان البعض يضمر له الكره حسدا من عند أنفسهم لأنهم كانوا يدركون جيدا بأنه الأفضل والأكمل، فازدادت حيرة هاشم وأحس بأن وجوده في دار الحكمة لا معنى له، فلا معين له سوى الله تعالى، حتى ان زملاءه في دار الحكمة لم يستطيعوا أن يُكوّنوا معه علاقة صداقة بسبب الفارق الفكري بينهم وبينه.

كان الشيخ المالكي قد وعد هاشم قبل وفاته بإطلاعه على بعض أسرار العلوم الخفية التي كان يحكي له عن بعضها، ويطلعه على بعض المخطوطات المهمة التي كانت دار الحكمة بالقيروان تحتفظ بها ككنوز من الثقافة المعرفية الموجودة بين رفوف مكتباتها وكان هاشم يتوق لمعرفتها، حيث كان الشيخ المالكي يعده لكي يطلعه على تلك الأسرار التي جعلته يبدأ رحلة البحث عن الحقيقة التي لم يكن يتوقعها في يوم من الأيام، ولكن القدر سبقه ورحل الشيخ المالكي عن عالم الدنيا الى قرب الله تعالى.

تحيّر هاشم كثيرا وهو الذي كان يريد معرفة الأسرار الخفية في دار الحكمة، فقرر أن يتوقف عن دراسة العلوم والمعارف لأجل مسمى حتى يتمكن من توفير بعض المال والبحث عن العمل ليتمكن من العيش بوضع أفضل مما سبق، وعقد العزم على ذلك، لم يكن هاشم بحاجة الى أن يأخذ كما كبيرا من الأمتعة، فلم يكن يملك شيئا سوى راحلته الهزيلة وبعض الكتب التي كان يقرأها في كل ليلة.

لم يبتعد هاشم كثيرا عن مدينة القيروان حتى رأى أحد الدراويش الذين يقرأون الفأل ويتنبّؤون بالمستقبل فقال له عندما مر بجانبه.. أين يريد كاشف اللغز؟ لماذا تترك النور وتتبع الظلام؟ إرجع فإن أفلاطون الحكيم يناديك!! إرجع فإن أفلاطون الحكيم يناديك!!

كان الدراويش يتواجدون في تركيا وفي بعض البلاد العربية، وهم زهاد متقشفون عن قناعة وإيمان، شديدو الفقر ويعيشون على إحسان الآخرين لهم، حيث انهم يتبعون بعض الطرق الصوفية، وعرف عنهم الذكاء والحكمة والطب والشعر، وكان البعض منهم يعرف عنه الإخبار بالمغيبات.

بدأ ذلك الدرويش وهو يتمتم ويهذي بكلمات كالمجنون. وقف هاشم متحيرا ومتأملا وقال في نفسه لماذا أترك النور وأتبع الظلام. إنه محق. ولكن.. ماذا يقصد هذا الدرويش بأن أفلاطون يناديني!! لا بد أن هناك سراً لا أعرفه.. آه يا إلهي يا دليل المتحيرين لقد ضاقت بي السبل ولا أعرف المخرج. أحس هاشم بأنه قد يفقد الكثير إذا ذهب للبحث عن عمل، فلم يكن التكسب من الأمور التي تشغل باله وتؤرق فكره، ولكن عشقه لدار الحكمة وللقيروان كان أكبر من ذلك، فهو يأنس بالعلم استئناس الطفل بثدي أمه، ثم أحس بأنه تعجل الخروج من القيروان، ولكنه.. عندما يتذكر بانه أصبح وحيدا بعد وفاة شيخه المالكي تعود الحيرة اليه مجددا.

جثا هاشم على ركبتيه ماسكا بزمام ناقته ورافعا يديه نحو السماء ودموعه كشآبيب المطر وهو يقول إلهي إن لم تنقذن فبمن ألوذ وإن لم تهدن فمن يهديني، أنت دليل المتحيرين وغياث المستغيثين.

بدا هاشم يبكي ويبكي حتى رفع رأسه وقال.. بالطبع لن أموت جوعا إذا بقيت هنا وكأنما ألقي في روعه أن يرجع، فقفل راجعا الى القيروان والى حيث يسكن، الى غرفته التي عاش فيها أجمل أيام طفولته البريئة وصباه الذي كمل فيه عقله قبل بلوغه.

لقد اقترنت حياة هاشم مع مصاعب الحياة وشظف العيش بسبب فقره، فكانت الآهات تتلاطم في قلبه

كما تلطم أمواج البحر الشاطئ. ظل هاشم يقظا طوال تلك الليلة الباردة الماطرة وهو يفكر في كلام ذلك الدرويش حتى غفت عيناه واستسلمت جفونه للنوم.

في صباح اليوم التالي قام هاشم من نومه متثاقلا، فقد استغرق كثيرا في التفكير في الليلة الماضية، توجّه الى جامع عقبة وصلّى هناك ركعتين وطالباً من الله أن يقدّر له الخير. وبعد ذلك قام يتأمل في ذلك المسجد الجميل ولاحظ أن هذا المسجد له أعمدة عديدة ومتنوعة تعود لمعابد رومانية وكنائس بيزنطية.. لقد أثارت هذه الملاحظة في نفس هاشم الشيء الكثير.. فقد كان هذا المكان كنيسة يُعبد الله فيها ثم صارت مسجدا ويُعبد الله فيها أيضا. لاحظ هاشم أن كل البشر يعبدون الله الخالق ولكن.. منهم من يوحّده ومنهم من يثلثه، ومنهم من ينزل به الى مرتبة البقر والبهائم فيعبده، فطبيعة البشر تميل الى وجود الرب والخالق، لأن النفس البشرية مجبولة على تلك الغريزة الفطرية.

استغرق هاشم في التأمل والتفكير حول ذلك الأمر. لقد كانت النزعة الروحية لدى هاشم تتوق الى البحث عن حقيقة الايمان والأسرار العميقة التي ترمز الى المثل العليا أو عوالم ما وراء عالم الحس والادراك، الأمر الذي جعله يحاول الولوج لتلك العوالم عن طريق الصفاء الروحي وتطهير النفس والعزلة والتقشف وسيطرة النفس على البدن، فقرر هاشم الاشتراك في حلقات الذكر التي كانت موجودة هناك في مساجد وجوامع القيروان.

قرر أن يبدأ في صباح اليوم التالي خلوة الثلاث أيام والزهد ليتمكن من الاطلاع على الكشوفات الغيبية والكرامات الربانية.

عند الصباح بدأ هاشم خلوته في غرفته الصغيرة مع الصلاة والذكر.. لم يكن يملك ما يكفيه من الأكل لهذه الأيام الثلاثة فهو يعيش الزهد منذ أن قدم الى القيروان طفلا حتى بلغ مبلغ الرجال.

وبعد الانتهاء من تلك الخلوة أكمل ما نوى العزم عليه من الاشتراك في حلقات الذكر، فذهب الى مقام سيدي الصبحي ووجد إحدى حلقات الذكر فاشترك مع أهلها. لقد كانت مجموعة كبيرة يجلس أفرادها بشكل دائري ويرددون "الله حي.. الله حي". على الطريقة الشاذلية وهي الطريقة المنتشرة آنذاك في القيروان والمغرب العربي.

بدأ هاشم الترديد معهم ورأسه يدور يمينا ويسارا حتى أحس بإنعتاق الروح عن البدن من كثرة الترديد واستشعار قداسة الله عز وجل، وبعد الانتهاء أحس براحة في نفسه، وأنه أدى ما كان ينبغي أن يؤديه.

استمر هاشم على ذلك عدة أيام.. لكن لم تكن حلقات الذكر والخلوة هي كل ما يريده هاشم، فقد كان يبحث عن الحقيقة والكمال الانساني، الأمر الذي جعله يفكر في الرجوع الى دراساته الفلسفية والفكرية بعيدا عن التصوف، فقرر الرجوع الى الاستغراق في التأمل الفلسفي لأنه كان متبحرا في العلوم الفلسفية والكلامية.

ذهب هاشم في اليوم التالي الى مكتبة دار الحكمة ليطّلع على بعض كتب الفلسفة التي ترجمت مؤخرا من السريانية الى العربية وعلى بعض كتب الفلسفة العربية واليونانية التي استنسخت وتوفرت في المكتبة بشكل كاف.

وقف أمام رف كتب فلاسفة اليونان والاغريق فوجد مخطوطات وكتب سقراط وأفلاطون وأرخيتاس وطالس وكذلك وجد كتب أبي بكر الرازي والفارابي وابن سينا وابن خلدون وأبي حامد الغزالي، فلقد كان لكل فيلسوف منهم مجموعة كتب ومخطوطات نفيسة وثمينة جعلت هاشم يحتار أيها يقرأ أولاً، فعزم على تقسيم وقت للقراءة ليذهب بعدها في المساء الى غرفته الصغيرة ليعيش التأمل الفلسفي الذي اعتاد عليه في كل ليلة، فقد كان مطّلعا في السابق على فلسفة اليونان والاغريق والفلسفة الطبيعية والحكمة الالهية، ودرس فلسفة السير والسلوك التي تهدف الى مقام الزهد والأسفار والانتقال

من منزلة الى أخرى.

كان هاشم معجبا بفكر أفلاطون، وكان كثيرا ما تتطابق أفكارهما حيث كان هاشم يؤكد كثيرا على أن أفلاطون وأرسطو كانا موحّدين وليسا وثنيين، فقرأ معظم كتابات أفلاطون مثل محاورات أفلاطون وجمهورية أفلاطون وأفلاطون في الفضيلة والمدينة الفاضلة والمحاورات السقراطية.

كما أعجبته فكرة أفلاطون والتي تؤكد على سقوط النفس البشرية التي هوت الى عالم المحسوسات بعد أن عاشت في العالم العلوي من خلال اتحادها مع الجسم، وهنا ربط هاشم فكرة أفلاطون السابقة مع تراث المسلمين الذي يشير الى نفس الفكرة في عالم الذر وعوالم ما قبل الخلق والوجود!! كان أفلاطون يصر على ضرورة أن يتحرر الانسان من مادة الجسم ليعيش وفق متطلبات الروح ذات الطبيعة الخالدة من خلال التحلي بالفضيلة لأنها تقود الى السعادة الحقيقية الخاضعة لحكمة العقل.

كانت نظريات أفلاطون ذات أبعاد فلسفية عميقة تقود الى معرفة الحق وادراك جواهر الامور، الأمر الذي جعل هاشم ينام تلك الليلة ممسكاً بأحد كتب أفلاطون الفلسفية ويبقى فاغر الفاه كالغريق.. لقد كان متعبا جدا تلك الليلة، فقراءة تلك الكتب الفلسفية تحتاج الى جلد فكري وتمعّن وانتباه.

استغرق هاشم في النوم عميقا حتى وصل الى أعمق مراحل النوم.. فرأى في عالم الرؤيا.. الحلم النبوءة.. والذي كان بداية رحلة الآلام لهاشم في سبيل البحث عن الحقيقة. حيث رأى في منامه كأن ملكوت السماء انفتح امام ناظريه فبانت من ذلك سماء لازوردية اللون ومرصعة بأجمل وأبهى الجواهر البلورية، ثم رأى هاشم في تلك السماء عشتار آلهة الحب والخصوبة لدى البابليين، الآلهة المجنحة ذات الجسم العاري وهي تطير في السماء وشعرها كان يبدو كخيوط الذهب، ثم رأى جوبيتير إله السماء والبرق لدى الرومان، ذلك الرجل العاري ذا اللحية الكثة وهو يلحق بعشتار، ثم رأى مردوخ كبير آلهة قدماء البابليين وهو يلبس تاج الملك مع القلادة الطويلة ثم اختفى الجميع، وظهرت فجأة حتحور آلهة الموتى عند المصريين القدماء وهي تلحق بهم على هيئة امرأة تحمل تاجا عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس. ظل هاشم مشدوها وهو يرى تلك الصور أمامه ولا ينطق بشيء. ثم ظهر فرعون بعد ذلك وهو ينظر الى هاشم ويضحك بجنون ويتحوّل الى صورة الشيطان.. قام هاشم يركض ويتبعهم ليعرف الى أين يذهبون، وفجأة وجد أفلاطون الحكيم واقفا أمامهم وكأنه كان ينتظرهم ثم تحولت تلك الآلهات الى صور مصغرة ودخلت في شعلة نار كان أفلاطون يحملها في يده اليمنى، وبعد ذلك سجد أفلاطون لله طويلا وقام وهو ينظر الى وجه هاشم.

نهض هاشم من نومه والعرق يتصبب من جبينه ونَفَسه يعلو ويهبط فقد كان الحلم مهيبا.. استغرب هاشم من الحلم وقال في نفسه لعلها أضغاث أحلام. لم يهتم هاشم كثيرا بالحلم الغريب فقام وتوضأ وصلى ركعتين ثم شرع بقراءة بعض آيات من القرآن الكريم.

عند الصباح توجّه هاشم الى قاعة الدرس وهو يستذكر ذلك الحلم الغريب ويتساءل في نفسه هل هذه أضغاث أحلام بسبب قراءة كتب الفلسفة أم أن ذلك الحلم له مغزى ويعبّر عن شيء ما؟!

ظل ذلك الحلم يشغل فكر هاشم في كل مكان.. عندما يخرج ويدخل ويأكل وينام وفي كل أحواله. وبعد عدة أيام من هذه الرؤيا استدعى خازن بيت الحكمة الشيخ عبد البر القيرواني هاشم، استغرب هاشم من ذلك لأنها المرة الأولى التي يستدعيه فيها خازن بيت الحكمة من بين عشرات بل مئات طلبة العلوم. خرج هاشم من قاعة الدرس الى غرفة الخازن مسرعا وهو يفكر حول سبب طلبه.. ظلت الأفكار تجول في رأسه حتى وجد نفسه أمام غرفة الخازن.

طرق الباب ثم استأذن الدخول وسلّم على الخازن ثم جلس صامتا، فالخازن كان مشغولا بقراءة بعض المخطوطات القديمة وفك رموزها، جلس هاشم صامتا من دون أن ينطق ببنت شفة وهو لا يدري ما الأمر.. ثم رفع الخازن رأسه فجأة وقال له هل يمكنني مساعدتك؟ فقال له هاشم لقد طلبت في

اثري قبل قليل.. أنا هاشم الطنجي سيدي، فقام الخازن له اجلالا واحتراما وصافحه وقال له لدي توصية خاصة لك من استاذك الشيخ عبد القادر المالكي رحمه الله.

استغرب هاشم كثيرا وقال: استاذي عبد القادر المالكي؟! توصية!! وبدأ ذهن هاشم يروح يمينا وشمالا.. يشرق ويغرب ولا يجد جوابا.. ويقول في نفسه ماذا يريد مني شيخي المالكي وبعد وفاته يا ترى؟! ثم دفع الشيخ القيرواني كتابا الى هاشم وقال له لقد وجدنا هذا الخطاب تحت فراش الشيخ المالكي بعد وفاته.

أخذ هاشم الكتاب ثم قرأه واذا به يتضمن طلب السماح لهاشم بالدخول الى مكتبة الاسرار القديمة لانه تجاوز حدود معرفة الدارسين الى معرفة الفضلاء والعلماء.

صعق هاشم من الذي قرأه، فقد كان يعتقد أن دخول تلك المكتبة كان مقتصراً على الثلة القليلة من العلماء والعباقرة في دار الحكمة، كانت فرحته لا توصف فقد كان شغفه بالعلم وصل الى درجة النهم وهو لا يمل من القراءة والاطلاع وحب استكشاف المجهول.

فرح هاشم بذلك وشكر الخازن ثم همّ بالانصراف فقال له الخازن.. هاشم.. أنت تستحق ذلك واني اتوسم فيك الخير ويمكنك البدء من صباح الغد ان أردت. شكر هاشم الخازن ثانية وخرج راجعا الى قاعة الدرس.. وكان عقله مشحونا بفكرة الدخول الى مكتبة الأسرار القديمة فلم يتمكن من الدخول الى القاعة والاستمرار في الدرس.. فقرر الرجوع الى غرفته التي وصلها مسرعا ثم جلس على فراشه وبدأ يتنفس بعمق ليهدئ من صدمة الفرحة التي اعترته، وظل على ذلك الوضع برهة من الزمن بدأ بعدها يفكر بما سوف يجد داخل مكتبة الأسرار القديمة؟

بات هاشم تلك الليلة وهو يفكر في موجودات تلك المكتبة، حتى غلبه النوم في وقت متأخر من الليل. وعند الصباح استيقظ هاشم متأخرا بعض الشيء وتوجه مسرعا نحو مكتبة دار الحكمة.

توجه الى أمينها الذي كان معتادا على رؤيته بشكل يومي، وسأله عن مكان مكتبة الأسرار القديمة والتي كانت تقع ضمن نطاق مكتبة دار الحكمة.

رفع أمين المكتبة حاجبيه وسأل هاشم مستغربا: ولكن لماذا يا سيدي تسأل عن مكانها، ماذا تريد بالتحديد؟ فقال له هاشم لدي اذن بالدخول إليها بشكل دائم. استغرب أمين المكتبة كثيرا وتردد بالاجابة فسأله هاشم: هل هناك مشكلة يا سيدي؟ فقال أمين المكتبة لا لا يا سيدي.. ولكنك.. لست كبيرا في السن كأولئك الذين يسمح لهم بالدخول من الفضلاء والعلماء، وعلى كل حال يمكنك أن تسلك ذلك الممر حتى ينتهي بك الى غرفة صغيرة بها حراس المكتبة، ثم ادفع إذن الدخول لأحدهم. اتجه هاشم نحو ذلك الممر وهو يحس بأن أمين المكتبة لا يزال شاخصا بصره نحوه ومتأملا فيه.

لم يعر هاشم له انتباها وتظاهر بالمشي البطيء الذي يدل على الوقار حتى وصل الى نهاية ذلك الممر، فطرق باب الغرفة التي أمامه عدة مرات ولم يفتح له حتى كاد يمل من الانتظار، ثم فتح الباب أحد الحراس وأخرج رأسه وهو مستغرباً ويلتفت يمينا ويسارا حتى تلاقت عيناه بعيني هاشم فقال له الحارس: ماذا تريد؟ فقال له هاشم: لدي إذن بالدخول الى هنا.. دخل الحارس الى داخل الغرفة وكأنه لم يسمع شيئا ثم خرج بكامل زيه العسكري وهو يعتمر سيفه، فقال أرني الإذن، فلما قرأه اطلع في وجه هاشم متأملا فيه حيث بدا هاشم متضايقا من الأمر.

لحظات وأدخله الى غرفة الحرس وقال له: انتظر هنا حتى أتأكد.. جلس هاشم منتظرا مع عدد من الحراس الذين خيم عليهم الصمت.

انتظر هاشم الاذن بالدخول كثيرا فقد خرج من غرفته في الصباح والوقت الآن يقارب وقت الزوال دون أي افادة عن السماح بالدخول الى مكتبة الاسرار القديمة. وفجأة دخل ذلك الحارس وقال له: اعتذر عن التأخير فلقد كان مكتب الخازن مليئا بالعلماء ولم استطع الدخول عليه الا في هذا الوقت وقد

سمح لك بالدخول، هيا تعال معي الى الداخل.

تنفس هاشم الصعداء فرحاً ثم قام مع الحارس الى الداخل. وبدأ يمشي ويمشي في تلك الممرات الضيقة الرطبة، ثم بدأا بالنزول الى درج تحت الأرض وبدأت خطوات هاشم تتثاقل شيئا فشيئا وهو يحس بالاثارة وقليل من الرهبة، وقد كانت الابواب تفتح بابا فبابا من قبل الحرس المتواجدين هناك حتى دخلا الى أقبية مغلقة موجودة تحت الأرض.

دخل هاشم أخيرا الى القبو الرئيسي لمكتبة الأسرار القديمة، كان الصمت والذهول يخيمان على هاشم وهو يشاهد تلك الرفوف المليئة بالكتب ورائحة المكان تمتلئ برائحة الكتب والبرديات القديمة وألواح الآجر التي كانت محفوظة بطريقة معيّنة على الرفوف المخصصة لها.

لا يزال هاشم مذهولا وهو يشاهد الكم الهائل من تلك الكتب والمخطوطات النادرة.. فهو طوال تلك السنين التي قضاها طالبا في دار الحكمة لم يعلم بوجود تلك المكتبة النادرة.

استأذن الحارس هاشم بالخروج ليتركه يغوص بين أسرار العوالم الخفية والعلوم الجلية والنفائس البهية. لم يعلم هاشم بعد أنه يقف على مكتبة تحتوي على أعظم أسرار العالم وأكثرها بقاء.

كان الكثير من الوراقين الذين يستنسخون الكتب النادرة متواجدين داخل تلك المكتبة ويترجمون بعضها من السريانية الى العربية. لاحظ هاشم وجود بعض المخطوطات القديمة التي ترجع لعدة حضارات قديمة على ورق البردي وبعضها محفوظ في أضابير من الجلد. كما كان هناك بعض المخطوطات المهمة التي ترجع للغات السومرية والعبرية والآرامية والسريانية منقوشة على ألواح من الحجر الآجر ومحفوظة على رفوف خاصة تمثل الوثائق المهمة.. بعض المخطوطات كانت غامضة وتحت كل لوح أوراق من البردي مترجمة لتلك اللغة. كانت رفوف المكتبة تغطى بالحصير وتطلى بطبقة من القار لمنع تسرب الرطوبة الى الكتب.

في البداية قرر هاشم أن يكتفي بقراءة بعض عناوين الكتب بدون أن يمس تلك الكتب ويكتفي بمشاهدة الموجودات هذا اليوم لأن المكتبة تستحق المشاهدة أولا، فهي تبدو كأنها متحف حي وشاهد على ثقافة وتاريخ وحضارة البشر.

لاحظ هاشم وجود بعض المقتنيات النادرة والنفيسة في المكتبة فأدهشه ما رأى.. وقف أمام أحد الرفوف فرأى المصحف الأزرق، وهو نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي المذهب على الورق الأزرق النادر الجميل، كانت ولا زالت تلك النسخة أجمل وأندر عمل لمخطوط يقوم به البشر حتى يومنا هذا، وكانت هذه النسخة معروضة بطريقة لا يستطيع أحد لمسها بشكل مباشر فهي من ضمن المقتنيات المهمة لهذه المكتبة المدهشة. استمر هاشم بالسير بين الرفوف والاكتفاء بالنظر فقط، لأن الاكتفاء بالنظر والمشاهدة يحتاج الى أكثر من يوم بل أكثر من ذلك بكثير. كانت تلك المكتبة بالنسبة الى هاشم أشبه بإرشيف من المروج الخضراء المعشبة، والتي تداعب خيالاته كما تداعب أزهار الربيع ندى الأمطار، فأحس بنشوة في عروقه وعطر منعش يسري بقلبه كعطر الرياحين المنعشة بعد هطول المطر.

لاحظ هاشم أيضا وجود بعض التحف النادرة والنفيسة والخزفيات وسيوف أندلسية مزخرفة بعبارات منقوشة بالخط الكوفي ونحاسيات ومشغولات ذهبية. وسرعان ما عاد هاشم الى رفوف الكتب مبتعدا عن المقتنيات النادرة والثمينة ليفاجأ بوجود كتب ومخطوطات من أنفس ما وصلت له اليد البشرية على مر التاريخ.

كان كلما وقعت عيناه على أحد الكتب تمتد يده بشكل تلقائي لاستخراجه في حين تقع عيناه على الكتاب الذي بجانبه فيرفع يده عن الكتاب الأول مندهشا بعنوان الكتاب الآخر.. كانت تلك الرفوف تحتوي على الكثير من المخطوطات التاريخية المهمة جدا وكتب الفلسفة والديانات ومخطوطات قديمة

مكتوبة باللغة العبرية والسريانية والفارسية واليوناني-ة وبعض المخطوطات الوثنية، بالاضافة الى كم هائل من مخطوطات الطب القديم مكتوبة على البرديات القديمة وكتب أسرار الفيزياء والفلك وكثير من خرائط العالم القديم.

وبعد مضي بعض الوقت تسمر هاشم أمام أحد الرفوف الغريبة حيث احتوى ذلك الرف على كتب جعلت هاشم يعرف سبب منع دخول تلك المكتبة على العامة من الطلبة، فقد كانت تحتوي على كتب اليهود والنصارى والبوذيين والمسلمين في علم التنجيم والفلك ودراسة الطالع، وعلم الحروف والطلاسم والتسخيرات، وكتب الجن والسحر الأسود وعالم الأرواح، وعلم الجفر، وكتب الملائكة والشياطين وملك سليمان وهاروت وماروت، وكتب علم السيمياء والخيمياء والكيمياء القديمة، وعلم الفراسة والتأويل، ومخطوطات مزامير داوود، وكتب تسخيرات المخلوقات الغير مرئية حيث كان معظم تلك الكتب محرَّما في تراث المسلمين ووضعت من باب إثراء المكتبة بالكتب والمعلومات. كان كل كتاب يثير فضول هاشم الطنجي فهو لم يسبق له الاطلاع على هذا الكم الهائل من العلوم الغريبة وهو الذي يعشق القراءة والاطلاع.

أحس هاشم بأن هذا الكون مليء بالأسرار والمغيبات، وأن ما حصل عليه من علم واطلاع ما هو الا كمثل رأس الدبوس في قاع بحر الظلمات. اتجه هاشم بعد ذلك الى أحد الزوايا في أحد الأقبية الموجودة حول القبو المركزي لمكتبة العلوم السرية واذا بها مقسمة الى عدة أقسام مكتوب عليها: الخزائن المغربية: وهي عبارة عن كتب مستوردة من مكتبة المسجد الاعظم بمكناس تحتوي على علوم غريبة، وذخائر العلوم والخلفاء: وهي عبارة عن نفائس تحتوي على ملاحم وعجائب وقصص وأسرار لملوك وخلفاء حكموا العالم، وأضابير بغداد: وهي تحتوي على مخطوطات آشورية وبابلية وسومرية قديمة. والخزائن المصرية: وتحتوي على برديات فرعونية ومخطوطات من عصر الدولة الاسلامية الأول. وبرديات بخارى وسمرقند: وكانت تحتوي على برديات الطب القديم وعلوم الكيمياء والسيمياء. ومخطوطات ساوه: وكانت تحتوي على أساطير فارسية وعلوم الفلسفة والحكمة. وخزانة المصاحف المخطوطة: وبها مجموعة أثرية لا بأس بها من المصاحف النادرة والمخطوطة بأنواع الخطوط المعروفة.

ثم وجد هاشم خزانة بدون اسم وبها عدة مخطوطات غير مصنفة في موضوع معيّن، كانت بعضها ينسب للطبيب اليهودي موسى بن ميمون الذي كان يدرس هنا في القيروان، ومخطوطة أخرى غريبة جدا.. حيرت هاشم بعنوانها الغريب.. كان عنوانها: صفقة مع الشيطان. لقد لفتت هذه المخطوطة الغريبة ذهن هاشم فترك كل ما كان في تلك المكتبة وامتدت يده نحو هذه المخطوطة الغريبة وفتحها.

كانت تلك المخطوطة تنسب لبابا روما سلفستر الثاني «غيربرت أورلاك» حيث أنها وجدت في غرفته بدون أن يكون اسمه عليها. كان البابا سلفستر الثاني بابا الدولة البابوية الفرنسي الأصل والذي قدم الى قرطبة والقيروان شابا وتعلم هنا ردحا من الزمن في القرن العاشر الميلادي. وكان له الكثير من الاسهامات في نشر علوم الرياضيات والفلك والتنجيم ونقلها الى اوروبا من العرب حين كانت مكتبات العرب تضج بالكتب العلمية، فقد كانت مكتبة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر الذي حكم الاندلس تضم أربعمائة ألف مجلد بينما كانت أكبر مكتبة في كاتدرائيات أوروبا لا يزيد عدد كتبها عن أربع مائة كتاب فقط، ما عدا مكتبة قصر لاتران التي كانت الكتب فيها مأخوذة من كثير من الدول كغنائم حرب.

لقد كانت تلك المخطوطة «صفقة مع الشيطان» تحتوي على علوم سحرية وشعوذات غريبة وجدت في غرفة البابا. وكانت هناك مخطوطة ملحقة بالمخطوطة الاولى وكانت تتحدث حول جزيرة في بحر الظلمات كانت كالجنة الفردوسية، وكل شيء فيها مثالي.. غرقت في البحر وستظهر مرة أخرى على

أيدي الفلاسفة!!

لم يكن البابا سلفستر الثاني هو من كتب تلك المخطوطة الثانية حسب إفادة المختصين في المكتبة ولكنها الحقت به لأنهم وجدوها ملفوفة مع مخطوطة صفقة الشيطان التي وجدت في غرفته.. استغرب هاشم كثيرا من وصف هذه الجزيرة، فقد كان الفيلسوف أفلاطون الحكيم قد ذكرها بنفس الوصف وأسهب في ذكرها عند حديثه عن جزيرة أفلاطون.. لكن من يا ترى كتبها؟! هل هو البابا نفسه!! أم شخص آخر؟! ولماذا احتوت تلك المخطوطة على عبارات غير مفهومة ومطلسمة وغير واضحة!!

للمرة الأولى أحس هاشم بالفضول الشديد نحو تلك المخطوطة الغريبة.. صفقة مع الشيطان.. وتلتصق بها مخطوطة تتحدث عن جزيرة في بحر الظلمات كالجنة الفردوسية وهي غارقة في قاع البحر وستظهر مرة أخرى على أيدي الفلاسفة.

بدأ هاشم بربط ما قرأه مع كتابات أفلاطون الحكيم حول تلك الجزيرة، فقد ذكرها أفلاطون باسم جزيرة اطلانتس الفردوسية، ووصفها أيضا بأنها امبراطورية عظيمة خلف أعمدة هرقل، وتنمو بها كل النباتات والخضروات والفواكه وتحيا بها كل الحيوانات والطيور، وتتفجر فيها المياه الحارة والباردة، وكل شيء فيها طاهر وجميل وبها آلاف الولايات وكانت غنية جدا وسكانها أغنياء غنى فاحشا، وأراضيها خصبة وبها معادن نفيسة وأخشاب ومراعي، وشيدوا الابنية بالذهب والفضة والنحاس والعاج. وهي تتكون من ممرات ومسالك مائية مبنية بأحجار بيضاء وحمراء وسوداء.

لقد بدت هذه الجزيرة لهاشم كحضارة قديمة جدا وغامضة وغير مفهومة ولا يعرف عنها الا القليل خصوصا عندما وصفها أفلاطون بالجزيرة الغامضة وبأن سكان اطلانتس ليسوا بشرا مثلنا بل هم قادمون من ابعاد أخرى!!

استغرب هاشم كثيرا من تلك الوثائق الغريبة، كما لاحظ هاشم بأن لا أحد من فلاسفة اليونان أتى على ذكر جزيرة اطلانتس غير أفلاطون الذي وصف هذه الجزيرة بأكثر من أربعين ألف كلمة. ثم رجع الى الوثيقة الاولى «صفقة مع الشيطان».. تأملها هاشم مرة اخرى وقرأ المعلومات الغريبة التي تحتويها فأحس بأن هناك سرا ما يجب أن يعرفه ويتوصل اليه، حيث ربط وثيقة صفقة الشيطان مع وثيقة الجزيرة الفردوسية.

دوّن هاشم ما قرأه في الوثيقتين في أوراق خاصة به، ثم التفت حوله فوجد أحد العاملين في هذه المكتبة وهو يدوّن بعض الكتابات ويستنسخ بعض المخطوطات، اقترب منه وهو يتنحنح ليكسر صمت تلك المكتبة المهيب.. ولكن يبدو أن ذلك الرجل كان مشغولا بالتدوين وهو يجلس على ذلك المكتب الخشبي القديم.

اقترب هاشم اكثر ثم تنحنح مرة اخرى ولكن دون جدوى فالرجل كان يكتب ويقرأ كتاباته ثم يعاود ملء ريشته بالمحبرة التي أمامه. وفجأة التفت الرجل على خيال هاشم بلحظة سريعة ثم عاود الالتفات الى المخطوطة التي أمامه ثم توقف قليلا والتفت ببطء نحو هاشم فإذا بهاشم متسمرا أمامه وهو يبتسم في وجهه. فقال له الرجل متأملا وجه هاشم: هل أستطيع خدمتك سيدي؟ فقال هاشم نعم سيدي لدي بعض الاسئلة حول تلك المخطوطات التي هناك، فقال الرجل: تفضل بالجلوس واسأل ما بدا لك إن كنت اعرف أجوبة على اسئلتك.

جلس هاشم ثم قال أعتذر عن ازعاجك سيدي ولكنني كنت اتأمل مخطوطة بعنوان صفقة مع الشيطان ووثيقة الجزيرة الفردوسية المرفقة فيها، وقرأت في الورقة التعريفية التي توضح مضمون تلك المخطوطة بأنها وجدت في غرفة البابا سلفستر الثاني في دار الحكمة، هل هذا صحيح؟ وما هي قصة هذا البابا؟ ولماذا درس هنا؟ وما هي حكاية صفقة الشيطان؟ ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة ثم سكت قليلا وقال يا عزيزي أنا مجرّد عامل استنسخ المخطوطات وأترجم بعضها وأوثق بعض

المخطوطات وأصنفها فقط، ولكنني قد اطلعت على تلك الوثيقتين مسبقا وصنفتهما.. وكل ما أعرفه أن تلك الوثيقتان وجدتا في غرفة البابا سلفستر الثاني عندما كان يدرس هنا، ولا يعلم فيما اذا كانت تلك الوثيقتان تخصه أم لا. ولكنني قد سمعت مسبقا بأنه قد تكونت أسطورة غريبة بشأن البابا حيث قيل أنه عقد ميثاقا مع الشيطان أثناء إقامته في دار الحكمة وأنه صنع رأسا من النحاس كان يجيب على كل الاسئلة التي توجه اليه، وأنه كان يقتني كتابا يمكّنه من التحكم في كل الجن والعفاريت ويستطيع أن يستكشف منه كل الكنوز، كما عرف عنه بأن الشيطان وعده بأنه لن يموت قبل أن يقيم القداس في أورشليم، ولكنه توفى قبل ذلك!! وهذا كل ما أعرفه يا سيدي.

شكر هاشم ذلك الرجل عن تلك المعلومات القيمة واعتذر مرة اخرى عن إزعاجه، ثم رجع مرة اخرى الى ذلك الرف وتلك الوثيقة الغريبة. تأملها ثم قرأ الوثيقة الاخرى مستغربا عن تلك الجزيرة الفردوسية.. كانت الجملة التي أثارت وأذهلت هاشم هي جملة «غرقت في البحر وستظهر مرة أخرى على أيدي الفلاسفة»!!

أحس هاشم بالنشوة عند قراءتها حيث أحس بأن أمامه من يتحداه ويبرهن على قدرته على اكتشاف ذلك اللغز الغريب، ذلك لأن هاشم كان يعدّ من فلاسفة دار الحكمة المتميزين.

قرر أن يرجع الى المكتبة ويقرأ محاورات أفلاطون عن جزيرة أطلانتس لأنه أحس بأن أطلانتس لها علاقة وثيقة جدا بتلك الجنة الفردوسية التي ذُكرت ضمن المخطوطات الخاصة بالبابا سلفستر الثاني.

وصل هاشم الى الرفوف الخاصة بكتب الحضارة الاغريقية واليونانية ثم التقط كتابا يحتوي على بعض محاورات أفلاطون التي تتحدث عن قصة جزيرة أطلانتس. كانت محاورات أفلاطون المسماة بمحاورات «تيماوس وكريتياس وهرموقراطيس» كلها تتحدث عن قصة اطلانتس العجيبة، حيث أنها جنة الله على أرضه ولكنها أغرقت كلها في قلب المحيط. كانت أحداثها تتشابه مع احداث القصة التي قرأها هاشم في المخطوطة التي وجدت في غرفة البابا سلفستر الثاني، الأمر الذي جعل هاشم يجزم بأن الجزيرة المقصودة هي أطلانتس، وقد ذكرها أفلاطون عن جده الأكبر صولون عندما زار مصر ووجد قصة أطلانتس مكتوبة على أوراق البردي وعلى جدران المعابد الفرعونية. قام هاشم بالبحث عن وثائق إضافية اخرى ليقوم بإعداد دراسة عن جزيرة أطلانتس ذلك الفردوس المفقود، ليقوم بمناقشة تلك الوثائق مع أساتذته.

بدأ يبحث بين رفوف المكتبة الكبيرة عن أي أدلة أخرى ووثائق تتحدث عن أطلانتس فوجد بعد عدة أيام من البحث المضني بعض البرديات القديمة التي ترجمت من بعض النقوش القديمة والتي تتحدث عن وجود حضارة قديمة لم يتم ذكر اسمها، حيث وصفت في تلك الالواح والبرديات القديمة بأنها كانت جنة الله على الأرض، وهي دائما مشرقة ونظيفة وفيها كل شيء جميل وهادئ، حتى أن الأسد لا يفترس هناك والذئب يصادق الحمل ولا يمرض هناك أحد ولا يتألم فيها أحد مهما بلغ من العمر عتيا!!

كانت هذه العبارات أشبه بوصف أسطوري وخيالي وجدها هاشم وزادت حيرته أكثر. لقد كانت عبارات أفلاطون حول جزيرة أطلانتس أشبه بكتابات أدبية وقصائد مجنحة ترقد على دفء الحروف البريئة. لقد جعلت تلك الوثائق الغريبة هاشم يدخل في دوامة من الافكار، فكيف يصادق الذئب الحمل وكيف لا يمرض الانسان!! ان هذه القوانين الطبيعية متناقضة مع العقل، فهل يعقل أن تكون هذه مجرد أساطير وحكايات!! ولكن ان كانت تلك الحضارة عبارة عن اسطورة أو قصة خيالية فما حقيقة أطلانتس التي ذكرها أفلاطون، ومعروف عن أفلاطون أن كل ما يذكره صحيح وكان يؤكد على وجود تلك الجزيرة «أطلانتس» في بحر الظلمات وخلف أعمدة هرقل.

بدأ هاشم بمحاولة ربط تلك الوثائق والمخططات مع بعضها البعض لعله يصل الى نتيجة ما، أو

يصل الى فك تلك الرموز الوصفية الغريبة.

بعد نهاية يوم حافل من البحث المضني في المكتبة قرر هاشم الذهاب الى غرفته ليرتاح، وفي المساء بينما كان هاشم يهم بالرقاد أطفأ سراج غرفته ليبعثر الظلام واستلقى على ظهره وأغمض جفنيه لينام ويستريح من تلك الأسئلة الحائرة التي كانت أشبه بطوفان الصمت الهادر على شفتيه.

وبعد دقائق وهو على تلك الحالة وبين اليقظة والنوم تداخلت الأفكار في رأسه وبدت كأنها هذيان ما قبل النوم وتصورات وهلوسات متلاحقة، فقد رأى كأن ثورا يتحدث معه والبابا سلفستر الثاني يقف على الأرض منكوسا والقمر ينظر اليه ويضحك، ومرت أمامه الصور بسرعة مذهلة كأنها شريط من الصور السريعة والغريبة، ثم رأى كأن أحدهم يصوب نحوه سهما، أفاق هاشم من نومه مذعورا، وسرعان ما عاود النوم مرة أخرى بعد أن أدرك بأنه كان يرى أحلاما مزعجة ثم فتح هاشم جفناه وبصره الى سقف الغرفة وظل مستلقيا على ظهره دون حراك كأنه رأى شيئا بين اليقظة والمنام. وبعد هنيئة قام هاشم سريعا من فراشه وأسند ظهره الى جدار غرفته وقال.. هل يمكن أن تكون أطلانتس هي مجرد أفكار فلسفية وفيوضات روحانية؟! إذ أن ما قرأته لا يمكن أن يكون موجودا على هذه الأرض كما قال أفلاطون بأن سكان أطلانتس ليسوا بشرا مثلنا، بل انهم قادمون من ابعاد أخرى!!

بدت الحيرة تسيطر على فكر هاشم لأن مفكرا وفيلسوفا بحجم أفلاطون لا يمكن أن يكتب وصف تلك الجزيرة الفردوسية كقصة مسلية لا هدف منها وهو المفكر المعروف، وقد قام بتوثيقها بشكل كامل بحيث وصفها بأكثر من أربعين ألف كلمة!!

وبعد ساعة من تلك التساؤلات نام هاشم جالسا على جدار غرفته بعدما أضناه السهر في التفكير.

صباح اليوم التالي قرر هاشم أن يتوقف عن الدرس حتى يحصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات والخرائط التي تتحدث عن جنة أفلاطون تلك، ليقوم بعد ذلك بوضع الفرضيات الخاصة بها ومناقشتها مع أساتذته والفلاسفة الذين يكبرونه علما وسنا.

كانت تلك أول خطوة يقوم بها هاشم في رحلة الآلام التي قادته الى الحقيقة التي غفل عنها البشر.. تلك الرحلة الغريبة والمثيرة في سبيل كسر حاجز الجهل والولوج الى العوالم الخفية التي كان هاشم الطنجي يعشقها ويضحي بالغالي والرخيص لكي يسبر أغوارها ويهتك أسرارها ويكشف ما خفى منها على الإنسان.. لقد كانت تلك بداية الرحلة المؤلمة لهاشم والتي ضحى بعمره من أجل أن يصل اليها، فبدون الجهد لا يصل الانسان الى مبتغاه ولكل مجتهد نصيب.

وبعد عدة أيام من البحث المضني بين رفوف المكتبة الكبيرة وجد هاشم خريطة جزيرة اطلانتس وتساءل كثيرا حولها، فقد كان يظن أن تلك الجزيرة ذات أبعاد فلسفية أكثر من أن لها أبعادا مادية ثم فجأة يجد خريطة لها في بحر الظلمات!!

رجعت الحيرة الى هاشم مجددا وظلت تعصف به رياح الفلسفة العاتية، وتتلبد أمام ناظريه غيوم الحيرة الرمادية.. إذاً هي لها وجود في العالم المادي مع وجود أبعادها التي تكاد تكون مثالية وفلسفية. شعر هاشم بالاثارة مجددا والتحدي وكأن أحدهم يقوم باستفزازه، الأمر الذي جعله يصر على أن يتوصل الى فك لغز أفلاطون المثير.

وفي يوم من الأيام كان هاشم يقلّب فيها بعض الوثائق والخرائط التي حصل عليها حول جزيرة أطلانتس، وبعدما أحس بصعوبة فك ذلك اللغز تكدر ذهنه وقال في نفسه إن سكان أطلانتس ينامون على زغب الملائكة في حين يعيش الآخرون فوق أنياب الشياطين.. هل هم يعيشون في الجنة؟ قد يدخل تلك الجنة من يجتاز عقبات ذلك اللغز الغريب جزاء له، ولكن كيف وكيف؟ لقد بدا ذلك اللغز لهاشم التحدي الأكبر في حياته.

قرر أن يشرك الآخرين ويناقشهم حول ما توصل اليه، فمن شاور الناس شاركهم في عقولهم. وبعد بحث جاد عن الشخص المطلوب وجد هاشم الشخص المناسب. إنه الفيلسوف الشيخ عمران بن سعيد أستاذ الفلسفة والعلوم الخفية في دار الحكمة، لقد كان شيخا طاعنا في السن ومريضا ولا يواظب على الحضور الى التدريس بسبب حالته الصحية، ولكن هاشم اقتنع به بعد سؤال وتدقيق حول الشخص المناسب الذي يقوم بمساعدته في فك طلاسم أطلانتس ولغز أفلاطون.

سأل هاشم عن الشيخ فقيل له أنه يلازم داره بسبب حالته الصحية، توجّه هاشم لداره كي يستفيد من علمه لعله يصل الى فك خيوط لغز أفلاطون. خرج خادم الشيخ وفتح الباب فسأله هاشم عن الشيخ فقال له إنه مريض ولا يستطيع أن يقابل أحدا.. ولعلك تأتي في وقت آخر ويكون أحسن حالا من حاله الآن.

أحس هاشم بالحرج ورجع الى داره وهو يفكر في طريقة أخرى للحصول على المعلومات التي يريدها، فلم يكن أمامه بد من أن يسأل الشيخ عمران فهو الأفضل والأكفأ.

انتظر هاشم عدة أيام ثم ذهب هناك مرة أخرى، وأثناء ما كان هاشم يمشي متجها له كان يراود نفسه بأنه سوف يصل لحلول أو حتى أنصاف حلول تساعده للوصول لفك لغز أفلاطون الحكيم، وبينما هو يفكر في ذلك وجد نفسه أمام باب دار ذلك الفيلسوف الكهل.. فطرق الباب ثم فتح الخادم الباب بسرعة.

لقد أذن الشيخ لهاشم بالدخول الى الدار هذه المرة، فلما دخل وجد الشيخ وهو ممدد على فراشه وكان يبدو أنه لم يتحسن فأحس بالاحراج الشديد، سلّم هاشم على الشيخ وجلس عند رأسه وقال له: شيخنا الأجل لقد جئت في طلب بعض المسائل المعقدة لعلي أجد جوابا لها عندك.. فأجابه الشيخ: عن أي شيء تسأل؟

فذكر له هاشم ما وجده في مكتبة الأسرار القديمة حول الجزيرة الفردوسية والمخطوطة التي كانت مرفقة مع مخطوطة صفقة الشيطان وكتابات أفلاطون حول جزيرة أطلانتس، والصعوبة التي لاقاها في تحديد حقيقة تلك الجزيرة فيما اذا كانت ذات معنى مادي أو فلسفي، والخريطة التي وجدها مؤخرا والتي تؤكد على وجود تلك الجزيرة في بحر الظلمات.

وسأل هاشم الشيخ قائلا هل يمكن أن تُلغى قوانين الطبيعة وهي موجودة على كوكب الأرض؟ فرد عليه الشيخ قائلا: نعم يمكن ذلك، ولكن لو حددت سؤالك أكثر وأسهبت فيه لأجبتك بالتفصيل، فقال هاشم لقد قرأت عن جزيرة اطلانتس في كتابات أفلاطون وبعض القرائن التي على شاكلتها وأن أهلها ليسوا بشرا مثلنا، بل أنهم قادمون من أبعاد أخرى، كما أن الحيوانات فيها لا تفترس بعضها البعض والحمل ينام في حضن الذئب، فهل يكون ذلك ممكنا؟!

فأجابه الشيخ بأنه وجد في أحد الكتب بأن لله عبادا وصفوا بأنهم قد كُشف الغطاء عن أبصارهم وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم، وترسخت أشجار الشوق في حدائق صدورهم، فهم في رياض القرب والمكاشفة يرتعون ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون، وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممهم، وإطمأنت بالرجوع الى رب الأرباب أنفسهم، تلذذوا بخواطر الإلهام وساروا إليه بالأوهام في مسالك الغيوب، واطمأنت بالرجوع الى رب الأرباب أنفسهم، وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم. إن سألوا الله أعطاهم وإذا رجوه لم يمنعهم، يعيشون في الدنيا وأرواحهم معلّقة بالمحل الأعلى، يسخّر الله لهم مخلوقاته وعجائب قدرته، فلا تستغرب إذا عطلت القوانين الطبيعية هناك لأجلهم. ولكنهم أقل بكثير مما تتصور يا عزيزي.. بكثير.. بكثير.. كان الشيخ يتكلم بصعوبة وبحة صوته تمنعه من متابعة كلامه الذي أخذ بلب هاشم وجذبه بقوة، حيث أنه لم يسبق له أن سمع هذا الكلام من قبل ولا غرابة، فالشيخ عمران فيلسوف ومن كبار الفلاسفة. ثم

أردف الشيخ قائلا: ولكنك يا عزيزي لن تستطيع أن تدركهم حتى تحصل على مفتاح تلك الجنة الفردوسية. فسأل هاشم الشيخ: وما هو المفتاح؟ وكيف أحصل عليه؟ فقال له الشيخ: إن حب الخير هو المفتاح فاجهد نفسك أن تحصل على ذلك المفتاح لكي تستطيع الولوج الى تلك الجنة فانقشعت عنه غيوم الحيرة بعد غيث سحر البيان الذي جعل أفكار هاشم مزدانة تتلألأ بالألق، كجمال ألوان قوس السماء بعد عاصفة الحيرة والقلق. ثم جاء الخادم واعتذر من هاشم قائلا له: لقد أكثرت على الشيخ السؤال ويفترض أن يرتاح الشيخ الآن فهو لا يزال مجهدا. أُحرج هاشم بعد ذلك وقام معتذرا بعدما شكر الشيخ وخرج من الدار.

ظل هاشم يدور في أروقة دار الحكمة لا يدري إلى أين يذهب حيث أنه كان يفكر مليا فيما سمعه، وسرعان ما عادت الحيرة له مجددا بعدما أحس أن الشيخ لا يريد أن يكشف له عن تلك الأسرار، فقد اكتفى بذكر المفتاح دونما أي ذكر لطريقة الحصول عليه سوى أنه قال.. حب الخير!!

وفجأة قرر هاشم أن يجهز بعض الأسئلة في الزيارة القادمة ليطرحها على الشيخ عمران بشكل مختصر ويحصل على الإجابة بسرعة وبدون أن يسبب له أدنى إجهاد بدني فأمضى في المكتبة عدة أيام ليجهز الأسئلة التي كانت أشبه بالنظريات الفلسفية، ولكن.. سبق القدر هاشما.. فقد توفى الشيخ عمران وانتقل إلى الرفيق الأعلى.. وظلت أسئلة هاشم الحائرة بدون جواب.

أحس هاشم مرة أخرى بخيبة الأمل فكلما اقترب من حل اللغز بَعد عنه. ثم تساءل في نفسه قائلا ولكن لماذا أغرقت تلك الجنة في بحر الظلمات؟ هل كفرت بأنعم ربها بعد أن كانت طائعة؟! وماذا كان يقصد الشيخ عندما قال أنك لن تدركهم حتى تحصل على مفتاح تلك الجنة.. هل لا تزال موجودة؟!

وعلى الفور تذكر هاشم العبارة التي كانت موجودة في المخطوطة القديمة والتي تقول بأن الجزيرة سوف تظهر مجددا على أيدي الفلاسفة!! كان ذلك أشبه بحلم غريب ويجب أن يفسره هاشم، لأن ذلك كان يشعره بالتوتر أحيانا عندما لا يصل الى حل.

وفي صباح يوم من الأيام أفاق هاشم من نومه باكرا على وقع فكرة كاد عقله يجزم بأهميتها حول ما يبحث عنه. فقال حل ذلك اللغز يكمن في الوثيقة الاولى التي جعلتني أبحث عن فكرة جزيرة أفلاطون من أساسها، إنها وثيقة «صفقة مع الشيطان». لقد أحس هاشم بأن السر يكمن في تلك الوثيقة الغريبة.. لقد كان محتوى الوثيقة مكتوباً بحبر سري لا يظهر للقراءة سوى العنوان فقط. وبعد تفكير وتمحيص بالأمر قال هاشم: الحل عند البابا سلفستر الثاني. لقد كان البابا متوفيا قبل ولادة هاشم بعدة قرون، وكان هاشم يعلم بذلك فقرر أن يقرأ أي آثار مكتوبة للبابا لعله يجد أي شيء آخر يكشف له عن حقيقة لغز تلك الجزيرة الفردوسية.

إزداد اهتمام هاشم بالبحث عن شخصية البابا سلفستر الثاني بعدما علم بأنه قد حفظ القرآن وتعلّم اللغة العربية وتعلّم الأرقام وما يقابلها من حروف حيث نقلها الى اوروبا واهتم بالتنجيم. كانت شخصية البابا سلفستر الثاني محاطة بالغموض والغرابة نظرا لكونه مسيحياً يدرس في جامعات العرب، وهو أول مستشرق أوروبي وأول بابا يحفظ القرآن ويتقن العربية. ويا للأسف فبعدما أتم دراسته عند العرب وارتقى الكرسي الرسولي في روما، رد المعروف للعرب بأن ابتدع فكرة الحروب الصليبية ضد المسلمين والعرب.

لم يجد هاشم أي مخطوطات أخرى لهذا البابا غير رسائل وخطب ومؤلفات في الرياضيات والتنجيم أخذها البابا الى روما بعد أن تم استنساخ بعض منها، الأمر الذي جعل هاشم يتحمس أكثر لسبر أغوار هذه الشخصية الغريبة والغامضة.. لقد بدأت التساؤلات تنام وتصحو مع هاشم وفي كل مكان. ما حقيقة وثيقة صفقة مع الشيطان.. وما علاقتها بالجنة الفردوسية التي تشبه ما كتبه افلاطون الحكيم عن أطلانتس.. وما حقيقة الرأس النحاسي الذي صنعه البابا والذي يجيب على كل الأسئلة؟! لقد اختفى

الكثير من محاورات أفلاطون مع ذهاب البابا الى روما حيث كانت تسجل المخطوطات والكتب في دفتر لعناوين وفهارس الكتب، الأمر الذي زاد من حيرة الموضوع لدى هاشم، وأحس بأن هناك لغزا ما حول الصفقة المزعومة والجزيرة الفردوسية.

سأل هاشم نفسه ذات مرة: هل توصّل البابا سلفستر الثاني الى ما توصل اليه أفلاطون في لغز الجنة الفردوسية «أطلانتس»؟ ثم قال: هذا ما يجب علي أن أكتشفه بنفسي وأعرفه مهما كلفني الثمن.

وفي أحد الليالي ذهب هاشم إلى فراشه وهو يمني نفسه بأن يلج الى تلك الجنة «أطلانتس»، ثم أوقد بعضا من الشموع ليتصفح الكتب، فبدأت تعصف به الأفكار مجددا وتراوده بين الفينة والأخرى، على ضوء تلك الشموع التي كانت تتراقص على رياح الخريف الدافئة، وتشعل التحدي في روح هاشم حول تلك الجنة، فتارة يعتقد بأنها ذات أبعاد فلسفية وتارة يرى أنها ذات أبعاد مادية وتارة يرى أنها ذات أبعاد أخرى لا يمكن للعقل القاصر أن يدركها ويفهمها.

كانت تلك الخواطر والتساؤلات التي يثيرها هاشم تزيده حبا وتعلقا بتلك الجزيرة الفردوسية، فهو لا يكاد يفكر الا فيها ويضع الفرضيات والنظريات حولها. لقد كانت أفكار تتغزل تلك العوالم الخفية كعرائس حالمة على شرفات الهوى ترقب البدر البهي وتبث شكايات الحب والغرام.

التقى هاشم ذات يوم بأحد أساتذة الحكمة والفلسفة الاسلامية وسأله عن بحثه حول جزيرة أفلاطون الفردوسية والغموض الذي يحيط بها والوثائق التي وجدها تشير لها أيضا في مخطوطات البابا سلفستر الثاني، فأشار له أستاذه بأن كل ما وصلنا من ذلك هو محاورات أفلاطون حول تلك الجزيرة، ولا يوجد أي مخطوطات اخرى، أما عن آثار البابا المكتوبة فلم يعد لها وجود هنا، فسأله هاشم أين يمكن أن يجدها، فقال الأستاذ بأنه إذا أردت أن تجدها فعليك أن تبحث عنها في روما، في مكتبة قصر لاتران.. الواقعة في المجمع اللاتراني في قلب الدولة البابوية.

ذهل هاشم مما سمعه، وقال له.. أين يا سيدي أين؟ روما؟ إنها بعيدة من هنا جدا ويفصلنا عنها البحر.

ترك أستاذ الفلسفة هاشم بعدما ابتسم في وجهه قائلا له: اطلب العلم ولو بالصين. أطرق هاشم رأسه قليلا وهو يفكر في كلام الاستاذ ويقنع نفسه بأن العلم يؤتى له ولا يأتي، وبأن في السفر فوائد وعوائد. ظل هاشم يفكر مليا في أن يسافر الى روما أو أن يلغي فكرة الحلم بالجنة الفردوسية بأكملها، ويستغني عن ذلك البحث الذي أضناه لعدة أشهر، وظل يردد دائما إما النوم على زغب الملائكة أو المشي على أنياب الشياطين.

وبعد عدة ليال من التفكير العميق حول موضوع السفر قرر هاشم أن يسافر الى روما ليكتشف لغز أفلاطون والأسرار الغريبة التي أخفاها البابا سلفستر الثاني حول الجزيرة نفسها أيضا.

أقنع هاشم إدارة دار الحكمة بضرورة القيام بالرحلة لكي يتم توفير المبلغ اللازم للسفر والحصول على الوثائق المطلوبة وتأليف كتاب حول جزيرة أفلاطون وفك خيوط لغزه، وفعلا تم له ما أراد، حيث استدعاه خازن دار الحكمة الشيخ عبد البر القيرواني وأحد مساعديه وقدما له صرة من المال وشجعاه على الحصول على تلك الوثائق لأهميتها ولاثراء البحث العلمي حول جزيرة أطلانتس. لم يتبق لهاشم سوى التجهيز والاستعداد لتلك الرحلة الطويلة والشاقة. كانت القيروان تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن الساحل الذي يسيطر عليه العثمانيون بعدما كان يسيطر عليه البيزنطيون.

قام هاشم بالتجهيز للرحلة واشترى راحلة وزادا يكفيه للأيام الثلاثة التي يصل خلالها الى الساحل، واستعد للرحلة بروح عالية وخصوصا بعد حصوله على الدعم المادي من دار الحكمة التي كانت تقدّس العلم وتحترم العلماء.

ومع بزوغ فجر اليوم التالي توجه هاشم الى بوابة تونس للخروج من القيروان، التي كانت محاطة

بسور يبلغ ارتفاعه سبعة عشر ذراعا مصنوع من الطوب ويشتمل على ستة أبواب رئيسية. كانت وجهة هاشم شمالا نحو بوابة تونس ليخرج منها، حيث أن تلك البوابات لا تفتح الا مع بزوغ الفجر وتغلق قبل حلول الظلام خوفا من الاعداء، حالها في ذلك حال الكثير من مدن العالم العربي والاسلامي.

لم تكن المسافة بعيدة جدا عن الساحل بحيث يحتاج هاشم الى الخروج مع قافلة، فقد كانت البلاد آمنة ومع ذلك خبأ هاشم المال تحت عمامته خوفا من اللصوص، فلا يستطيع أحد ان يضمن السلامة في تلك القفار.

وصل هاشم الى باب السور الذي فُتح مباشرة وتفاءل هاشم بذلك وقال وهذا هو حسبه بداية الفتح والفلاح. خرج هاشم من البوابة، أناخ راحلته ثم ركب عليها بعد أن كان ماشيا وماسكا بزمام راحلته، لقد بدأ هاشم مضحكا عندما ركب راحلته فهو لم يعتد على ركوبها، فتراه تارة يضم ركبتيه وتارة يسدلهما الى أسفل، وظل هاشم يبتعد رويدا رويدا عن مدينته التي عشقها وأحبها.. القيروان.. حتى بدأت تتلاشى خلفه وغارت كالسراب في وسط الصحراء الساكنة التي لا يكاد يرى فيها شيئا ولا يسمع صوتا غير صوت كلاب بعيدة تنبح.

تحدرت دمعتان منه وهو يقول في نفسه لا أعلم الى ما سيؤول له مصيري. هل سأعود لها قريبا أم أنها المرة الأخيرة التي أرى فيها القيروان. لقد عشق هاشم مدينته القيروان لأنها مهد الحضارة العربية الاسلامية وساهمت في بناء صرح حضارة العلم، وتحمل في كل شبر من أرضها مجداً وأصالة وإرثاً عريقاً، وحافظت على مجدها التليد كمدينة للعلم والعلماء.

تلاشت القيروان خلفه وبدأت رياح الخريف تعصف بتلك الصحراء وبدأ المكان موحشا وساكنا على عكس ذلك الانس والصخب الذي عاشهما هاشم في أحضان العلم والعلماء وقراءة الكتب. لقد بدا كل شيء صامتا عدا أصوات الرياح ومنظر السراب الخادع وراحلته التي كانت صامتة طوال الوقت ولم تبد أي تذمر، حتى ان الرياح لتسفي في وجه راحلته دون أن يرى منها أي مقاومة فقد خلقها الله هكذا لتقاوم الحياة القاسية في الصحراء، بينما كان هاشم متذمرا من ذلك الغبار العاصف مع أنه كان ملثما ولا يرى من وجهه سوى عينيه ورموشه التي تلونت بلون الرمال.

لم يكن هاشم معتادا على ذلك فلقد عاش طوال حياته بالمدينة، وأثناء ما كان يمشي على تلك الحالة إذ تذكر لمّا أتى به أبوه صغيرا الى القيروان من طنجه. وتذكّر والده ثم تحدرت دموعه مرة أخرى وقال كان يفترض بي أن أعود الى أهلي والى طنجه بدل أن أسافر طلبا للعلم.. لكن حتما سأعود عندما أرجع من روما، وعقد هاشم العزم على الرجوع الى طنجه عندما يعود من روما. ثم أنشد شعرا في طنجه قائلا:

يا طنجة الخير هاج الشوق والألمُ
حتى كأن فؤادي كله حممُ
مزجت عشقك في قلبي لأذكره
وبيننا تمزج الأنساب والرحمُ
وأطربت سمعي الذكرى كمغرمة
قد شنّفت سمعها الألحان والنغمُ
خرجت أبحث عن ذاتي وعن ولعي
فلا تلومين صدرا علمه نهمُ

لقد كان يتوجّد على طنجه فهي مسقط رأسه ومدينته التي عاش فيها ذكريات طفولته، ولكن حبه للعلم كان خصلة متأصلة فيه. وأثناء مسيره في دربه تذكّر أن عليه أن يجد بئر ماء في الطريق ليتزود

من الماء وليعرف أنه على الطريق الصحيح، وبعد أن قاربت الشمس على الغروب ولما يصل بعد الى تلك البئر، قرر أن يتوقف عن المشي ويستريح تلك الليلة حتى يطلع النهار ثم يكمل مسيرته نحو الساحل، فقد كان يملك قربة مملوءة بالماء ويكفيه ما لديه. أناخ راحلته ثم ذهب ليجمع الحطب ليوقده ويقيه من برد الصحراء.

كانت ليلة مظلمة غاب فيها القمر وشعت فيها النجوم التي بدت مثل السرج المنيرة المعلّقة في سقف السماء وجعلت هاشم يتأمل فيها ويسبّح بحمد الله. وبينما كان هاشم يتأمل النجوم إذ تذكّر الحلم الذي رآه عندما كان يقرأ كتب أفلاطون الحكيم ويدرس كتب الفلسفة والحكمة، وجعل يتأمل في السماء وكأن الحلم يراه مرة أخرى أمامه، فكثرة النجوم في سماء الصحراء تثير الخيال، ثم أحس بأن هذا الحلم له علاقة وثيقة بسفره هذا وأنه تفاءل به بعدما كان يقول عنه أنه أضغاث أحلام وخيالات الفلسفة والأوهام.

استلقى على ظهره وجعل يتأمل أكثر وأكثر في النجوم واستغرق في الأفكار كثيرا. ثم جلس واضعا كلتا يديه حول ركبتيه ويتأمل في الجمر الأحمر في النار التي أوقدها، وإذ به على تلك الحالة إذ أبصر شبحا أسودا وطويلا أمامه وهو يتقدم نحوه.. فخاف هاشم كثيرا وتسمر في مكانه واتسعت حدقتا عينه إذ أذهله ذلك الشبح الأسود الطويل القادم نحوه، كانت نبضات قلبه تتسارع ونفسه يعلو، وبدأ يحس بوخز كوخز الإبر في جبينه وظهره من العرق. وهو على تلك الحال المزرية ونبضات قلبه تزداد وهو لا يعرف ماذا يفعل، فلا يوجد مكان في هذه الصحراء يلجأ له من ذلك المخلوق الغريب.. ولكن سرعان ما تبددت مخاوف هاشم إذ كان ذلك الشبح راحلته التي نسى أن يعقلها.

ضحك هاشم كثيرا وبدأ يربت على راحلته ويقول كان ينبغي ألا أسافر والقمر في المحاق، ثم توشح بردته ونام على رحله نومة هانئة. ومع بزوغ الفجر كان قد شبع من نومه وأحس بأنه نام لثلاث ليال متواصلة، فالنوم في الصحراء الهادئة يريح البدن كثيرا فلا سرج هناك ولا ضوضاء. كانت الريح هادئة والنار مطفئة سوى بعض الجمر الذي يتراءى بين فجوات النار الخامدة. ثم قام وتوضأ وصلى الفجر وبعد ذلك توجه الى راحلته وفك عقالها واكمل مسيرة اليوم الثاني نحو الساحل.

ظل يمشي حتى طلعت الشمس خلفه، وعند الضحى وجد البئر فنزل من راحلته وسقاها وعبأ قربته ثم عاد المسير نحو هدفه، وعندما صارت الشمس في كبد السماء عاودت الريح نشاطها محملة بالأتربة، الأمر الذي جعل بعير هاشم يتجه يمنة ويسرة ولا يعرف الى أين يتجه، وهاشم يوجهه إلى الأمام دون جدوى ثم نزل عن ظهر البعير ووضع رأس البعير في حجره وأغمض عيني الجمل لئلا تدخل الرمال في عيني راحلته. وظل على ذلك الوضع أكثر من ساعة حتى هدأت الريح وسكن صوتها المهيب.

لقد أجهدت الريح هاشم كثيرا، وعندما هم بركوب راحلته لاحظ وجود خيمة خلفه ليست ببعيدة عنه كثيرا فقرر أن يذهب هناك لعله يستريح عند أهل هذه الخيمة.

كانت قبائل الطوارق من البربر تسكن تلك البوادي من الصحراء وعرف عنهم الكرم وإغاثة الملهوف وهم أهل الصحراء وأعرف الناس بها. توجه نحوهم دون أن يكون ملمًّا بعادات البدو هناك فاقترب من الخيمة كثيرا حتى كاد أن يدخل فيها ثم نادى على أصحاب المكان.. الأمر الذي أثار حفيظة سكان الخيمة حيث أنهم استغربوا قدوم شخص لا يفقه بأصول وعادات البدو هناك لأنه يفترض عليه أن يبتعد مسافة أكبر من تلك وينادي على أصحاب الخيمة.

لقد كاد جهل هاشم بعادات البدو هناك يوقعه في كثير من المشاكل والإحراجات لولا لطف الله به ومعرفة أهل البادية بأنه ليس من سكان الصحراء فلا هو يجيد ركوب الجمال ولا هو يعرف كيف يتصرف عند الاقتراب من خيامهم، حتى أن عمامته لم تكن تلك التي تشبه عمائم قبائل الطوارق التي

تغطي الرأس والوجه بأكمله عدا العيون فقط.

نادى على أصحاب الخيمة فظهرت له امرأة في الخيمة ورحبت به واستضافته قائلة له تفضل بالجلوس ريثما يأتي زوجي من رعي الأغنام. وما هي الا سويعة حتى قدم أحدهم على ناقة سريعة الخطى، كان ملثما ويرتدي جلبابا واسعا من أطرافه ورجلاه مكشوفتين، وصل الى الخيمة ثم وقف على بابها وسلّم على هاشم. كانت يد ذلك الرجل سمراء خشنة بينما كانت يد هاشم طرية لينة الأمر الذي أثار انتباه الرجل فقد عرف بأن هاشم ليس من أهل البادية.

جلس الرجل إلى جانب الموقد وقام باعداد الشاي المغاربي بالنعناع المجفف ثم ملأه بالسكر حتى امتلأ ابريق الشاي برغوة السكر. كان الرجل صامتا طوال فترة إعداد الشاي، حتى سكب لهاشم الشاي وقدم له رغيفا من الخبز البربري السميك الذي يدفن بالرماد لينضج، فأكل هاشم من رغيف الخبز وشرب من الشاي وطلب أن يستريح قليلا ليتمكن من إكمال مسيرته نحو الساحل الذي كان قريبا حسب رأي هاشم. استغرب الرجل من كلام هاشم فقال له الساحل؟! إنه يبعد عن هنا مسيرة أربعة أيام، فذهل هاشم مما سمعه ولم يعرف ماذا يقول، فقال هاشم للرجل: لكن أنا خرجت من القيروان قبل يومين وقيل لي بأن الساحل يبعد عنا مسافة ثلاثة أيام، وعلامة ذلك البئر الذي في منتصف الطريق، فقال له الرجل لا يا عزيزي لقد أضعت دربك في الصحراء، والبئر الذي رأيت لم يكن هو البئر الموصوف لك فالصحراء مليئة بالآبار هنا وهناك.

حينها عرف هاشم لماذا بزغت الشمس من خلفه بينما كانت من المفترض أن تخرج على يمينه لأنه يجب أن يتوجه شمالا وليس الى جهة الغرب. أصر الرجل على أن يجلس هاشم عنده يوما آخر ليقدم واجب الضيافة له، فرفض هاشم معللا ذلك بأن أمامه مهام يجب أن ينهيها بسرعة. فقال له الرجل إذا كان كذلك فلا بد أن يكون معك دليل في هذه الصحراء ليساعدك للوصول الى الساحل بأسهل الطرق. فأشار الرجل الى ابنه الذي قدم للخيمة في التو وطلب منه أن يوصل هاشم الى الساحل ويرجع.

شكر هاشم الرجل على حسن استضافته له وغادر الخيمة مع دليله وسارا متجهين الى الساحل شمالا وهم يحثان الخطى، يمشيان في النهار ويستريحان في الليل. كان الرجل الدليل يتحدث مع هاشم باللغة الامازيغية وهاشم يكتفي بالتبسم حين لا يفهم ماذا يقول له لأنه كان يجهل الكثير من الكلمات الامازيغية.

حتى ان الدليل قد مل من كثرة سكوت هاشم الذي كان يتأمل فيه حيث انه لم يستطع أن يرى من وجهه سوى عينيه السوداوين وبشرته السمراء القاسية وحواجبه المقطبة، لم يكن ذلك الدليل الأمازيغي ودودا نحو هاشم الذي لم يألف مثل هؤلاء، فقد كان يعيش في المدينة وفي جو علمي يسوده الألفة والمودة. ظلا يطويان تلك الصحاري حتى اقتربا من مدينة أوتيك القريبة من الساحل، ثم التفت الدليل إلى هاشم وقال له أمامك ساعات قليلة وتصل أوتيك وأنا أستأذنك بالرجوع الى دياري. فأشار هاشم الى الدليل لينتظره، ثم أخرج صرة من المال كانت في عمامته وأخرج منها مبلغا بسيطا من المال ومد يده الى الرجل ليأخذه نظير مساعدته لهاشم. تسمّر الرجل على ظهر راحلته وضحك مستهزئا بهاشم وقائلا له: نحن البدو نغيث الملهوف ونشبع الجائع. خذ مالك فلا حاجة لي به. وكز الرجل راحلته بقدمه ماسكا بزمام الراحلة وراح مبتعدا وهاشم يتأمله وقد أعجب بحسن تصرفه.

أكمل هاشم مسيرته نحو أوتيك وهو يتأمل في ما حدث معه خلال الأيام الماضية، وقال في نفسه عجيب أمر الصحراء فهي جدباء بخيلة ولا تعطي شيئا مع أن أهلها من أكرم الناس، ويتوه الناس بآفاقها وأهلها يغيثون الضائعين، فقال نعم لو كانت الصحراء جنات وأنهارا لما صار أهلها كرماء، فالانسان والبيئة في كفّتي ميزان، كلما شحت أنفق وكلما أعطت أمسك، فالتوازن أساس الحياة وحتى لا يطغى شيء على الآخر وتتعادل كفتا ميزان الحياة.

ظل هاشم يسير نحو أوتيك حتى تغيّرت طبيعة الأرض واكتست الأرض ببعض الحشائش الخضراء الصغيرة حتى وصل الى آثار فينيقية بالطريق وبالقرب من مدينة أوتيك والساحل، فقرر أن يستريح عند تلك الآثار الفينيقية الجميلة ويتأملها فهو دائما ما يتأمل ويعتبر. جلس فوق صخرة كبيرة كانت جزءاً من مبنى فينيقي قديم قد نبتت الحشائش حولها، وظلت شاهدة على تاريخ الصحراء وشمال أفريقية.

كانت صامدة في وجه الرياح العاتية وشآبيب المطر النازلة وحبات البرد القاسية، وكانت تحتوي على كتابات ونقوش فينيقية وهيروغلوفية جعلت هاشم يتأملها، فقد أولدت الأبجدية الفينيقية جميع أبجديات العالم كاليونانية واللاتينية والعربية والعبرية.

عندما تأمل الصخرة مجددا قال في نفسه لقد جعلها الفينيقيون خالدة كأسطورتهم «طائر الفينيق» فإنه إذا مات يبعث من الرماد ليعود الى الحياة مجددا ويبقى رمزا للخلود. كان هاشم يهوى الآثار ويحب أن يقف عندها كثيرا ليعتبر.

كان الهواء عليلا ويحرك تلك الأعشاب البرية التي كانت تعبق رائحتها بالمكان مع وجود لبعض الغيوم المتقطعة في سماء أوتيك الزرقاء. تذكر هاشم طفولته في طنجه عندما كان يلهو ويأنس بالهواء العليل على أطراف المدينة وبعيدا عن ضوضائها. أحس هاشم بالشوق الى مسقط رأسه، فالمكان جميل ويحمل لهاشم ذكريات الطفولة، ولكن هناك الكثير لدى هاشم لينجزه فعليه أن لا يتأخر ويضيع وقته في تلك الخرائب والآثار التي كانت في يوم من الأيام من أرقى حضارات الأمم على مر العصور.

تحرك نحو مدينة أوتيك الساحلية وهو يسرع الخطى على ظهر راحلته حتى وصل الى مينائها بعد ستة أيام من خروجه من القيروان. ولولا لطف الله لتاه هاشم وسط الصحراء الكبرى وغاصت راحلته في الرمال المتحركة، ولكن الله سلّمه ووصل الساحل والميناء بعد جهد جهيد.

في الطريق إلى روما

كان ميناء أوتيك يزخر بسفن التجارة القادمة من أوروبا والشرق والتي كانت تستورد الصوف واللبان والسجاد والجلود والأعشاب الطبية والعطورات العربية واللؤلؤ والمرمر والمشغولات النحاسية والخزفية من شمال أفريقيه.

كان هناك بعض سفن الصيد العتيقة والسفن التجارية الكبيرة التي كانت تتدلى من أشرعتها حبال كأنها خيوط العنكبوت من كثرتها. كان المنظر مهيبا بالنسبة الى هاشم، فبالرغم من أن مدينة طنجه مسقط رأسه كانت تقع على الساحل إلا أن طنجه لم تكن بذلك الجمال الذي كانت عليه أوتيك مدينة الحضارات القديمة.

وصل هاشم الى الميناء ووجد الكثير من قوافل الجمال وهي باركة في ساحة أمام مكان خاص بتنزيل وتحميل البضائع من السفن واليها، وكان هناك الكثير من الذين يعملون بالميناء وهاشم لا يزال على ظهر راحلته يتأمل ولا يدري أين يذهب. أصوات الناس تتعالى ورغاء الجمال وأصوات النوارس وصوت أمواج البحر التي تضرب الساحل.. كان المشهد يدعو للتأمل.. وفجأة ظهر رجل قصير القامة أمام هاشم، كان أنفه معقوفا وعلى صدغيه ظفيرتان طويلتان يصلان بطولهما الى ذقنه وقال لهاشم: هل أستطيع أن أخدمك سيدي؟ فقال هاشم أريد أن أذهب الى روما ولا أعرف أين أذهب بعدما وصلت هنا، فقال له ذلك الرجل: إذاً أنت معي في نفس السفينة المتجهة الى روما غدا، تفضل سيدي بإمكانك أن تستريح في تلك الغرفة هناك ريثما تبحر السفينة في صباح الغد باكرا.

توجه هاشم هناك نحو الغرفة وأخرج رحله ووضعه في أحد الغرف المبنية هناك والمخصصة للمسافرين، ثم أودع راحلته عند أحد العاملين هناك مقابل مبلغ مالي يدفع بعدما يرجع هاشم من سفره. إستغرب هاشم لماذا أشار عليه الرجل بالذهاب الى تلك الغرفة القديمة مع وجود الكثير من الغرف المجهزة للسكن بشكل أفضل من تلك الغرفة، ولكن التعب جعل هاشم يتوجه لها دون ادنى تفكير بالأمر، فالتعب يشل التفكير. كانت الغرفة مصنوعة من الحجر ومسقوفة بجذوع النخل المنتشر هناك ولا يوجد بها فراش سوى حصير قديم قد أكل الدهر عليه وشرب. استلقى هاشم على ذلك الحصير القديم ونام من ساعته كأنه ينام على فراش وثير وذلك من شدة التعب الذي لاقاه هاشم خلال الأيام الماضية.

لم يكن بالغرفة باب أو شباك سوى فتحات للشبابيك وفتحة للباب جعلت هاشم يتقوقع في أحد زوايا الغرفة التي كان هواء البحر البارد يخترقها في المساء.

استيقظ هاشم قبيل الفجر على وقع صوت حظي أحدهم حيث لمح هاشم خروج شخص قصير القامة من الباب ثم اختفى، فقام هاشم وهو خائف حذر وخرج خلفه، فلم يستطع أن يرى أحدا فقد كان الضباب كثيفا ويخيم على المكان، ولأول مرة يرى هاشم ذلك الضباب بتلك الكثرة التي تجعل المكان أبيضا بأكمله، فلا يستطيع أن يخطو خطوات قليلة بذلك الضباب دون أن يكون مطلعا وعارفا بالمكان. غيّر رأيه ورجع الى فراشه وقال لعله كان يبحث عن غرفة ليبيت فيها فلما وجدني بالغرفة خرج منها.

وفي صباح الغد الباكر استيقظ هاشم وهو يحمل متاعه القليل وينتظر ساعة الصعود الى السفينة. كانت السفينة متوجهة الى ميناء مدينة نابولي، وبعد ذلك ينزل الركاب في سفينة أخرى للتوجه الى ميناء مدينة روما. شعر هاشم بشيء من السعادة والخوف لأنه أحس بأنه يقوم بمغامرة كبيرة فقد جلس لأيام وليالي وهو يفكر في كيفية الحصول على الوثائق المطلوبة في مكتبات قصر لاتران.. عرش السلطة البابوية، خصوصا عندما يتذكر بأن إدارة دار الحكمة هي التي ساندته في تلك الفكرة وأمدته بالمال اللازم للقيام بذلك.

كان الوقت مبكرا والضباب يملأ المكان والهدوء كذلك، وبعد برهة من الوقت بزغت الشمس وامتلأ المكان بالركاب والبضائع التي كانت تحمّل طوال ليلة البارحة. ثم نادى مناد على الركاب بالصعود الى السفينة استعدادا للسفر فتوجه هاشم مع الركاب وهو يتأمل نور شمس الصباح الذي سطع في عينيه، وقال في نفسه إنها بداية نور الحقيقة الذي بدأ ينجلي ويظهر، وسوف أصل الى ما لم يصل له الآخرون بكشفي لحقيقة أطلانتس التي ملأ أفلاطون كتب الفلسفة بها.

صعد الركاب الى ظهر السفينة وصعد هاشم معهم فرحا ومتفائلا ثم رفعت المرساة وسحبت الحبال، وانطلقت السفينة تجوب بحر الظلمات مبتعدة عن شواطئ المغرب العربي الى أن بدأت تختفي عن نواظر هاشم حتى أصبحت كالسراب، فقال هاشم وهو يلتفت نحو تلك الشواطئ:

في ذمة الله يا أهلي ويا وطني
يا قرة العين في الأفراح والمحنِ
رحلت منكم ودمع العين متصل
كأنني بين لحد القبر والكفنِ

قال هاشم تلك الكلمات ودموعه تتقاطر منه، فهو مرهف الحس ويعشق وطنه، ولولا حب العلم وعشقه لاكتشاف الحقيقة لما ترك القيروان، وللناس فيما يعشقون مذاهب. لقد ظل واقفا على طرف السفينة ميمِّما وجهه نحو بلاده وهو يفكر، فتارة يمني نفسه بلذة اكتشاف الحقيقة والمغامرة التي عزم على أن يقوم بها، وتارة يلوم نفسه ويرى أنه قد تسرّع بعض الشيء، فالسفر الى روما في الدولة البابوية قد يكون خطيرا هذه الأيام. ولولا ثقة هاشم بنفسه وشجاعته لما خرج من بلاده وتوجه الى روما. لقد كان هاشم كالذاهب الى عوالم الغيب الأزلية التي ساقه لها وحي السماء وإلحاح القدر، ولكن أحلامه الحبلى بالأمل كانت كسنابل القمح الذهبية التي تتماوج أمام ناظريه كلما هبت نسمة الأمل.

ظل واقفا على طرف السفينة هكذا برهة من الزمن حتى تلاشت شواطئ المغرب أمام ناظريه، وبدت عيون هاشم التي تتأمل البحر وهي تحكي ألف حكاية وحكاية من الألم والأمل، ثم نادى أحدهم عليه فالتفت هاشم نحوه، وإذا به صاحبه ذلك القصير الذي أشار عليه بالسكن في الغرفة التعيسة ليلة البارحة.

كان يجلس مع المسافرين الذين تحلقوا حول بعضهم البعض، حيث كان عددهم قليلا، فالسفينة كانت تجارية بالأصل ومعظم المسافرين كانوا عبيدا أفارقة يباعون ليسترقوا في أوروبا. جلس هاشم عند صاحبه ذلك الرجل القصير، فقال له هاشم أنت الذي كنت.. فقاطعه الرجل وقال.. نعم.. نعم الذي أشرت عليك بالسكن في الغرفة، كيف كانت ليلتك؟ هل نمت جيدا ليلة البارحة؟

فقال له هاشم: الحمد لله. ولكن كانت الغرفة تعيسة، فليس فيها باب ولا شبابيك تغلق ولا فراش سوى حصير قديم.

وعندما صحوت في الصباح الباكر لاحظت وجود غرف أخرى أفضل منها بكثير. فلماذا أشرت علي بالسكن فيها؟ فقال له الرجل: لقد أردت أن أوفر عليك المال فأنت تبدو بهذه الملابس لا تملك الكثير يا سيدي. أحس هاشم بالإحراج قليلا واعتذر منه، ثم قال له هل يمكنني أن أتعرف عليك يا أخي؟ فقال الرجل إسمي موسى حاييم.. توقف هنا هاشم متفاجأ وقال في نفسه «حاييم»!! إسم غريب، ثم بدأ يربط بعض المشاهدات لذلك الرجل، فقصر قامته وأنفه المعقوف وظفيرتيه الطويلتين اللتين على صدغيه واسمه الغريب أعطى مؤشرا لهاشم الى أن الرجل يهودي من يهود الأمازيغ، لأنه سمع عن تواجدهم القليل في بعض قبائل الطوارق.

ظلت بعض الأفكار تراود هاشم حول هذا الرجل اليهودي عندما كان الأخير يسأله وهاشم لا يسمعه لأنه كان مشغول البال، وفجأة انتبه هاشم الى الرجل وهو يكلمه وقد لاحظ أنه يفكر في شيء ما فتذرع

هاشم بأنه يعاني من الصداع جراء ذلك الهواء البارد الذي كان في الغرفة المفتوحة من بابها وشبابيكها. فقال له الرجل: لا عليك سوف يزول ما كنت تعاني منه عند شربك للشاي.

قام موسى بعد ذلك بصنع الشاي على ظهر السفينة وأعطى هاشم قدحا من الشاي ولم يعر انتباها للعبيد الذين كانوا يرمقونه بنظراتهم. شرب هاشم الشاي على مضض فهو يحس بالإحراج من الآخرين الذين تجاهلهم موسى ولم يعطهم من الشاي الذي قام بإعداده. فلاحظ اليهودي أن هاشم كان محرجا لأنه لم يقدم الشاي لهؤلاء الآخرين، ثم قال لهاشم لا عليك إنهم مجرد عبيد!!

جلس ذلك الرجل اليهودي بالقرب من هاشم وسأله عن اسمه، فقال له إسمي هاشم الطنجي. فقال موسى إذا أنت من طنجه من أقصى المغرب العربي، إنها مدينة جميلة سمعت عنها كثيرا، ولكن كيف أتيت من طنجه لوحدك بدون قافلة؟ فطنجه بعيدة جدا من هنا، فقال له هاشم لقد اتيت من القيروان، فأنا أدرس في دار الحكمة في القيروان.

إستغرب اليهودي كثيرا سبب قدوم هاشم من دار الحكمة ونيته الذهاب الى روما، فسأل هاشم عن سبب ذهابه الى روما، فقال له هاشم إنني ذاهب لأبحث عن بعض الوثائق التي أحتاجها لإكمال دراسة خاصة بي، وهذه الوثائق موجودة في مكتبة قصر لاتران في المجمع اللاتراني.. قلب العاصمة البابوية.

تعجب اليهودي. فقد كان هو أيضا ذاهباً الى نفس المكان، ولكن ليبحث عن كتاب «الكابالا والرموز السرية».

كان كتاب الكابالا من كتب اليهود الخاصة والذي يمنع عن العامة ولا يستطيع أحد أن يطلع عليه إلا من كان من علماء اليهود ويكون أيضا قد تجاوز الأربعين من العمر، وحتى لو توافرت هذه الشروط في موسى فإنه لن يستطيع الإطلاع عليه، لسبب واحد وهو أن هذا الكتاب لا يوجد له أي نسخة في بلاد المغرب العربي، الأمر الذي جعل موسى يسافر الى روما ليبحث عن هذا الكتاب في مكتبة قصر لاتران أيضا لأنه قد سمع عن وجوده هناك عن طريق أجداده، لقد تفاجأ اليهودي موسى من هاشم عندما أخبره أنه ذاهب هناك ليبحث عن بعض الوثائق التي تخص ما يبحث عنه، ولكن.. هل يكشف لهاشم عن الذي يبحث عنه خصوصا عندما يعرف هاشم أن الكابالا تصنف تحت علوم السحر والشعوذة عند المسلمين.

قرر موسى ألا يخبره عن حقيقة ما يبحث عنه، وسأل هاشم ثانية قائلا له لكن ما الذي تبحث عنه ولا يوجد في مكتبات القيروان الزاخرة بالكتب؟ تردد هاشم قليلا ثم قال في نفسه لا يوجد ضير إن أخبرته عما أبحث عنه فأنا لا أريد منه شيئا، ثم قال له أنه يبحث عن وثائق أفلاطون حول جزيرة أطلانتس ومخطوطات البابا سلفستر الثاني حول جزيرة أطلانتس.

ثم سأل هاشم موسى فقال له وأنت.. لماذا تريد الذهاب الى روما؟ فارتبك الرجل وقال.. أنا.. أنا أريد الذهاب الى روما. فقال هاشم. لقد سبق وقلت لي ذلك، ولكن لماذا تريد الذهاب الى هناك؟ فقال له.. التجارة.. التجارة يا عزيزي.

لم يقتنع هاشم بكلام موسى وأحس بأنه يضمر شيئا ما. قام بعد ذلك موسى وذهب ليتذرع بالحاجة الى النوم لأنه منهك، ثم نام على جنبه وهو يفكر ويقول في نفسه لماذا قلت له أنني ذاهب الى التجارة، لماذا لم أقل له الحقيقة، لعله يساعدني، فنحن الاثنان كلانا ذاهبان الى نفس المكان.. ولكن.. اذا عرف الحقيقة ربما لن يساعدني ولن يكون من السهل الحصول على الكتاب الذي أريده. فالمسلمون يحرّمون السحر ويحرّمون التعامل به.

ظل موسى يفكر طوال تلك الليلة حول كيفية إقناع هاشم بأن يساعده دون أن يُعلمه عما هو يبحث عنه.. وتوصل الى فكرة ما.. ومع بزوغ شمس يوم جديد كانا لا يزالان في تلك السفينة التي تمخر عباب الموج الأزرق توجه موسى نحو هاشم فوجده نائما، وظل جالسا عنده حتى أفاق الأخير من نومه

فرأى موسى وهو يجلس الى القرب منه.. فقال له هاشم وهو لا يزال ممددا على فراشه وكاشفا عن غطاء رأسه.. ماذا بك؟ فقال له لا شيء يا عزيزي.. لا شيء.. أفقت من النوم باكرا ورأيت أن اتحدث معك فوجدتك نائما ثم بقيت جالسا هنا.

أفاق هاشم من نومه متثاقلا وجلس على فراشه، ثم التفت موسى الى هاشم وقال له متحمسا ما رأيك أن أقدم لك مساعدة بلا مقابل؟ فقال هاشم مساعدة؟ من أي نوع ولماذا؟ فقال له موسى ما رأيك أن أذهب معك إلى مكتبة قصر لاتران لنبحث عما كنت تبحث عنه، فأنا أجيد اللغة اللاتينية وأعرف كيف أتعامل مع النصارى. استغرب هاشم، ولم يفهم لماذا يريد أن يقدم له تلك المساعدة مع أن العرض كان جيدا.

أعجبت الفكرة هاشم كثيرا وقال له، ولكن لماذا تفعل ذلك لي؟ وماذا عن تجارتك؟ فقال له دع عنك ذلك وقل لي أنت كيف ستدخل إلى هناك وأنت مسلم؟ فكّر هاشم وقال سوف أفكر بالأمر حالما أصل الى روما.

فقال له موسى لا يا عزيزي ليس كذلك، سوف لن يسمح لنا بالدخول الى مكتبة قصر لاتران إلا بإذن بابا روما لأن المكتبة سرية وخاصة بالبابا ومعاونيه. فقال هاشم إذا كيف سندخل هناك؟ إبتسم موسى وقال لهاشم سوف نقدم إلى البابا بدعوى أننا قساوسة من كنيسة القيامة بأورشليم وقد قدمنا من هناك بحجة أننا أتينا للمطالبة بوثائق مسروقة لبعض أقوال يسوع المسيح كتبها بولس الرسول، وكانت مخبئة في المدافن السردابية في نطاق كنيسة القيامة، حيث سرقها فرسان الهيكل في ذلك الحين وهي من مخصوصات كنيسة القيامة.

أعجبت هاشم الفكرة كثيرا، مع أنه كان مقتنعا بأن موسى يهدف الى هدف آخر لم يعرفه بعد، وكان يشك في أمره منذ أن سأله عن سبب ذهابه الى روما. وما زاد من شك هاشم أنه لاحظ وجود بعض التعويذات الغريبة في أوراق كانت مخبأة تحت فراش موسى عندما ظهر جزء منها، الأمر الذي جعله يشك فيه بأنه يتعامل بالسحر، ولكنه حتى الآن لم يعرف السبب الحقيقي وراء طلب مساعدته لهاشم دون مقابل.

أبدى هاشم موافقته على الأمر واتفقا على ذلك وأن يكتما الأمر عن الجميع حتى يصلا إلى روما. وفي صباح يوم من الأيام، لاحظ هاشم بزوغ الشمس أمامهم على ظهر السفينة، حيث يعني ذلك أنهم توجهوا شرقا خلاف ما كانوا ينوون التوجه إليه نحو الشمال، فسأل القبطان الذي فاجأه بقوله بأن هناك حظرا تجاريا فرضته الدولة البابوية على الدولة العثمانية، فكان الأسلم أن نتوجه الى جهة ميناء الأسكندرية في مصر ثم نتوجه إلى نابولي لإيهام القراصنة البرتغاليين بأننا من المماليك. لقد ساعدت أوروبا والدولة البابوية الدولة المملوكية للقضاء على الدولة العثمانية، وكما يقول المثل فإن عدو عدوي هو صديقي.

فقال هاشم.. القراصنة؟! ألم تكفهم خيرات أوروبا حتى يبحثوا عن غيرها هنا؟ فضحك القبطان وقال له ألم تسمع ماذا قال الملك البرتغالي عمانويل الاول؟ فقال له ماذا قال؟ فأجاب القبطان لقد قال أن الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الشرق هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق.

أحس هاشم بالخوف قليلا وقال للقبطان.. ولكن.. قد يكتشف القراصنة بأننا لسنا من المماليك، فماذا سنفعل حينها؟ فقال له القبطان لا تقلق يا عزيزي فأنا عادة ما أرشيهم ببعض من القطع الذهبية فيأخذونها ويرحلون عنا ويفعلون ذلك معي في كل مرة. زادت مخاوف هاشم فلو كان يعلم بذلك مسبقا لما ركب في تلك السفينة ولعدّل عن فكرة السفر بأكملها.

كان القراصنة البرتغاليون يسيطرون على البحر المتوسط، كما قاموا بإغلاق المنفذين البحريين المتصلين بمياه المحيط الهندي، وهما مضيق باب المندب ومضيق هرمز أمام الملاحة والتجارة العربية

والاسلامية. فكّر هاشم فيما سوف يفعله عندما يصل الى روما وكيف سيحاول اقناع البابا بفكرة موسى، ومن أين سيحصل على ملابس القساوسة ليلبسها هو وصاحبه موسى حتى يقتعان البابا بالدخول الى مكتبة قصر لاتران والبحث عن الوثائق التي يريدها دون أن يؤدي ذلك لفضح أمرهما وربما قتلهما.

كان هاشم يحس بالندم أحيانا ويرى بأنه تسرع بإتخاذ القرار المناسب للسفر الى روما حيث أدرك بأنه لم يكن مستعدا لذلك على الوجه الأكمل، فقد كان عليه أن يتخذ كافة التدابير والوسائل التي تمكنه من الرجوع سالما الى القيروان، ولكن نشوة الفكرة جعلت هاشم يتسرع كثيرا خصوصا عندما أمدته إدارة دار الحكمة هاشم بالمال المطلوب وشجعته على الفكرة.

ثم قال في نفسه لقد كلفت نفسي متاعب كثيرة وتحملت السفر الشاق وتم إمدادي بالمال اللازم للقيام بهذه المغامرة العلمية لاكتشاف الحقيقة حول جزيرة أطلانتس التي كانت ولا زالت حلمي الوحيد الذي أنام وأصحو عليه، فهل أتنازل عنه بعد ذلك.. لا.. لا يا هاشم لقد فتح أجدادك الشرق والغرب ووصلوا بعلومهم الى آفاق المستحيل.. وأنا أيضا سوف أضحي بكل ما أملك لأرجع الى أهلي ووطني وقد ملأت مكتباتهم بالاكتشافات التي لم يكتشفها أحد غيري، وسيخلّد اسمي في طنجه كما خلّدت طنجه اسم الرحالة ابن بطوطه، فكلانا مسافران يبحثان عما خفى عن الآخرين، وسيقول الآخرون أن مدينة طنجه لا تنجب إلا العلماء المجاهدين بأنفسهم وأموالهم.

تحمّس هاشم لفكرته أكثر وهو يلقن نفسه بهذه الكلمات ولمعت عيناه وهو يحدق بمياه البحر ممسكاً لحيته القصيرة بيده وشاردا بذهنه عما كان حوله. إلتفت عن يمينه وقام يتأمل في البضائع المحملة في السفينة، كانت موضوعة داخل صناديق من الخشب ومرصوصة فوق بعضها البعض ولاحظ وجود سلاسل حديدية لها حلقات معدنية، وبعض الخيل والبغال. كانت تلك السلاسل مخصصة لربط العبيد بعضهم ببعض لكن هاشم لم ينتبه لذلك.

كان القبطان يأخذ العبيد الأفارقة معه في كل مرة يسافر الى أوروبا ليدفعهم الى القراصنة البرتغاليين مقابل ألا يأخذ البرتغاليون بضاعة ذلك القبطان، فقد كان جشعا ولا يهمه سوى أن يحصل على المال ثم المال، فقصة القطع الذهبية غير صحيحة. وقد كان يبيع القراصنة العبيد في سوق الرقيق في أوروبا ليجبروهم على السخرة القهرية ويستخدموهم في الحروب الداخليه. لم يعلم هاشم أن القدر كان يخبّئ له ما لم يخطر له على بال ليحرفه عن هدفه الذي كان ذاهبا نحوه ولينسج له ثوبا غير ثوبه.

وفي المساء عندما كان القمر بدرا استلقى هاشم وبعض ركاب السفينة على ظهورهم وهم يتأملون جمال البدر وهو يشكل كتلة ضوء مستديرة كبيرة تكاد تلامس ماء البحر وتتراءى خلف مقدمة السفينة والحبال المتدلية نحوها، وكل واحد منهم كان يفكر بما يشغل ذهنه، فبعضهم يفكر في حياة أفضل وبعضهم يفكر في أن تكون له زوجة وأولاد وبعضهم يجهل مصيره، فقد كانت فكرة تخيّل المستقبل له أشبه بكابوس قاتل.

عم الصمت المكان إلا من صوت مياه البحر الهادئة التي تداعبها نسمات الهواء العليل وكانت تساعد على الاسترخاء، ومنظر القمر والنجوم كان كسماء بلورية تشع بالنور من سرج النجوم وأضفت اللون الأزرق اللامع على مياه البحر. وفجأة تذكر هاشم ذلك الحلم الذي رآه عندما كان يقرأ كتب الفلسفة في القيروان، وتراءى له أيضا كلام ذلك الدرويش عندما قال له أن أفلاطون يناديك.. كانت تلك الذكريات لهاشم بمثابة حافز له على استكمال مشروعه الذي لن يتراجع عنه بعدما أخذ العهد على نفسه بالاستمرار نحو الهدف وتحقيقه.

كان موسى يجلس مبتعدا عن الآخرين وقد وضع الثوم حول رقبته في كيس من القماش. كان ذلك

من عادات اليهود عندما يخافون من الأمراض، وبسبب رائحة الثوم القوية اضطر موسى للابتعاد عن هاشم لئلا يزعجه برائحة الثوم. نظر هاشم اليه وهو يضحك وقال له لعلك أصبت بدوار البحر، فلقد كنت تحدق في البحر كثيرا هذا اليوم. ظل موسى صامتا وعلى وجهه علامات الغثيان.

قام هاشم ليبحث عن القبطان فوجده نائما وحوله بقايا عشائه، فقد أكل ونام ولم يقدم العشاء للآخرين كما كان يفعل سابقا الأمر الذي أزعج هاشم كثيرا. وفي الصباح ذهب هاشم الى القبطان وطالبه بتوفير وجبة الغداء والعشاء، فذهب القبطان الى داخل غرفته وأخرج كيسا فيه قليل من التمر اليابس وأعطاه هاشم وقال له خذه وأعطه لصديقك القصير. لقد كان القبطان يطعم العبيد التمر اليابس ومن يعترض على ذلك يقوم بربطه بالسلاسل المعدة لربط العبيد، ويضع الحلقات الحديدية حول رقابهم عقابا لهم.

شعر هاشم بالاهانة والإستفزاز وذهب الى موسى ليشرح له الأمر، فقال له موسى.. لا بأس سوف آكله، وإن كنت تريد طعاما أفضل من هذا فبإمكانه أن يعطيك ولكن.. إدفع من مالك واشتري فإن المال هو ما يريده الرجل. لم يكن هاشم يدرك أن الرجل كان يقصد بذلك أن يشتري منه الطعام، ولكن يبدو أن موسى كان محقا فالرجل كان جشعا وبخيلا ويعشق المال.

ذهب هاشم الى مكان وانزوى فيه ليستخرج بعض النقود ليدفعها للقبطان الجشع مقابل أن يأكل شيئا فقد أنهكه الجوع. كان هاشم يضع ماله في صرة في عمامته لإخفائها عن اللصوص وقاطعي الطرق، ثم مد يده ليخرجها، ولكن.. لم يجد الصرة في عمامته، ثم نزع عمامته من على رأسه وقام يقلبها طية طية ولكن.. لا جدوى فالصرة قد اختفت تماما، قام بعد ذلك بالبحث عنها لعله يجدها في فراشه أو على ظهر السفينة وأضحى يسأل الآخرين عنها ولكن دون جدوى.

ظل هاشم متحيرا لا يعرف ماذا يفعل وكيف سيكمل رحلته وهو لا يملك شيئا، ولا يستطيع الرجوع الى أوتيك مرة أخرى فالمسافة بعيدة جدا عنها. هنا تحطمت أحلام هاشم كما تتحطم الأمواج على الشاطئ وانفرطت أحلامه كما تنفرط حبات عقد اللؤلؤ، وأحس بالخيبة والفشل. لم يستطع النوم تلك الليلة من هذه المصيبة.. ظل يقلّب يديه الى السماء ويتذكر أين فقد النقود، فآخر مرة أخرجها كانت بالقرب من أوتيك عندما أراد إعطاء الدليل الأمازيغي النقود ورفض أخذها، وجعل يستذكر كل ما جرى معه.. وفجأة تذكر شيئا ما، لقد تذكر أن شخصا قصير القامة قد دخل غرفته التي نام فيها قبل السفر من ميناء أوتيك بليلة عندما كان نائما ورآه من الخلف عندما هم بالخروج حيث استيقظ هاشم على وقع صوت خطى ذلك الرجل. وتساءل هاشم في نفسه هل من الممكن أن يكون ذلك الرجل القصير هو موسى!! لأنه بنفس طوله. فقال في نفسه.. لا لا فهذا ليس دليلا قاطعا، فالرجل منذ أن رآني أراد مساعدتي وأشار علي بالسكن في تلك الغرفة حفاظا على مالي. ثم قال.. ولكن ألا يمكن أن يكون موسى قد فعل ذلك لكي يستطيع الدخول الى الغرفة بسهولة ويسرقني!! نعم ذلك ممكن جدا.. ولكن ماذا سأقول له؟! هل سأقول له أأنت الذي سرقتني؟ حتما سينكر ذلك ويغضب مني. ثم قال يا إلهي ماذا سأفعل.

وهو على تلك الحالة ظل هاشم يثير التساؤلات ويجيب عليها ليصل الى نتيجة حتى اقتنع أن موسى قد يكون هو الذي سرق صرة المال. فقال في الصباح الباكر سأتحدث معه حول ذلك عندما يصحو من نومه. بات هاشم تلك الليلة وهو يحس بخيبة الامل، فكل ما كان يملك من مال قد خبأه في تلك الصرة التي اختفت.

وفي صباح اليوم التالي عند أول بزوغ للشمس كان الضباب يملأ المكان فلا تكاد ترى شيئا أمامك سوى بضعة أمتار في البحر. وفجأة لمح هاشم شيئا ضخما بني اللون يقف أمام السفينة حيث كان الكل يغط في النوم، وعندما أمعن النظر ثانية تبين أن ذلك الشيء كان أسطولا من سفن القراصنة

البرتغاليين المجهز بالمدافع الضخمة وبنادق البارود، كان أسطولا مكونا من عدة سفن، وكان البرتغاليون يخطفون العرب والأفارقة ويبيعونهم في أسواق الرقيق في أوروبا في سوق النخاسة ويضعون السلاسل على أعناقهم، وكانوا يخصون العبيد ليبيعوهم إلى قصور المترفين وموائد المتخمين، ويرمون بالمريض منهم الى البحر خوفا من العدوى. فالمحظوظ منهم من يخصى لأن حظه أفضل من المريض الذي يكون مصيره في أمعاء أسماك القرش وحيتان البحر.

عرف هاشم أن ذلك الاسطول كان لقراصنة البحر من خلال الرايات السوداء المعروفة بإسم رايات الشيطان والتي كانت ترفع لتعطي معنى للآخر بأن لا يقاوم. وببطء شديد رجع هاشم الى الخلف وتظاهر بالنوم مع الآخرين حتى لا يثير انتباه القراصنة، وبعد لحظات وبينما كانت عيون هاشم مفتوحة ترقب الوضع، لاحظ صعود مجموعة من القراصنة عن يمين ويسار السفينة، وفجاة خرج القبطان من السفينة متوجها نحوهم، كأنه كان يراهم طوال الوقت، فاستقبلهم بالترحاب وتحدث معهم باللغة البرتغالية، كان القبطان الفونسو كبير القراصنة مع مساعده بيدرو الغجري وهو من غجر اسبانيا الذين تعايشوا مع الموريسكيين العرب في كتالونيا أثناء ترحالهم المتكرر وتعلموا اللغة العربية. وبدأ قبطان السفينة يتملق لهم ويرحب بهم ويقدم لهم النبيذ.

بعد ذلك طلب الفونسو من قبطان السفينة أن يعطيه المال كالعادة، فأخرج له صرة وأعطاها له، التفت الفونسو إلى قبطان سفينتنا الذي كان يضحك متملقا، فقال له الفونسو فقط؟! هذا ما لديك؟ فقال هذا ما لدي هذه المرة، وقد يكون الوضع أفضل في المرات القادمة.

كان القبطان متعودا على زيارة القراصنة له دائما فهو يعرفهم ويعرفونه، ولأنهم يريدون منه المال فإنهم يتركونه يذهب في كل مرة بعد أن يأخذوا ما لديه من أموال، ثم قال له ذلك القرصان.. ولكننا بحاجة الى رجال، فقال له القبطان ليس عندي سوى هؤلاء العبيد وإثنين من شمال إفريقيه من المغرب العربي لكنهما ليسا بعبيد إنما جاءا للسفر الى روما.. التفت القرصان الفونسو الى مساعده بيدرو وأومأ له برأسه بأن يأخذ الكل الى سفينته.

تقدم بيدرو مع مجموعة من القراصنة الذين تبادروا بسرعة وقاموا يركلون ركاب السفينة النائمين في خواصرهم ليأخذوهم. لم يتغير شيء مع أولئك العبيد الأفارقة فقد كانوا عبيدا وظلوا عبيدا. فقد كتب عليهم ذل العبودية والرق. ولكن الحال كان أصعب بكثير مع هاشم وصاحبه موسى، فقد كان نصيب هاشم ركلة في ظهره وخصره وركلة في مؤخرة موسى الذي كان متقوقعا وقام مفزوعا كما لو كان يحلم بكابوس مخيف.

فزع الكل مما جرى معهم بهذه الطريقة الهمجية والوحشية فقد كانوا نائمين ولم يدروا بما يجري، تعالت أصواتهم بينما كان القراصنة مسلحين بالسيوف وبنادق البارود، ثم سيقوا الى سفينة القراصنة واحدا تلو الآخر، كانوا يمشون مطأطئين رؤسهم ويحنون ظهورهم خوفا من ركلهم في بطونهم وكان هاشم من بينهم، كان همّ هاشم في ذلك الحين هو ألا يتعرض للضرب والركل، فقد تلقى ركلة في الظهر جعلته لا يفكر في أي شيء سوى الانقياد التام لأولئك الحثالة من البشر.

بينما كان هاشم مطأطئ رأسه ومحنيا ظهره ويمشي بين جموع العبيد تقدم نحوه القرصان بيدرو الغجري مساعد الفونسو وأمسك بذراعه وجذبه نحوه بشده. كانت يد ذلك القرصان تقبض بقوة على يد هاشم الهزيلة، فهاشم يمثل العقل في حين كان يمثل ذلك القرصان القوة. ثم قال له بعد أن رأى ملامح هاشم العربية السمراء المشوبة باللون الحنطي وملابسه التي تميزه عن لباس العبيد الذي لا يكاد يغطي الا ما يستر عورتهم، لا بد أنك أنت الذي تريد السفر الى روما؟ تردد هاشم قليلا ثم قال له نعم يا سيدي أنا هو، فقال له إذا أين زميلك الآخر الذي يريد السفر الى روما أيضا؟ فأشار هاشم الى موسى الذي كاد أن يختفي بين جموع العبيد العمالقة بالنسبة اليه.

رفع بيدرو يده وأشار مناديا الى موسى أن يتقدم نحوه. فتقدم نحوه ورجلاه تخطان الأرض من الخوف. وقال لهما انتظرا هنا، لم يكن يعرفان ماذا كان يريد ذلك القرصان منهما. وبعد أن دخل كل العبيد السفينة التفت بيدرو الى هاشم وموسى مستغلا ذهاب القرصان الفونسو عنه وقال لهما الآن تعطياني كل ما لديكما وبأسرع وقت وإلا قتلتكما ورميت جثتيكما لأسماك القرش. لم يكن ذلك الطلب يزعج هاشم كثيرا بقدر ما أزعج رفيقه موسى، وذلك لأن هاشم فقد صرة المال الخاصة به، ثم التفت هاشم الى وجه موسى الذي بدأ يتلوّن بسرعة، وسحب الغجري سيفه وقال هيا الآن وبسرعة، قال هاشم أنا لا أملك شيئا وبإمكانك أن تفتشني وإذا وجدت قرشا واحدا أخفيته عنك فاقتلني، وسكت موسى قليلا ثم قال المال الذي لدي هو أمانة فهو ليس لي.

فقال الغجري له هاته وبسرعة، فأخرج موسى صرة المال التي كانت بحوزته وأعطاها للرجل. نظر هاشم الى الصرة وعرفها على الفور.. لقد كانت هي الصرة التي فقدها هاشم فالتفت إلى موسى وقد بان أثر الغضب على وجهه، لكن الموقف لا يساعد على التفوه بكلمة واحدة فوميض حد السيف يبرق أمام ناظريهما.

أخذ الغجري بيدرو الصرة ثم طلب من الإثنين أن يتعريا بشكل كامل أمامه حتى يفتش كل ملابسهما فقد يكونا قد خبأ ذهبا أو شيئا آخر في طيات ملابسهما، خلع موسى ملابسه بسرعة وهو يرتجف من الخوف بينما تردد هاشم في خلع ملابسه الأمر الذي جعل الغجري يهدده بالقتل، فانصاع بعد تردد منه، وخلع ملابسه هو الآخر.

قام الغجري بتفتيش ملابسهما ولم يجد شيئا آخر سوى أحجار الودع وبعض التعويذات الغريبة التي كان موسى يرتديها، فقد كانت عبارة عن تمائم من جلد الغزال كتبت عليها آيات من التوراة. إلتفت هاشم الى جسم موسى بلمحة خاطفة تلتها نظرة إلى الغجري، وبسرعة عاود هاشم النظر مجددا الى جسم موسى الذي أثار دهشته، فقد كان صدره وظهره مغطى بالوشم الغريب الذي كان عبارة عن رموز وأرقام واوفاق أعطت إيحاء إلى هاشم بأن موسى يتعامل بالسحر الأسود، تماما كما أوحت إلى الغجري بنفس الإحساس فقال لموسى هل أنت ساحر؟ فقال موسى لا يا سيدي لست ساحرا، فقال له الغجري أفضل لك أن تلقي بنفسك في البحر على أن يرى ذلك الأسبان في سوق الرقيق!!

إلتفت موسى الى هاشم وعيناه تقول سوف يبيعوننا في سوق الرقيق. ثم أمرهما الغجري بأن يأخذا ملابسهما ويصعدا السفينة بسرعة. أخذ هاشم وموسى ملابسهما وجمعوها حول أذرعهما ثم صعد هاشم أولا وهو يمسك بدرج السفينة المصنوع من الحبال بيده اليمنى بينما كان يمسك ملابسه بيده اليسرى عدا اصبعين كان يمسك بهما الحبال، ثم تبعه موسى وقد لف ملابسه حول رقبته وعض بعضا منها على اسنانه وظل يقفز على الدرج كما يقفز القط الخائف من الوقوع في البحر.

صعد الاثنان على ظهر السفينة ثم وقفا يتأملان تلك السفينة الضخمة ذات الأشرعة العالية والمدافع القوية والقراصنة الذين يدخلون ويخرجون من غرف داخل السفينة. وبينما هما على تلك الحال صعد الغجري الى السفينة خلفهما ثم دفعهما الى الامام بشدة لكي يستطيع الصعود.

أخذ القراصنة الجميع الى غرفة صغيرة يحشر فيها العبيد حتى لا يتمردوا على القراصنة، كانوا أكثر من ثلاثين عبدا من غير هاشم وموسى حيث تم وضعهم في غرفة لا تتجاوز مساحتها خمس وعشرون مترا مربعا، بدون أن يكون فيها هواء ولا سراج، كانت الغرفة ضيقة ورطبة تنتشر فيها رائحة الخشب القديم الممزوج برطوبة البحر، كان البعض لا يتمالك نفسه فيتغوط ويبول في ذلك المكان حيث لا يسمح لهم بالخروج إلا نادرا، فتتعالى صرخات العبيد ويكيلون الشتائم والسباب لذلك الشخص الذي تغوط هناك.

وبعد ثلاثة أيام من ذلك الوضع البائس استدعى الغجري بيدرو هاشم وموسى اللذان خرجا من

الغرفة الضيقة وهما يضعان أيديهما على أعينهما بسبب سطوع اشعة الشمس، توجها نحو الغجري ووقفا أمامه حيث كان يجلس على كرسي هزاز وهو يبدو مشغولا بتعبئة غليونه بالتبغ الأسباني.

إلتفت إليهما وابتسم ثم أخرج نفسا من الدخان وهو يضحك بسخرية وقال لهما لقد جاءكما الفرج، لقد قرر الكابتن الكبير الفونسو أن يرقيكما الى وظيفة أفضل. تلاقت نظرات هاشم وموسى سوية والحيرة تبدو على وجوههما. لقد كان الغجري يتكلم كما لو كان يتهكم أو أنه يضمر لهما الشر.

فقال له هاشم لم أفهم يا سيدي ماذا تقصد؟ فقال لهاشم إبتداء من هذا اليوم سوف تغسل أرضية السفينة وغرفة الكابتن وغرفتي يوميا في الصباح والمساء، وانت أيها المشعوذ القصير سوف تغسل الأطباق بعد كل وجبة، وفي المساء ترجعان الى قصر الحمراء الذي في السفينة مع رفاقكم العبيد. هيا، الآن اغربا عن وجهي بسرعة.

ذهب الاثنان ليمارسا ما كُلفا به من قبل الغجري. قام هاشم بمسح أرضية السفينة والغرف الأخرى، وكان كلما مر عليه أحدهم ركله وقال له نظف جيدا، أما موسى فقد أصابه الغثيان جراء غسيل الصحون من لحوم الخنزير المحرمة لدى اليهود. لقد اختار الغجري هاشم وموسى بالذات ليتمكن من التفاهم معهما، فهو يجيد اللغة العربية لأن من غجر إسبانيا الذين تعايشوا مع الموريسكيين العرب واكتسبوا لغتهم العربية، بينما كان العبيد الآخرين لا يجيدون سوى لغتهم السواحلية والزولو.

كان كبير القراصنة الفونسو قائد الاسطول يتفقد السفن الأخرى، وكان دائما ما يسكر. أما مساعده بيدرو فقد كان يقظا، وطالما كان يعتمد عليه الفونسو لثقته به. وفي صباح اليوم التالي دخل هاشم الى غرفة الفونسو المبعثرة لينظف أرضيتها.. فوجده نائما وممسكاً بقارورة من الخمر الذي انتشرت رائحته المنتنة في أرجاء تلك الغرفة، وكانت تنام بجانبه فتاة في أواخر العشرينات من العمر. فتحت عيناها عندما دخل هاشم الى تلك الغرفة، ثم رفعت ظهرها من الفراش متثاقلة وهي تتأمل هاشم المنهمك في تنظيف الغرفة، لقد كانت تلك الفتاة أنستازيا.. العاهرة أنستازيا، ظلت انستازيا تتأمل هاشم بطريقة غير عادية.. يبدو أنه أعجبها. ثم التفت هاشم نحو الفونسو بسبب انزعاجه من شخيره الذي ازداد فلمح أنستازيا، ثم غمزت عينها له حيث أبدت إعجابها به، فخرج هاشم على الفور من الغرفة لأنه لا يريد أن يقوم بأي حماقات تحط من قدره امام الله تعالى لأنه كان متدينا.

خرج هاشم من غرفة الفونسو وظلت العاهرة أنستازيا جالسة في فراشها ثم اسندت ظهرها الى السرير ببطء حتى استلقت مرة ثانية على الفراش وهي تبتسم كأنها أضمرت شيئا ما، في حين لا يزال الفونسو يغط في شخيره العميق.

وفي صباح اليوم التالي رأت أنستازيا هاشم وهو ينظف سطح السفينة، حاولت التحدث معه باللغة البرتغالية فلم يفهم. ثم قامت بالايماء له بأن يأتي لينظف غرفة الفونسو في المساء. فهم هاشم ما تريده، فقدم الى هناك في المساء، كان الفونسو لا يتواجد فيها إلا في وقت النوم فقد كان يسكر مع الآخرين على ظهر السفينة.

دخل هاشم الغرفة لكي ينظفها وهو لا يدرك ما تخفي له تلك المرأة، وفجأة دخل اثنان من القراصنة خلف هاشم وقيدا يديه وتركاه في الغرفة مع تلك العاهرة وهما يضحكان. تقدمت تلك العاهرة نحوه وهو الذي بدأ يرفض الاقتراب من وجهها ثم بدأت تراوده عن نفسه وهاشم يدير وجهه للجهة الأخرى، وبعدما أحست باليأس ضربت هاشم بعصا كانت لألفونسو على بطنه جعلته يتلوى من شدة الألم ويسقط على الأرض، ثم أدارت ظهرها لهاشم لتغريه بمفاتن جسدها وقامت بنزع ملابسها قطعة قطعة، وجبين هاشم يرشح من العرق وقلبه يخفق بشده فهو لم يكن يرغب بذلك أبدا.

وأثناء ذلك خطرت لهاشم فكرة لكي يتخلص من هذه العاهرة. بدت أنستازيا وهي تنزع ملابسها كالنرجسة البيضاء الجميلة والتي تغذى ونما جمالها من مخلفات وسماد الكلاب والخنازير، فبقدر ما

كانت جميلة ظاهريا كانت قذرة من الباطن.

وهي على تلك الحـال وأثناء همومها بنزع ملابس-ها بالكامل، إحمر وجه هاشم بشده وانتفخت أوداجه وبانت أشداقه واتسعت حدقتا عينيه وكتم انفاسه وفجأة لاحظت أنستازيا جريان سائل بني اللون كثيف القوام كريه الرائحة يجري من تحتها، فالتفتت بسرعة نحو هـاشم وإذا به ملطخ بغائطه وبوله. صرخت انستازيا بقوة متفاجئة من الذي فعله هاشم وقالت أخرجوا هذا القذر من هنا.. أخرجوه من هنا.. يا إلهي إنه عربي مجنون.. مجنون، لقد فعل هاشم ما فعله لكي يتخلص من مكيدة هذه العاهرة الفاسقة.

خرجت انستازيا وهي تبكي إلى حافة السفينة فرآها بيدرو الذي كان يتحدث مع أحدهم، ثم تقدم نحوها مسرعا وقال لها «آنا» ماذا بك؟ هل حدث مكروه؟ فقالت له ذلك العربي القذر.. هاشم، فقال ماذا به؟ فقالت راودته عن نفسه فتغوط وبال في غرفة الفونسو.

أخرج بيدرو سيفه وراح يركض تجاه هاشم لكي يقتله، فلحقته أنستازيا وهي تركض خلفه حتى أوقفته وقالت له هل جننت؟ إذا قتلناه سوف لن نستـفيد منه شيئا، ألا تريد أن نبيعه في سوق الرقيق في إسبانيا حتى ولو بزجاجتين من الخمر؟ هدأ روع بيدرو وقال حسنا سوف أتركه لاجلك فقط.. يا له من قذر حقير.

فك القرصانان اللذان ربطا هاشم وثاقه ثم ركلاه بأرجلهما وقال أحدهم له أنتم العرب لا تعرفون كيف تعاملون الجنس اللطيف فأنتم وحوش ولا تملكون العواطف الرقيقة. قفل هاشم مسرعا إلى تلك الغرفة التي تشبه علبة السردين من كثرة الزحام بها والتي شبّهها بيدرو متهكما بقصر الحمراء، فقال في نفسه أن أكون وحشا في هذا الجحر أفضل لي من أن ألقى الله بذنب العاهرة أنستازيا.

كان موسى بانتـظار هاشم الذي تأخر عليه هذه المرة بسـبب مكيدة أنسـتازيا، فقال له أين كنت؟ لقد سئمت الانتظار وأنا أجلس مع هؤلاء الذين لا أرى سوى أعينهم تحدق بي في هذه الغرفة المظلمة والمنتنة، ضحك هاشم ضحكة باهتة بالرغم من الأذى الذي تعرض له تلك الليلة، فقال لموسى وهل تظن أنك أنت أفضل منهم، لقد أصبحنا أنا وانت منهم، ولا فرق بيننا وبينهم!!

ثم التفت موسى نحو هاشم فقال له ماذا لو دفعنا بعض المال لأحدهم ليخرجنا من هذا المأزق.. هل تظنه سيوافق؟ رفع هاشم عينيه متأملا موسى وهو يحس بأن موسى لا يزال يملك بعضا من المال، ولكن أين خبأه يا ترى؟!

وهو على تلك الحال تذكر صرته التي سرقها موسى منه، فقال له أيها الخبيث لماذا سرقت المال الذي كان عندي؟ فأقسم موسى بأنه وجده على الشاطئ ولا يعرف صاحبه، وجعـله عنده حتى يتعرف على صـاحبه ليرجعه له. فقال هاشم وما فائدة المال الآن وقد صرنا عبيدا، وغدا لا نعلم ماذا يخبئ لنا القدر في اسبانيا، هل سيجعلوننا نقاتل في حروبهم أم سيجعلوننا خدما في قصورهم، ثم تعاهدا على أن يهربا سوية إذا ما باعوهما في سوق الرقيق.

تذكّر هاشم الأيام التي مرت عليه والتي كانت كالحلم، ثم تذكّر طفولته القاسية في طنجه حين فقد والدته وهو في سن مبكرة ليفقد الحنان الذي يحتاجه الأطفال ثم معاناة السفر الى القيروان صغيرا، ثم صعوبة الحياة فيها بسبب فقره مع الاهتمام بالدروس العلمية والمواظبة على الحضور ثم الضياع في الصحراء الكبرى لستة أيام ثم سرقة ماله في أوتيك إلى اختطافه من قبل القراصنة البرتغاليين، ولا يدري هل ستنـتهي هذه المأساة أم ستـظل تستـمر حتى آخر يوم في حياته. لقد تكسرت أحلامه كما تتكسر المرايا، فلم يبق منها سوى شظايا لا تزال تعكس وهج الأمل الذي تقزّم بعد أن كان كبيرا.

أدرك هاشم أن هذا هو قدره، وفي لحظة ضعف أحس بالاستسلام والانـهزام الشديد ثم قال.. لا.. لا ينبغي أن أستسلم بل سأحاول الهرب والرجوع مرة أخرى الى روما مهما كلفني الثمن. كانت ثقة هاشم

بنفسه وسعة اطلاعه تعطيانه بصيصا من الأمل ليعود إلى ما عزم عليه ويتخلص من هذه العبودية البغيضة. ثم قال في نفسه صدق القول.. (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا)!!

كان البرتغاليون يقذفون ببقايا الطعام الذي يأكلونه لأولئك العبيد الذين يتقاتلون عليها لإشباع جوعهم. بينما انشغل موسى بتأمل في أحجار الودع التي كانت لديه فهي تكشف الطالع ليعرف هل سينجو من هذه المعظلة أم لا. كان هاشم ينظر اليه وهو تارة يقول ننجو وتارة يقول بعد فترة، لم يكن هاشم يعير ذلك أي اهتمام فهو لا يصدق هذه الأمور، وبعد عدة أيام تأكد لهاشم أن موسى لديه القدرة على الاطلاع على بعض المغيبات من خلال استخدامه لتلك الأحجار، حيث أن معظم ما يقوله يتأكد بعد فترة، الأمر الذي جعل هاشم يسأله بعض الأحيان من شدة الإحباط.

كان أسطول القراصنة محملا بكثير من البضائع المأخوذة من أصحابها عنوة ومن العبيد المأسورين والمقيدين بالسلاسل تمهيدا لبيع البضائع في أسواق إسبانيا وبيع العبيد في سوق الرقيق هناك. كان ذلك الاسطول متّجها نحو ميناء مدينة بلنسية في إسبانيا حيث القراصنة يعمل بغطاء شرعي من بابوات روما ومن ملك البرتغال آنذاك، فقد ثبت تورط بعض رجال الكنيسة هناك في التاريخ البشع لعبودية البشر في القرون الوسطى، من خلال الصفقة التي حصلت بين البابا كالكتاس الثالث والبابا نيكولا الخامس لاسترقاق السود وتنصيرهم بالقوة والاكراه مقابل مبلغ مالي يؤخذ على كل عبد منهم، لذلك فليس هناك ما يدعو للخوف من بيع العبيد والبضائع المسروقة خفية وإنما على رؤوس الأش-هاد تحت حجة استكشاف الممرات البحرية ونشر المسيحية.

كانت أوروبا في عصر الكنيسة تتخبط في ظلمات ليل الجهل وتستعبد السود.. فسواد ليل الجهل أخفى سواد العبيد، أما الآن وفي وضح النهار فإن البشر لا زالوا يستعبدون اخوانهم البشر، ولكن ليس بالرقيق الأسود وإنما بالرقيق الأبيض. فكيف يخفي النهار بياض البشر؟!

ظل القراصنة البرتغاليون يطوون أمواج البحر ويسيرون في الليل والنهار حتى اقتربوا من ميناء بلنسيه. كان الوقت في الصباح الباكر والهواء عليلاً ومعظم الذين في ذلك الأسطول نائمين فهواء البحر يجلب النوم، كانت سفينة الفونسو وبيدرو تتقدم سفن الآخرين حيث كانت السفن الأخرى محملة بالبضائع المنهوبة. وأثناء مسيرهم بإتجاه بلنسيه ومبتعدين عن روما، لاحظ البعض طيور النوارس التي تطير بقربهم مما يدل على اقترابهم من الشاطئ وازداد صوت أمواج البحر عندما اقتربوا من الشاطئ، واختفى صوت فقاقيع البحر الذي تحدثه السفينة عندما تشق موج البحر، مما يعطي مؤشرا على انخفاض عمق مستوى مياه البحر والاقتراب من اليابسة.

كان الكل مبتهجا عدا أولئك البشر الذين يعاملون كالحيوانات وهم لا يعرفون أين ستتقاذفهم أمواج القدر بعد أن تقاذفتهم أمواج البحر. تقدم أحد القراصنة نحو غرفة العبيد الصغيرة وفتح بابها الصغير وناداهم قائلا لهم أخرجوا واحدا تلو الآخر وبهدوء. قام العبيد بالصعود إلى سطح السفينة. وقام القراصنة بربط كل أربعة منهم بقطعة خشبية تثبت في رقابهم ثم تقفل بقفل من الحديد حتى لا يستطيع أحد الهروب.

خرج الجميع من الغرفة بما فيهم هاشم ورفيقه موسى ووضعت القطع الخشبية في رقابهم عدا موسى بسبب قصر قامته، بينما يتميز الآخرون بطول قاماتهم، فقام أحدهم بتقييده بسلسلة وربطها بالقطعة الخشبية، كما تم تقييد أيديهم بالسلاسل.

لقد أحس هاشم بأقسى حالات الذل والإحباط، فقد كان مدللا بين أروقة القيروان ويحظى بالإحترام من قبل زملائه وأساتذته بينما الآن يساق الى الرق والعبودية كما تساق البهائم.

لقد تأذى هاشم من تلك القطعة الخشبية السميكة الموضوعة حول رقبته فقد كانت ثقيلة جدا ولا تسمح بالتلفت يمينا أو يسارا، فيما بدا موسى محظوظا بالتخلص منها، فللعيوب أحيانا محاسن!!

قام أحد القراصنة بعدَ العبيد ولاحظ أن هناك شخصا واحدا مفقود، نزل إلى الغرفة التي كان يحتجز فيها العبيد ماسكا بسراج في يده اليمنى وملقيا بنظره نحو الغرفة، فوجده، لقد كان أحد العبيد المصابين بالحمى ولم يشأ أحد من بني جلدته أن يطلع الآخرين على ذلك لئلا يرمى في مياه البحر خوفا عليه، وكانوا يضمرون ذلك لعله يشفى قبل وصولهم الى شواطئ إسبانيا.

قام القرصان بالنداء عليه دون أن يتحرك ذلك الرجل المريض، وفجأة خرج القرصان من الغرفة وأحضر بندقيته ثم قام برمي الرجل بطلقة من بندقيته جعلت الدموع تذرف من عيون رفاقه المستضعفين، فيما انهار أحدهم وصاح من شدة الهلع الأمر الذي جعل القراصنة ينهالون عليه بالضرب المبرح.

تقدم أحد القراصنة وهو ملثم خوفا من حصول العدوى ثم رفع ذلك المسكين على كتفه وأخرجه ثم قام بسحل جثته التي لطخت أرضية السفينة بدمائه ثم رمى به قرب شواطئ إسبانيا. لعل مشيئة الله لم ترد لذلك المسكين أن يعيش تحت ذل العبودية فمات قبل أن يتعرض للذل والاهانة. كان الكل يتمنى لو أنه كان مكان ذلك المسكين.

وابتعد عن الهدف

وصلت السفينة والأسطول بأكمله الى شواطئ بلنسيه في صباح ذلك اليوم البائس، بعد أن كانت تجري لأيام وليال في عباب ذلك البحر. كان القراصنة في إسبانيا والبرتغال يعاملون كأبطال ويتسابق التجار لشراء ما لديهم بمجرد وصول سفنهم الى الشواطئ، فلا حاجة لهم ليذهبوا الى المناطق الأخرى في ممالك إسبانيا التي توحدت للتو وإنما يكتفـون ببيع ما سـطوا عليه في سوق ميناء بلنسيه، حيث يدير معظم الأسواق هناك يهود إسبانيا الذين لا يصرحون بدينهم بسبب الخوف من الأسبان المسـيحيين بعدما تم إجلاء اليهود منها في أواخر القرن الرابع عشر.

كانت البضائع تباع هناك إما بالنقد أو بالمقايضـة، وحتى بيع العبـيد كان يتم كذلك. تم إنزال البضائع إلى السوق وتم اقتياد العبيد والخيل والبغال التي سرقوها في قرصنتهم البحرية.

لأول مرة تطأ رجلا هاشم أرض إسبانيا التي كانت قبل عدة سنوات قريبة أرضا عربية.. إنها الأندلس التي لا زال هاشم يشم فيها رائحة الاسـلام والعروبة، فالبناء يحمل الطابع الاسلامي من خلال الأقواس والمآذن والأحجار الملونة بالرخام والمرمر والفسيفساء والنوافير، والنساء المسيحيات لا زلن يرتدين الحجاب الاسلامي الذي أجلّه وأحبه مسيحيو الأندلس لأنه يحفظ حشمة ووقار المرأة الأندلسية الأسبانية، والكلمات العربية التي كانت موجودة بكثرة في اللغة الاسبانية حيث يوجد أكثر من ألفين وثمانمائة كلمة من أصل عربي في اللغة الاسبانية.

اقتيد العبيد بما فيهم هاشم ورفيقه موسى اللذين اطلق القراصنة عليهما لقب المور حيث كان يطلق ذلك اللقب على المغاربة الأسبان والبربر الذين أنشأو حضارة الأندلـس وتعني هذه الكلـمة الأسمر باللهجة الاسبانية الى ساحة بيع العبيد في بلنسيه.

تسابق التجار اليهود على شرائهم من القراصنة. كانوا مقيدين بسلاسل الحديد ويجثون على ركبهم الواحد تلو الآخر وقطعة الخشب على رقابهم. كان هاشم يطيل النظر ناحية موسى المقيد بالسلاسل فقط، كأنه يذكّره بما تم الاتفاق عليه عندما كانا في السفينة، حيث اتفقا على الهرب والذهاب الى روما مهما كلفهما الأمر.

كان التجار الأسبان يعاملون العبيد معاملة قاسية فلا تكاد تسمع إلا السباب والشتائم والضرب والركل، وعندما يأتي أحدهم لشراء عبد فإن ملاك العبيد ينتقون أشدهم بنية وأصغرهم سنا، ثم يمسكون بفم العبد ويفتحونه أمام الزبون لكي يطلعونه على سلامة أسنانه وتكاملها مما يعطي مؤشرا على أنه سليم، كما أنهم كانوا يعرفون أعمار العبيد من خلال النظر الى أسنانهم.

كانوا يرمون لهم ببقايا الطعام كما ترمى بقايا الطعام الى الكلاب. تقدم أحدهم نحو هاشم وموسى وخلع ملابسهما حتى يكونا مثل الآخرين، لقد جردهما إلا من سراويلهما، فقال أنتما الآن عبدين حقيقيين. كان الناس في أوروبا إبان عصر الكنيسة يحكمون على الناس من خلال ألوان جلودهم وليس بما تنطوي عليه اخلاقهم، فيكفي للشخص أن يكون أسود البشرة ليباع في سوق النخاسة وتصلم اذناه ويكوى بالنار عندما يسرق شيئا ليأكله.

كان يتم أخذ معظمهم الى إسبانيا الجديدة «أمريكا» ليفلحوا الضياع الأمريكية هناك مع جحافل العبيد التي جلبتهم السفن الهولندية والأسبانية والبرتغالية إلى أرض الديكتاتورية والاستعباد آنذاك.. إسبانيا الجديدة، ولذلك عاقبهم الله فيما بعد وجعل هؤلاء العبيد أسيـادا على إسبانيا الجديدة، فقد استعبدوهم.. فترأسوا عليهم، وأهانوهم.. فتـأمروا عليهم، وكما تدين تدان.

كان العبيد يتحدثون فيما بينهم بينما كان هاشم لا يفهم كلامهم إلا بالإشارة والإيماء، فقام ينادي

موسى بأن يقترب منه أو حتى يكون في نفس الجهة التي يجلس فيها مع أن موسى كان مقيدا، لعله يستطيع أن يتحدث معه.. كان موسى نائما على هيئة الجالس وهاشم يناديه وهو لا يسمعه، وفجأة سمع أحدهم وهو يقول له.. لن يسمعك فهو نائم.. أدار هاشم وجهه نحو ذلك الصوت ليرى من المتكلم فلم يميز صاحب الصوت، فقد كان أحدهم يتكلم العربية، ثم التفت يمينا وشمالا لعله يتعرف إلى صاحب الصوت، فقال أنا هنا.. بجانبك، ثم التفت هاشم فرآه.. لم يكن بعيدا عنه فالكل كانوا متشابهين ولم يميّز من كان يتحدث معه والوقت مساء ولا يوجد مع العبيد الا الحرس الذين كانوا يسكرون بالقرب منهم.

كان ذلك الرجل عجوزا ولم يرغب أحدهم في شرائه، وكان يجلس لفترة طويلة في السوق وعلى علم بكل ما يحصل في السوق، ومطلعا أيضا على أسلوب معاملة العبيد من قبل الملاك والسماسرة. ثم قال له هاشم أنت تعرف العربية إذا، هل أنت عربي؟ فقال له أنا من أفريقيه وقد اختطفوني صغيرا واستخدموني كمترجم حيث أنني أتقن العربية وبعض اللغات الأفريقية، ثم أتوا بي الى هنا قبل تسعة أشهر، وانا الآن لا أقوى على العمل كما ترى، وقد بقيت على هذه الحالة طوال تلك المدة تصهرني حرارة الصيف ويجمدني برد الشتاء، ولا آكل سوى فتات الخبز والماء الملوث بالطين ولا أسمع سوى السباب والشتائم والضرب والركل والضرب بالعصا والسوط.. لقد تألمت يداي من ذلك القيد الحديدي فأنا كما ترى يا ولدي.. عجوز كبير ولا أقوى على العمل.. والأدهى من ذلك والأمر.. أنني حتى ولو أطلق سراحي ورجعت الى بلادي فإنني لا أستطيع أن أكوّن أسرة ويكون لي أبناء.. مستحيل يا ولدي مستحيل.. استغرب هاشم بعدما تأثر بكلام ذلك العجوز فقال له ولماذا يستحيل ذلك؟ فقال له العجوز لقد تم اخصائي في أفريقيا عندما كنت صغيرا حيث جعلوني خادما في قصورهم هناك، فقال هاشم ماذا قلت؟ هل يخصون العبيد هنا أيضا؟

إرتبك هاشم كثيرا وبدأت حبيبات العرق تظهر على جبينه وتلمع على ضوء القمر. فقال له ذلك العجوز ودموعه تذرف على خديه عندما تم اختطافي وأنا لم أبلغ العاشرة من العمر قاموا بقطع أعضائنا الذكرية لكي يبيعونا في قصور المترفين وفي دور العبادة.. ثم قال العجوز أليس الأجدر أن يخصون قساوستهم الذين يمتنعون عن الزواج بإرادتهم!!

ثم قال هاشم ولكن كيف؟ ما الذي حصل بعد ذلك؟ أرجوك أكمل. فقال ذلك العجوز كانوا يجمعوننا ونحن لم نتجاوز العاشرة، ثم يدخلوننا على شخص قوي البنية لا يتحلى بأي نوع من أنواع الرحمة والشفقة واحدا تلو الآخر فيقوم بربطنا على جذع شجرة وبعد ذلك يقوم بقطع كل شيء بارز من الأعضاء التناسلية.. وبالموس الحاد، ثم يقومون مباشرة بصب الزيت المغلي على مكان البتر الذي تسيل منه الدماء بشدة ثم يلقون عليه بالحناء، ثم يضعون أنبوبا للبول في ذلك الجزء المقطوع، ثم يدفنوننا في الأرض ويخرجون رؤوسنا من الحفرة فقط، وبعد ذلك يتركوننا لمدة ثلاثة أيام على تلك الحالة المزرية، ثم يستخرجوننا من التراب ويقومون بدهن ذلك الجرح بعجينة من الطين والزيت. ثم قال ذلك العجوز لهاشم هل تعلم يا أخي أن غالبية الأطفال الذين يفعلون بهم ذلك يموتون، وأن قلة قليلة منهم يبقون أحياء!!

أحس هاشم بالذعر الشديد عندما سمع ذلك الكلام من العجوز.. فيا ليته لم يسمعه ولم يعرف ذلك، ثم قام ينظر الى موسى ويهمس له حتى يلتفت له ولا يسمعه الحرس، ولكن يبدو أن موسى يغط في نوم عميق، ظل هاشم، طوال الليل حتى يستيقظ موسى ليشرح له الأمر لعله يفعل شيئا.

وفي الصباح الباكر غفا هاشم ولم يدرك أنه كان نائما، ثم التفت على الفور نحو موسى ليناديه فوجد اثنان يتفاوضان على شراء موسى ولم يفهم ما دار بينهما. ثم بدا لهاشم أن أحدهما اشترى موسى. لقد اشترى موسى أحد التجار اليهود الذين كانوا يتخفون تحت عباءة المسيحية خوفا من قمع جند اليسوعيين ورجال الكنيسة وهو التاجر لويس دي سنتياغو جامع الضرائب الملكية وذلك عندما

لاحظ الوشم والتعويذات اليهودية الموجودة على جسد موسى فعرف أنه يهودي، وقرر شراءه.

سأل هاشم ذلك العجوز فقال له أين أخذوا موسى؟ فقال العجوز لقد اشتراه أحد التجار الكتالونيين فلقد سمعته يقول لذلك السمسار بأنه يسكن في مزرعة على أطراف مدينة برشلونه الشمالية، وسوف يجعله يعمل في غزل الصوف في معمل السجاد الموجود في مزرعة ذلك التاجر. لقد تذرع التاجر أمام السمسار بأن هذا العبد قصير البنية، فهو رخيص الثمن ويصلح لغزل الصوف، الأمر الذي يبعد الشك عن ذلك اليهودي بأنه اشترى يهوديا وترك العبيد الأقوياء دون مبرر. ثم قال العجوز لهاشم لقد نجا صاحبك من بتر ذكره، وأرجو أن تكون كذلك أنت.

ظل هاشم في سوق النخاسة عدة أيام دون أن يشتريه أحدهم فقد كان الكل يبحثون عن أولئك الأقوياء أصحاب البنية القوية والقامة الطويلة. وفي صباح أحد الأيام قدم أحد سماسرة غرناطه ليبحث عن أحد العبيد ذوي البشرة الفاتحة لكي يعمل في أحد قصور بارونات غرناطه كخادم. وقع نظره على هاشم الذي كان حنطي البشرة عربي الملامح.

أحس هاشم بأن ذلك الرجل يريد شراءه حيث قام السمسار وأمسك بهاشم وقام يتلمس عضلاته ويتأمل في بنيته البدنية، ثم تحدث مع بائع العبيد فتحدث معه السمسار باللغة الاسبانية، فلم يفهم هاشم، ولكنه عندما كان يتحدث السمسار مع البائع كان يشير الى مكان عورة هاشم حيث أحس هاشم بأنه سوف يتم خصيه، لقد سأل السمسار بائع العبيد عن وضع هاشم ليعرف هل هو مخصي أم لا، فقال له البائع بأنه ليس مخصيا بعد وبإمكانه خصيه وتسليمه له خلال ثلاثة أيام، فرد عليه السمسار بأنه قد يموت جراء ذلك ولا يوجد عبد فاتح البشرة الا هو حاليا. ثم قال له ليس من الضروري أن يتم اخصاؤه لأنه سيعمل كمنسق للعبيد في حفلات البارون أوغستين فرناندو. لقد أنقذت العناية الالهية هاشم من الهلاك.

كان البارون أوغستين فرناندو أحد أكبر الاقطاعيين وملاك الضياع في غرناطه، وكان من طبقة الأرستقراطيين في الأنظمة الملكية الاقطاعية، لقد كانت ألقاب النبلاء تمنح للشخصيات ذات الثراء والمركز الاجتماعي المرموق في اوروبا، كما أنهم يعدون من حاشية الملوك. كان نظام الفيودالية هو الشائع في اوروبا آنذاك، حيث يتميز هذا النظام بسيادة التراتبية الطبقية الاجتماعية مع اختفاء مفهوم الدولة، وقد أدى هذا النظام الى تخلف القارة الاوروبية لقرون عديدة.

اشترى السمسار هاشم وأبقاه عند بائع العبيد الى صباح اليوم التالي لكي يأخذه الى غرناطة، الى حيث يسكن البارون أوغستين فرناندو. كان هاشم مكتئبا طوال تلك الليلة، فهو لا يعلم مصيره ولا يعلم ماذا سيحل به. رفع عينيه الحزينتين من الأرض وهو مقيد بالسلاسل فالتقت عيناه بعيني ذلك العجوز المسكين التي فيها ألف حكاية وحكاية، وآلام ومتاعب.

أحس هاشم بالشفقة نحو ذلك العجوز المسكين فما هو ذنبه حتى يسترق طوال عمره، ثم لاحظ أنه لم يسأله بعد عن اسمه بسبب الوضع التعيس الذي كان هناك، فقال له عذرا أنا لم أسألك عن اسمك منذ أن عرفتك قبل عدة أيام، فسكت العجوز قليلا وابتسم بسخرية وقال له وماذا ينفع الاسم هنا يا ولدي؟ إنهم لا ينادوننا بأسمائنا هنا وإنما ينعتوننا بالعبيد.. أحس هاشم بالإحراج فأطرق رأسه ثم التفت العجوز الى هاشم وأحس بأنه أحرجه لأنه لم يسأله عن اسمه طوال تلك الأيام فقال له اسمي «آدي» وهو يعني الأول باللغة الأفريقية، فقال له هاشم وكيف كانت الحياة في افريقيا؟

فقال العجوز آدي كان البرتغاليون أول من استعبدنا ثم تلاهم الهولنديون ثم الأسبان ثم الفرنسيين ثم الانجليز، لقد كانوا كلهم يعاملوننا بقسوة كما لو كانوا يعاملون الحيوانات المؤذية، وكانوا يأخذون العبيد الى اسبانيا الجديدة «أمريكا» عبر تلك السفن والأساطيل البحرية التي كانوا يعاملونهم فيها بوحشية وهمجية، فقد كانوا يعتدون عليهم بالضرب والطعن بالسكاكين واغتصاب نسائهم الموجودات

أيضا معهم في تلك السفن وكانوا يرمون بأي شخص يتمرد عليهم في البحر والمريض أيضا يرمى في البحر، ومن يتلفظ بأي كلمة كان يرمى في البحر حتى يكون عبرة للآخرين. آآه.. كنا نظن أن أولئك الذين ذهبوا الى هناك سوف يعودون بعد عدة سنوات من إسبانيا الجديدة إلى افريقيا مشيا على الأقدام!! أتعرف لماذا يا ولدي؟ فقال هاشم لماذا وكيف ذلك؟ فقال العجوز آدي لأننا كنا نتوقع أن يتكون في بحر الظلمات جسر بري يربط بين إسبانيا الجديدة وأفريقيه من عظام البشر.. عظام العبيد المساكين الذين يلقى بهم الى البحر!!

كانت عينا العجوز آدي تذرفان الدموع بغزارة وحرارة وهو يتحدث.. الأمر الذي جعل هاشم يتأثر هو الآخر، ثم رفع العجوز رأسه الى السماء وقال لهاشم هل تعرف يا عزيزي ما هو السبب الحقيقي وراء استعبادنا؟ هل تظن أنهم أرادوا بذلك الاستيلاء على ثرواتنا وعلى الذهب والعاج والنحاس والموارد الأخرى فقط؟ لا يا عزيزي بل هناك سبب آخر أهم من ذلك بكثير وهو السبب الرئيسي وراء استعبادنا.

فقال هاشم إذا ما هو ذلك السبب؟ فقال العجوز آدي.. عندما يتحالف الثعلب المكار مع الذئب المتهور فإنهما سيجعلان ذلك العملاق مكبلا بالسلاسل وغارقا بالفوضى حتى لا تتوقف ترانيم المحبة والسلام المزعومة والتي تطأ صرخات وصياح وآلام المستضعفين والجياع بلا رحمة ولا شفقة. ثم استلقى العجوز على جنبه وأغمض عينيه، وكأنه لا يريد أن يتحدث أكثر من ذلك. ظل هاشم يتأمله وعلى شفتيه ألف سؤال وسؤال.. ولكن يبدو أن ذلك العجوز لا يريد أن يتحدث حول ذلك الموضوع.

أحس هاشم بأن ذلك العجوز يخفي شيئا ويخاف أن يصرح به.. ولكن من يقصد بالثعلب المكار والذئب المتهور والعملاق المكبل؟! كانت الحكمة تنطق على لسان ذلك العجوز، فهو لم ينطق الا الحقيقة.. والحقيقة المرة. لم يستطع هاشم النوم تلك الليلة وهو لا يدري ماذا سيكون مصيره، وماذا سوف يعمل عند ذلك البارون، دار في رأسه الكثير من الأسئلة الحائرة دون جواب.

غفا هاشم قليلا فجاء اثنان وأمسكا به ثم ربطاه إلى جذع شجرة كانت هناك وقام أحدهما بإخراج الموس ليخصي هاشم بينما أغلق الرجل الآخر فمه، حيث كاد هاشم أن يجن من ذلك الموقف البشع.. ثم قام الرجل وبلا رحمة بخصي هاشم المسكين.. وفجأة صرخ هاشم صرخة وأفاق من نومه بسبب ذلك الحلم المزعج، وأفاق العشرات الذين كانوا ينامون بالقرب منه. إقترب الحراس على أثر تلك الجلبة والضوضاء.. كانوا سكارى ولم يعرفوا من الذي صرخ وماذا جرى، فقاموا بضرب العبيد بأعقاب البنادق وعلى رؤوسهم وخواصرهم ووطئوهم بأقدامهم، وهاشم يتظاهر بالخوف حيث يفتح عينيه تارة ويغلقها تارة خوفا من اقتراب أحدهم نحوه والقيام بضربه.

كانت ليلة تعيسة جدا على هاشم، فلم ينم بعد الذي حصل حتى أشرقت الشمس، وكان يتمنى أن يخرج من هذا المكان بأسرع وقت ممكن وقبل أن يصيبه مكروه أو أن ينكّل به أحدهم، فقد كان ينتظر ذلك السمسار الذي اشتراه بفارغ الصبر، فلن يكون الحال أسوأ من الوضع الذي رآه هاشم في سوق النخاسة حيث تمتهن كرامة الإنسان ويصل الجبارون بأخلاقهم الى الحضيض في التعامل مع هؤلاء المستضعفين.

وبعد سويعات قليلة أتى ذلك السمسار باكرا وظل ينتظر بائع العبيد الذي جاء متأخرا ثم أخذ هاشم معه في رحلة متعبة من بلنسية الى غرناطه. ركب هاشم مع ذلك السمسار فوق تلك العربة التي تجرها الأحصنة وهو مقيّد بالحديد بينما كان السمسار يجلس بداخلها.

كانت علامات الحزن والكآبة تعلو قسمات وجه هاشم الذي تم استعباده بعدما كان مدللا في أروقة دار الحكمة بسبب ذكائه ونبوغه، ولكنه اليوم سيكون عبدا وخادما لسيده الذي رسم له صورة لا تقل وحشية عما رآه من وحشية في التعامل في سوق النخاسة.

كان قلقا طوال تلك الرحلة، فهو لا يعلم ما يخبئ له القدر هناك، حيث بدت السماء ملبدة بالغيوم الرمادية وحبيبات رذاذ المطر التي تسبق هطول المطر تتس-اقط، كان الهواء النظيف يراقص الأزهار البرية وينثر عطرها في كل مكان، ومع ذلك لم يبد هاشم مستمتعا بتلك الأجواء الجميلة لأن ثمن الحرية لا يدركه إلا من ذاق عذابات الرق والاستعباد.

كانت إسبانيا آنذاك بلد التعصب والتزمت الديني في تلك الحقبة الزمنية، كما عانت إسبانيا في تلك الحقبة من الفقر بسبب طرد المسلمين من الأندلس الأمر الذي أدى الى رحيل الخبرة التجارية واليد العاملة من الاندلس، كما انطفأت شمعة النور والعلم التي كانت موقدة لمدة ثمانمائة عام في الأندلس لتترك الأندلس بأكملها غارقة في وحل من الظلام والجهل.

كان هاشم مدركا خطر كونه مسلما وهو موجود هناك، فقد قامت إسبانيا بطرد المسلمين وقتلهم وإحراق مكتباتهم وهدم مساجدهم، مع أن العرب أحسنوا الى الأندلس فلم يجبروا أحدا على اعتناق الاسلام ولم يهدموا كنائسهم ولم يقوموا بعمليات تطهير عرقي لهم كتلك التي قام بها الأسبان عندما طردوا المسلمين منها وهدموا مساجدهم وحرقوا كنوزا من أنوار العلم والمعرفة كانت مكدسة بين رفوف المكتبات المنتشرة في كل حي وزقاق ومسجد ومنزل. لقد آن لهم الأوان أن يعتذروا للعرب عما بدر منهم من وحشية وهمجية سوّدت صفحات التاريخ.

استمر هاشم بالسفر الى غرناطة مع ذلك السمسار ما يزيد عن إسبوع مرا فيها على كثير من الأرياف والأنهار، فتارة تكتسي الطريق بالمروج الخضراء وتارة تكون الأرض صفراء جرداء وتارة يمشيان جنبا الى جنب مع الأنهار الكثيرة المنتشرة في جنوب إسبانيا حتى وصلا الى حدود غرناطة.

تأملها هاشم وهي تبدو مرتفعة ويتوسطها ذلك القصر الأحمر الكبير، والمساكن ذات الأسقف المائلة المكسوة بالقرميد الأحمر وتحيط بها الأشجار والخضرة من كل جهة.

وفجأة أطلقت السماء لجام غيومها البيضاء لتحرث الأرض بأمطارها ويصهل الرعد بأنحائها، حيث انفجرت أضرعة السحب بالمطر الغزير، وانتشرت رائحة العشب الممزوج بماء المطر العذب.

كان المشهد جميلا ويدعو للتأمل حيث تحيط بتلك المدينة الجميلة شمالا هضبة من الجبال الضخمة التي اكتست قممها بزغب الثلوج البيضاء. تذكر هاشم كيف أن العرب المسلمين كانوا يعيشون في ذلك الفردوس الضائع ووصلوا بالاسلام الى آفاق أوروبا.

ومع أنهم دخلوا فاتحين إلا أنهم لم يؤذوا أحدا بل ساهموا في نشر العلم والمعرفة حتى جاء رجال الدين الكنسيين ليدرسوا هناك ويستقوا من علوم المسلمين كأمثال البابا سيلفستر الثاني ويوحنا الأشبيلي ورايموند لول.

هاجت قريحة هاشم الشعرية وهو يتأمل جمال غرناطة وبلاد الأندلس ويتأسف على ذلك المجد التليد الذي خلفه العرب، فأنشد شعرا وهو مكبل اليدين ومتوجّها الى مزرعة ذلك التاجر الذي اشتراه، قائلا:

شمخت على عليائك الغربانُ
وهوت على سفح العلا تيجانُ
واستسلمت عن دعوة الحق التي
سحقت بقايا عزها الأوثانُ
وبنى عليها الذل نسجا واهنا
كالعنكبوت نسيجه أكفانُ
واستبدلوا صوت الحقيقة بالتي
أضحت نواقيسا بها صلبانُ

هذي هي الدنيا فلا تأسى لها
يحتار في خلجاتها الإنسانُ

دخل هاشم أزقة غرناطة وجعل يتأمل في الناس والمساكن، كان أهل غرناطة ذوي عيون زرقاء يشبه لونها لون زرقة البحر الصافية مع بشرة فاتحة مشوبة بالسمرة الخفيفة ويكاد العرق العربي ينبض فيها، ثم رأى هاشم قصر الحمراء.. ذلك القصر الذي كان مقرا للخلافة الاسلامية هناك وكبار المسئولين وجنود النخبة لمدة تزيد عن مائتي عام، وهو محاط بسور بالكامل ويحتوي على غرف كثيرة وحدائق غناء كحديقة جنة العريف التي كانت مكان استجمام وراحة لأمراء غرناطة المسلمين.

كما انتشرت المباني الخدماتية الأخرى ذات الطابع الاسلامي والحمامات، ولاحظ هاشم استخدام العناصر الزخرفية في العمارة الاسلامية، كزخارف السجاد وكتابة الآيات القرآنية تحيط بها زخارف من الجص الملون وبلاط القيشاني الذي يكسو جدران تلك المباني حيث أنها تشبه تلك التي توجد في بلاد البربر، ثم شاهد هاشم حي البيازين، ذلك الحي الذي كان عربيا بامتياز وبالقرب من قصر الحمراء، وأصبح الآن مقرا لاقامة الأرستقراطيين الأسبان بعدما طردوا العرب منه.

امتلأ المكان بعبق ورود الجهنميات الجميلة ذات اللون البرتقالي والأبيض والأحمر والوردي، ونسمات الهواء التي تدغدغ تلك الورود الجميلة، مع وجود لبعض النوافير التي تدفع قطرات الماء بحنان جاعلة صوت الماء أشبه بسمفونية خالدة ترقص على ذكريات الأندلس في أحواض ذات شكل ثمانيّ يعكس شكل النجمة الاسلامية المثمنة، فقد كان كل شيء في بلاد الأندلس يحمل إرثا ثقافيا يذكّر بحضارة المسلمين والعرب هناك.

كان رذاذ الأمطار يهطل من فترة لأخرى ليجعل رائحة لحاء الأشجار الممزوج بعطر التفاح الأحمر تنتشر في الشوارع والأزقة، حيث تركت تلك المناظر في نفس هاشم دوامة من الشوق والاشتياق الى أهله وبلاده كعصف أزهار الخريف الذي ينثر الورد في كل مكان، وينثر عطور الشوق والحنان.

كانت عيون هاشم تتأمل جمال قصر الحمراء وبهاءه وضخامة بنائه، فقد كان القصر محاطا بسور عال تحيط به الأشجار الغناء من كل جهة، كما كانت شرفات القصر والأقواس الجميلة والفوانيس الجميلة المعلقة عليه وأسقفه القرميدية الجميلة وزخارفه الهندسية تجعل الناظر اليه يتأمل فيه بشغف واعجاب.

ثلاثة أبواب في قصر الحمراء كانت تؤدي الى الخارج، وباب واحد يصله بمدينة غرناطة وهو باب السلاح، فكانت الأبواب ذات كتل حجرية ضخمة تتضمن دهاليزا مقبّبة ذات تعرجات والتواءات كثيرة، وتعتبر تلك المقاييس من أنسب أنماط العمارة العسكرية آنذاك وتدل على ذكاء وعبقرية المعماري المسلم.

لم يكن قصر الحمراء قصرا بالمعنى الحرفي فقط أو قلعة حربية، ولكنه كان مدينة بأكملها، كان القصر من الداخل أشبه بجنة اسطورية فقد احتوى على حدائق وساحات خارجية تحيط بمرافق القصر، كساحة الرياحين، وهي تعتبر من عجائب الحمراء وتتوسطها بركة مياه مستطيلة وتحفّها أحواض من أشجار الريحان التي تملأ تلك الساحة بعبق الرياحين المنعشة، وفناء السرو الذي كان يحتوي على أشجار السرو الجميلة ويقع بجانبه جناح الحمامات السلطانية.

كان جناح الحمامات السلطانية من أروع واجمل الحمامات العربية تصميما وروعة، حيث يضفي سحرا وجاذبية على تلك الأفنية الممتلئة بالأزهار والأشجار الجميلة، والتي تتراقص بألوانها الزاهية مع ألوان الزجاج الملون والمعشق في تلك المباني المرفقة بالقصر، أما فناء الأسود فقد كان فناء مزيّنا بإثني عشر أسد مصنوع من المرمر المصقول، والفناء مستطيل الشكل تتوسطه نافورة تحتوي على تلك الأسود التي تقذف الماء من أفواهها حيث تشكل تلك الأسود ساعة زمنية، ففي الساعة

الأولى من النهار يتدفق الماء من فم الأسد الأول ليصب ماءه في البركة التي حوله، وفي الساعة الثانية يخرج الماء من فم الأسد الأول والثاني، وهكذا الى الساعة الثانية عشر فإن الماء يتدفق من أفواه الأسود الإثني عشر، ثم يعود الوضع الى الأسد الأول وتنقطع المياه عن الأسود الأخرى. أثناء ذلك تذكر هاشم مقولة ذلك القرصان الغجري.. بيدرو، عندما طلب منه ومن موسى أن يتوجها الى قصر الحمراء، وكان يقصد بذلك تلك الغرفة التعيسة في قاع السفينة والتي كان العبيد يحتجزون فيها، ثم ابتسم وتألم عندما تذكر بعض المواقف التعيسة التي مرت عليه عند اختطافه من قبل البرتغاليين.

أعجب هاشم بما رآه في غرناطة وأحس بأنه لا يزال في القيروان، فجميع ما رآه يحمل رموزا وأشكالا وطوابع عربية واسلامية، وحتى المآذن والقباب لا تزال شامخة هناك. لقد كانت تلك العواطف والأحاسيس الجياشة تتجاذب هاشم يمينا وشمالا وتعيد إليه تلك الهواجس والأفكار، الماضي والحاضر وهواجس البشر وتوهماتهم.

أثناء ذلك وصلت العربة التي كانت تقل هاشم الى قصر البارون أوغستين فرناندو، نزل من العربة ويداه ورجلاه مقيدة بالحبال وجسده العاري قد نحل من تعب السفر الذي لحق ببدنه الضعيف وبان أثر التعب على وجهه الذي ازداد سمرة كما بدت لحيته غير مشذبة، بعد ذلك استقبل أحد العاملين في قصر البارون هاشم مع ذلك السمسار وذهبا به الى أحد حمامات القصر وحلقا رأسه ولحيته وجعلاه يغتسل، ثم أتيا به الى البارون أوغستين وقد أصبح شكله مهذبا ولمعان عيونه تدل على ذكاء متقد وبدت بشرته أفضل من ذي قبل الأمر الذي جعله يعجب به. قام والتف حول هاشم وقال لأحد الخدم الموجودين هناك: يجب أن تُعلموا هذا ايتيكيت الطبقة الأرستقراطية، سله ما إسمه، فسأله الخادم وقال له بالعربية المكسرة عن اسمه، فقال إسمي هاشم. فقال البارون أوغستين لا.. لا هذا إسم عربي.. قل له إن اسمه من اليوم هو.. أنطونيو، نعم أنطونيو. كان اسم أنطونيو بالاسبانية تعني الانسان البسيط. فقال ذلك الخادم لهاشم إسمك من اليوم أنطونيو، فأومأ هاشم برأسه دلالة على الرضا والموافقة بالواقع المرير.

بعد ذلك أخذ الخادم هاشم (أنطونيو) الى حديقة القصر لينظفها وبعد ذلك يأتي به الى الساقية ليغسل الصحون والأواني وملابس البارون وعائلته. كان قصر البارون الذي يسكن فيه البارون هو قصر لأحد كبار الشخصيات من بني نصر من ملوك الطوائف آنذاك والذين كانوا يسكنون غرناطة قبل أن يطردوا منها، وقد سكن فيه لأنه كان من حاشية الملك فرناندو الثاني آنذاك ومن كبار الطبقة الأرستقراطية ومن الذين تم توزيع ثروات غرناطة عليهم بعد استيلاء الأسبان عليها.

لاحظ هاشم ذلك بعد مرور فترة على تواجده في ذلك القصر وجود منبر للصلاة في أحد الغرف ووجود سيوف ورماح ودروع معلقة على جدران ذلك القصر نقشت عليها آيات قرآنية، كما لاحظ هاشم وجود مكتبة كبيرة في ذلك القصر كانت تحتوي على كتب عربية كثيرة جدا أذهلت هاشم بكثرتها وتنوع موضوعاتها، الأمر الذي جعل هاشم يحس بالسعادة التي فقدها بعدما تكالبت عليه الهموم وما آل اليه مصيره غير المتوقع.

كان هاشم كثيرا ما يتذرع بالذهاب الى المكتبة لتنظيف الغبار العالق بتلك الكتب كي يقرأها. لبث هاشم هناك ما يزيد على التسعة أشهر في ذلك القصر جعلته يجيد اللغة الأسبانية بطلاقة بسبب ذكائه وفطنته، وفي يوم من الأيام ذهب هاشم كعادته إلى المكتبة بهدف القراءة، فدخلها ولم يلحظ أن البارون اوغستين يجلس هناك على كرسي مكتبه موجّها وجهه نحو جدار المكتبة وهو يفكر في أمر معيّن، فأحس بأن أحدهم قد دخل المكتبة، ثم استدار للخلف ليجد هاشم وهو يتصفح بعض الكتب، سكت وجعل يتأمل في هاشم وهو يقرأ ويقرأ مندمجا بالقراءة، الأمر الذي جعل البارون أوغستين يستغرب لأنه الخادم الوحيد لديه الذي يجيد القراءة.

إزداد إعجاب البارون بأنطونيو وقرر أن يعامله معاملة أفضل من معاملة الخدم الآخرين مع أنه كان فظًا مع الآخرين ويعاملهم بقسوة فقد قضم أذن أحدهم عندما كان غاضبا في أحد الأيام. تنحنح البارون لكي يثير انتباه هاشم بتواجده في المكتبة، الذي التفت نحوه متفاجئاً بوجود البارون، فقال له تعال يا أنطونيو تفضل بالجلوس هنا. استغرب هاشم فليس من عادة العبيد أن يجلسوا أمام أسيادهم، فاعتذر هاشم، فألح عليه البارون بالجلوس يسأله عن تلك الكتب ومحتوياتها واحدا واحدا لأنه لا يجيد العربية، وبعدما انتهى البارون من معرفة محتويات الكتب كافأ هاشم بقليل من حبات التين المجفف وقال له يمكنك الذهاب الى عملك.

كان البارون أوغستين يعامل هاشم باحترام إلا أنه كان بخيلا في تعامله مع الخدم ومع هاشم أيضا، فكان لا يطعمهم إلا من بقايا طعامه ولا يلبسهم الا من الملابس البالية التي لا تقيهم من حر الصيف وبرودة الشتاء وكان أكثرهم لا ينامون إلا على قش حظيرة الأبقار الخاصة بالبارون.

كان العبيد الآخرون يحسدون هاشم كثيرا لأنه كان يحظى باحترام البارون وقد جعله منسقا لحفلاته بعدما ألم هاشم بإسلوب حياة ذلك البارون، إلا أنه أحيانا كان يعامله بقسوة. مرت تلك الأشهر التسعة على هاشم وكأنها تسع سنوات ذاق خلالها ألوان الشقاء والحرمان، ولم يذق الكلة أشبعت بطنه، ولكنه كان دائما يحس بأنه سوف يتخلص من حياة العبودية ويرجع الى وطنه ويتخلص من ذلك الرجل الذي استعبده خلال تلك المدة.

إعتاد هاشم على تلك الاوضاع في قصر البارون أوغستين، إلا أنه لم يكن متأقلما مع ذلك الوضع المأساوي، وكان يعلم بأنه سوف يهرب من ذلك الاقطاعي الجشع عندما تسنح له الفرصة وفي أقرب وقت، وكان مدركا بأنها مسألة وقت لا أكثر.

وفي يوم من الأيام أقام البارون أوغستين حفلة كبيرة في قصره كانت تضم الكثير من أبناء الطبقات الأرستقراطية من إقطاعيين وفنانين وموسيقيين ورحالة ومستكشفين وكونتات وبارونات الطبقات النبيلة، ويعد من أبناء العوائل الأرستقراطية الثرية في غرناطه.

ظل البارون يتجول بين جموع الزائرين وهو فرح ويبتسم في وجوه الحاضرين وهاشم كان موجودا معه، فقد كان خادمه الخاص لأنه يجيد العربية والأسبانية ولديه إطلاع على الثقافات والعلوم من خلال ما كان يقرأ للبارون في تلك المكتبة التي في قصره. وبعد ذلك قدم على البارون مجموعة من البائعين المتجولين ليعرضوا ما يملكون على البارون وعلى المدعوين في تلك الحفلة. استأذنوا هاشم في الدخول، فاستأذن البارون الذي سمح لهم بالدخول وعرض ما لديهم من معروضات لبيعها.

جلس المدعوون على الكراسي المعدة لهم بشكل دائري وتركوا فراغا في المنتصف لعرض البضاعة وليستمتعوا بالفرجة. كان من عادة الباعة آنذاك أن يعرضوا ما لديهم على صاحب القصر أولا فإن لم يرغب الشراء يعرضوا ما لديهم على المدعوين. كان عدد الباعة ثلاثة أشخاص ويحمل كل واحد منهم شيئا لبيعه.

تقدم البائع الأول وكان يمسك بيده نمرا مروضا ربطه بسلسلة حول رقبته ورحب بالبارون بإحترام متصنع وقال له يوجد لدي نمر مروض يا سيدي وهو يصلح أن تاخذه معك في تنقلاتك الخاصة فهو يكسبك وجاهة عند الآخرين. سكت البارون قليلا وفكر في أن يشتريه ثم هز رأسه كناية عن رغبته في شرائه. فسبقه هاشم الذي كان يقف خلفه وهمس في أذن البارون أوغستين وقال له لا يا سيدي لا تفعل.. لا تشتريه.. إن هذا النمر لا يصلح لذلك لأنه نمر مروض كالكلاب والقطط وليس له خصائص النمر المعروفة ولا تستبعد أنه كان يعيش في حظيرة للكلاب.

استغرب البارون والتفت التفاتة بسيطة حتى لا يثير انتباه الآخرين وقال لهاشم بصوت خافت: وكيف عرفت ذلك؟ فقال له هاشم: ألا ترى أن ذلك النمر يلعق صاحبه بلسانه ويهز ذيله فرحا لأن

صاحبه كان يربت عليه تماما كما هو فعل الكلاب المدللة.

إقتنع البارون كثيرا ثم التفت نحو ذلك البائع وقال له: هذا النمر لا يصلح لما ذكرت فهو يعيش في حظيرة للكلاب. استغرب البائع من كلام البارون كثيرا، وقال في نفسه كيف عرف ذلك؟ فارتفع صوت المدعوين لأنهم أبدوا استغرابهم بذلك، فقال البائع صحيح يا سيدي ولكن لو لم أفعل ذلك لما استطعت ترويضه!! ثم خرج ذلك البائع من القصر وهو يشعر بالاحراج والخجل.

تقدم البائع الثاني وكان يحمل معه سيفا، فرحب بالبارون وقال له هذا سيف صلاح الدين الأيوبي اشتراه والدي من أحد التجار العرب. لقد كان الأوروبيون معجبون جدا بشجاعة صلاح الدين وكانوا يحترمونه كثيرا بما فيهم الملك ريتشارد قلب الأسد حيث سمعوا عن شجاعته الكثير واعجبوا بشخصيته. فقام البارون أوغستين إجلالا لذلك السيف وأمسكه بيده وهو يتأمله بدهشة واعجاب، وبدت بوادر الاعجاب تظهر على اسارير وجهه ولمعان عينيه.

اقترب هاشم منه وقال له بصوت خافت: لا يا سيدي هذا ليس سيف صلاح الدين. انزعج البارون من كلام هاشم والتفت نحوه وهو غاضب، فهمس هاشم في أذن البارون وقال له هذا ليس سيف صلاح الدين، لأن هذا السيف طويل جدا وصاحبه كان جبانا لأنه لو كان شجاعا كصلاح الدين لما خاف من المواجهة وقرب الخصوم.

كان كلام هاشم يبدو مقنعا فاقتنع البارون بسرعة لأنه كان يثق به، فترك السيف وهو يتمنى أن يكون هاشم مخطئا، فقال لذلك البائع خذ سيفك واخرج من هنا، فهذا ليس سيف صلاح الدين.. ألا ترى أنه طويل بشكل مبالغ فيه وذلك يدل على أن صاحبه كان يخاف من الاقتراب من خصومه. هيا إرحل من هنا.

خرج البائع الثاني بسرعة بعدما انكشف أمره بشكل سريع وسط ذهول الحاضرين. ثم خيّم على الحاضرين الصمت لبرهة بسيطة وفجأة صفقوا للبارون بحرارة مبدين إعجابهم بذكائه الذي كان مقتبسا من ذكاء هاشم، أحس البارون بالنشوة والسعادة فقال ادخلوا البائع الثالث والأخير، التفت البارون نحو هاشم وقال له إذا ساعدتني هذه المرة سوف تنال المزيد من الطعام.. وكان يقصد بذلك التين المجفف!! لم يكن هاشم يريد من ذلك البارون الذي يعامل خدمه بالحرص والبخل إلا أن يعتقه ليرجع الى أهله وبلده ويتخلص من تلك العبودية البغيضة.

دخل البائع الثالث وهو يحمل في يده أيقونة مسيحية عبارة عن تمثال من المرمر للسيدة مريم وهي تحمل وليدها يسوع، وكان ذلك التمثال من المرمر المرصع بالياقوت والفيروز وبعض الاحجار الكريمة، حيث قال البائع أن أجداده وجدوه في أحد أديرة أنطاكيه المتهدمة في أيام الملك قسطنطين الخامس والذي قام باضطهاد واسع للرهبان ومؤيدي الأيقونات آنذاك، فأعجب الكل بتلك التحفة الرائعة على أمل أن يشتروها وتقدموا نحوها بانبهار تام وهم يتأملونها.

اقترب هاشم من تلك الأيقونة وتأمل فيها وعينا البارون أوغستين تنظر إليه، وكأنه ينتظره ليقول له شيئا، ثم رفع هاشم عيناه ونظر الى البارون وظل صامتا لبرهة بسيطة ثم أشار إليه باصبعه أن لا تفعل!!

إنزعج البارون ونادى هاشم ثم اختلى به وقال له ما بك يا أنطونيو هل جننت؟ ألا ترى هذه التحفة النادرة؟! فقال له هاشم هذه ليست أيقونة لمريم وولدها المسيح ولكنها أيقونة وثنية للإله الوثني «كريشنا» وأمه «ديفاكي». ضحك البارون بسخرية من هاشم وقال له كيف عرفت ذلك!! فقال له هاشم عندما اقتربت من تلك الأيقونة لاحظت وجود دائرة محفورة في جبهة تلك المرأة التي تحمل الطفل، وتلك الدائرة تنسب للحضارة الهندية بقصد تحسين الحظ للإنسان وحمايته من الشياطين.

لقد كان الإله «كريشنا» يعبد في الهند قبل المسيح بألف سنة وكانت أيقونته مشابهة تماما لأيقونة

العذراء مريم وهي تحمل وليدها بنفس الشكل الذي كانت تحمل فيه العذراء وليدها المسيح عيسى حيث التشابه الكبير بين والدة الإله الوثنية مع وليدها والعذراء مريم مع وليدها أيضا!! الأمر الذي جعل البارون أوغستين فرناندو يشك بأن عقائد الديانة المسيحية مقتبسة من الديانات الوثنية القديمة!! لقد كانت السيدة مريم.. أم الإله حسب الديانة المسيحية متواجدة في كثير من مظاهر الأديان الوثنية الأخرى، لأن الكثير من الطقوس الوثنية أدخلت على المسيحية على يد المسيحيين القدماء الذين كانوا حديثي عهد بالمسيحية ومتأثرين بعبادة الأيقونات المقدسة والأصنام، الأمر الذي جعل الكثير من رجال الدين الكنسيين يعترضون على تلك الأيقونات حيث نشأت حركات كثيرة لمحاربتها سميت بحركات محاربي الأيقونات في عصور المسيحية المبكرة.

اقتنع البارون بكلام هاشم وتوجه بسرعة نحو تلك الأيقونة وتأمل فيها، فقال أيها السادة أيها المحترمون إن هذه الأيقونة هي أيقونة وثنية وحسب. وليست لأم الإله ووليدها، فاستغرب الحاضرون مرة أخرى واندهشوا وعلت أصواتهم مبدين استغرابهم، فقال البارون ألا ترون تلك الدائرة في جبهة تلك المرأة، إنها تنسب للحضارة الهندية.. صمت الحاضرون قليلا ثم ارتفع صوت عاصفة من التصفيق، أعجب المدعوين بذكاء البارون أوغستين الذي لولا ذكاء وفطنة هاشم لما كان يعرف شيئا.

ثم التفت نحو هاشم وقال له بصوت منخفض.. هناك المزيد من الطعام هذه الليلة.. إبتسم هاشم بسخرية فقد كان يعلم أن ذلك الطعام لم يكن سوى التين المجفف الذي يكاد يتقيأ عند ذكره. وعندما انتهت الحفلة في تلك الليلة الصاخبة التفت البارون أوغستين نحو أنطونيو وابتسم في وجهه وقال له اتبعني الى المكتبة، توقع هاشم أن ذلك البارون سوف يعتقه أو على الأقل سيكافئه، جلس البارون ثم قال لهاشم اجلس يا أنطونيو اجلس، ثم قال له لقد أعجبتني اليوم وفاجأتني بمعلوماتك وذكائك وسعة اطلاعك. ولكن.. أكثر ما أثار دهشتي يا أنطونيو.. هي تلك الأيقونة الجميلة فقد كانت تشبه أيقونة أم الإله وهي تحمل وليدها يسوع بشكل كبير جدا، كما أن وضعية رجل كريشنا كانت تشبه وضعية رجل يسوع يا أنطونيو.. آه لقد جعلتني يا أنطونيو أشكك بأن عقائد الديانة المسيحية مأخوذة من الوثنية!!

أراد هاشم أن يغيظ البارون، فقال له ليس ذلك فقط فلقب والدة الإله قدم إلى الديانة المسيحية من خلال المصريين القدماء، فمثلا كانت «إيزيس» أم الإله «حورس» وقد قدم هذا اللقب للمسيحيين من خلال المصريين الذين دخلوا الى الديانة المسيحية.

وليس ذلك فقط فهناك ما هو أكبر من ذلك، فقال البارون أوغستين ماذا؟ أكمل يا أنطونيو، فأنا أسمعك. فقال له هاشم إن الثالوث المسيحي المعروف المتمثل بالله والروح القدس والمسيح يشبه الى حد كبير ما يعتقد به الوثنيون، حيث يعتقد قدماء المصريين بأن الثالوث الخاص بهم هو «أزوريس وإيزيس وحورس» ويعتقدون أن هؤلاء الثلاثة في واحد، وأن الخليقة تمت بكلمة الله وان الإبن هو الإله المعروف للناس وأن الذي أوجد الميلاد الثاني هو ابن الله، وهذا بالضبط يشبه اعتقاد المسيحيين في أن الله خلق الكون بكلمة الله وهو المسيح، وأن الثالوث فيه توحيد وأن الثلاثة في واحد، وأن الله هو المصدر وصدر منه الإبن وانبثق منه روح القدس!!

صدم البارون أوغستين بكلام هاشم وتفاجأ بتلك المعلومات التي لم يكن مطلعا عليها من قبل، ثم قال لهاشم.. أنطونيو إنك تعرف الكثير من المعلومات ولديك إلمام واسع بالديانات الوثنية والسماوية. تجرأ هاشم وقال في نفسه هذه هي الفرصة الوحيدة لكي أنقذ نفسي الآن، فإما أن يقتلني أو أرجع الى أهلي وديياري واتحرر من عبودية هذا الاسباني الحقود، فقال هاشم له نعم يا سيدي أنا أعرف الكثير.. والكثير عنك أيضا!!

استغرب البارون من كلام هاشم وقطب حاجبيه بقلق واستغراب وقال لهاشم.. ماذا تقصد؟! هاه ماذا تقصد أنك تعرف الكثير عني يا أنطونيو؟! تكلم.. فوقف هاشم بعد أن كان جالسا وقال له بكل

جرأة أنا أعرف عنك الكثير، فأنت لست من أسرة أرستقراطية ثرية وإنما أنت إبن مزارع فقير ولن تستطيع أن تنكر ذلك!!

صعق البارون من كلام هاشم واحمر وجهه وعرق جبينه واستغرب كثيرا، وقال في نفسه كيف عرف أنطونيو حقيقة أمري؟! لقد كان البارون أوغستين فرناندو بالفعل إبنا لمزارع فقير في أحد ضواحي بلنسيه وبعد ذلك أصبح محدث نعمة، وصار إقطاعيا ثم انتقل الى غرناطة بعد جلاء العرب عنها ليدعي بأنه من أسرة أرستقراطية عريقة من شمال إسبانيا ليكون بذلك من ضمن الطبقات المخملية وحاشية الملوك.

ثم قال البارون أوغستين لهاشم وهو يبدو منهارا كيف عرفت ذلك يا أنطونيو؟ فقال له هاشم لقد عرفت ذلك من خلال التين المجفف!! فلقد كنت دائما ما تكافئني بالتين المجفف ولا يفعل ذلك إلا المزارعين الفقراء. ثم نكس البارون رأسه وأدرك بأن هاشم اكتشف حقيقة أمره فقال لهاشم لقد انتصرت هذه المرة. وسوف أكافئك مكافئة تستحقها شريطة ان تكتم هذا الأمر الذي تحدثنا به ولا تخبر أحدا به، فقال هاشم ولكن ليس بالتين المجفف. ابتسم البارون ابتسامة محبط وقال لهاشم بالتأكيد يا أنطونيو.

ثم أحضر صرة كبيرة من المال وأعطاها الى هاشم وهو يبتسم في وجهه وقال له أنت حر يا أنطونيو.. بل يا هاشم فأنطونيو انتهى من الآن، وغدا في الصباح الباكر سوف أجهز لك عربة تقلك الى الميناء لتسافر الى بلادك معززا مكرما.

لم يكن البارون أوغستين يملك الجرأة الكافية لكي يقتل هاشم، ولكنه كان يعلم بأن المال كفيل بأن يقوم مقام تلك المهمة وينتهي ذلك الجدال وتلك الحقيقة التي كان البارون يخشى أن يطلع عليها أحد. ذهب هاشم الى غرفته وهو لا يكاد يصدق ما جرى معه، ثم قام يتأمل المال الذي في الصرة وهو يمني نفسه بالعودة الى القيروان والاكتفاء بما حصل له من مواقف مهينة.

استلقى على ظهره وعيناه تنظران الى سقف الغرفة وقد سرح بفكره طويلا، ثم نهض جالسا على فراشه وبدأ يزحف حتى لاصق ظهره جدار غرفته وأحاط ركبتاه بكلتي يديه وكأنه كان يفكر بشيء مصيري.. لقد كان هاشم مترددا في إكمال مسيرته البحثية نحو الحقيقة أو الرجوع الى القيروان والعيش بسلام.

ظل هاشم تلك الليلة يقظا ولم يستطع النوم، فعليه أن يتخذ ذلك القرار المصيري بالنسبة له، لأنه إن أكمل مسيرته البحثية فلربما يتعرض لبعض المواقف التي قد تزهق روحه في أبسط موقف منها، لكن روح التحدي لدى هاشم لم تكن بتلك الهشاشة بحيث يتنازل عن مبادئه التي قدم الى أوروبا من أجلها.

ومع تقدم الوقت زادت مخاوف هاشم، فعليه أن يتخذ القرار بسرعة وينهي تلك الحيرة التي أطبقت على بصيرته. وعند شروق أول خيط للشمس كان هاشم قد اهتدى إلى فكرة، وهي أن يخرج من هنا ويذهب الى برشلونه ليبحث عن صديقه موسى ليشتريه ويعتقه من صاحبه إن وجده، وإن لم يجده سوف يرجع أدراجه ويسافر الى القيروان، لأن هاشم بحاجة الى من يقف معه لإكمال مسيرته البحثية، وخصوصا بعدما اتفق مع موسى حول الكيفية التي يدخلان بها الى مكتبة قصر لاتران.

وفي الصباح كان البارون أوغستين فرناندو جالسا ينتظر هاشم للخروج من غرفته وقد أعد له عربة مع سائقها لكي يقله الى الميناء. خرج هاشم من غرفته خائفا وكأنه كان يحلم فاستقبله البارون بالترحاب وقال له لقد كنت أنتظرك منذ الصباح الباكر لكي أودعك، وقد أعددت لك عربة لكي تقلك الى المكان الذي تريد، فقال له هاشم هل بإمكاني يا سيدي أن أذهب الى برشلونه بدل الذهاب الى الميناء؟

استغرب البارون قليلا ثم قال له يمكنك الذهاب حيثما تريد شريطة أن تكتم الذي اتفقنا عليه، فقال له هاشم بالتأكيد يا سيدي. لم يكن البارون بحاجة الى أن يعرف أين يذهب هاشم بقدر ما هو يريد أن

يتخلص من وجوده في غرناطه. استقل هاشم العربة وودع البارون وتحركت العربة. فقال هاشم مخاطبا نفسه هذه هي نفس العربة التي كنت استقلها عندما جئت الى هنا مكبلا بالحديد، وها أنا ذا أستقلها مرة أخرى ولكن محررا ومعززا ومكرما.

لقد تخلص هاشم من ذلك الاقطاعي بفضل ذكائه وفطنته وإلا لظل مستعبدا هناك الى بقية حياته، ثم رأى هاشم أن يخبئ جزءا من ذلك المال تحت أحد المنازل المهجورة على أطراف غرناطة حتى لا يفقد كل ما يملكه فيما إذا تعرض للسرقة والسلب عندما يرجع مرة أخرى الى القيروان مرورا بغرناطه.

سارت العربة تجوب أنحاء الأندلس متوجهة الى الشمال الشرقي من بلاد إسبانيا نحو مدينة برشلونه. وكانا كلما اقتربا من برشلونه زادت حيرة هاشم، فهو لا يدري فيما إذا كان صاحبه موسى موجودا أم غير موجود. لأنه إن لم يكن موجودا فسيضطر هاشم للرجوع الى بلاده وإنهاء هذه الرحلة دون الحصول على أدنى معلومة حول ما كان يطمح في الحصول عليه في مكتبة قصر لاتران بروما.

استمرت العربة تجوب الريف الاسباني أياما وليالي حتى وصلا الى حدود مدينة برشلونه. كانت مدينة برشلونه من أكبر العواصم التجارية والعلمية أيام وجود العرب فيها، وكانت مزدهرة عمرانيا حيث كانت عامرة بالأسواق والحصون والفنادق والحمامات والمساجد التي علقت النواقيس على مآذنها، وكانت ضياعها تنتج البرتقال والعنب والأرز والزيتون والخضروات.

قرر هاشم أن يستريح على حدود برشلونه هذه الليلة وفي الصباح الباكر يذهب ليبحث عن صديقه موسى في المزارع التي تقع على أطراف مدينة برشلونه الشمالية.

أوقد هاشم النار وجلس هو وسائق العربة الأسباني حول تلك النار في تلك الليلة وهما يتأملان. كانت عيون هاشم مليئة بالحيرة وهي تبدو لامعة على ضوء تلك النار التي تخبو وتزداد تبعا لحركة الهواء، والصمت يحيط بهما.

بادر سائق العربة هاشم وقال له أراك متحيرا وأنت تفكر بعمق.. هل أستطيع مساعدتك؟ التفت هاشم نحوه وظلت عيناه تدوران حول وجه الرجل وهو يتأمل فيه بصمت. وقال نعم أريدك أن تساعدني، فقال الرجل وكيف أستطيع مساعدتك، فقال له هاشم غدا سوف نخرج لنبحث عن شخص معيّن وأريد أن أكون أنا سائق العربة كعبد مملوك وأنت النبيل الذي يجلس بداخلها!!

استغرب الرجل كثيرا ولم يفهم ماذا كان يقصد هاشم بذلك. لقد كان هاشم يخشى من إثارة الشكوك حول أصله وعرقيته وهو يبحث عن صديقه، فالسائق النبيل من بني جلدتهم ولا يثير الشكوك، فقد كان الوضع في اسبانيا لا يزال مضطربا بعد خروج العرب من إسبانيا.

وفي صباح اليوم التالي تبادلا الأدوار حسب ما اتفقا عليه وسارت بهما العربة نحو أطراف مدينة برشلونه الشمالية وهما يبحثان عن موسى عند كل ضيعة ومزرعة ولكن دون جدوى، فقد بحثا عنه لمدة ثلاثة أيام دون أي أثر له. بعد ذلك قرر هاشم الرجوع الى الميناء والذهاب الى القيروان وانهاء رحلته البحثية.

وأثناء عودته لاحظ وجود بستان محاط بسياج من الخشب، توقّف هاشم وقال في نفسه هذا البستان يشبه بساتين اليهود فهم دائما يتعايشون مع الآخرين من وراء جدر وحواجز، لعله يكون بستان ليهودي وأجد موسى أيضا هنا.. لقد صدقت نبوءة هاشم فالبستان كان ليهودي بالفعل كما توقع هاشم تماما.

اقترب هاشم من السياج ثم نزل من العربة حتى لمس السياج وظل يتأمل داخل المزرعة لعله يرى شيئا، قرر أن يدخل هناك لعله يجد صاحبه هناك أو يسمع عنه شيئا. وبالفعل دخل هاشم البستان فوجد أحد العبيد الذين يعملون هناك فسأله وقال له هل يوجد شخص هنا اسمه موسى قصير البنية وملامحه عربية؟ فقال ذلك العبد نعم أعرف شخصا بتلك الأوصاف ولكن اسمه ليس موسى بل ينادونه موشيه،

فـفرح هاشـم كـثيرا وقال له نعم هو من أقـصد، كيف يمكنني أن أراه؟ فقال له علـيك أن تنـتظره قـبل المساء حتى ينـهي أعماله وسأخبره الآن بالأمر.

وفي المساء لم يأت موسى وتأخر كثيرا، فاضطر هاشم الى أن يبيت خارج المزرعة وينتظره لعله يأتي في اليوم التالي. وفي صباح اليوم التالي قرر هاشم أن يدخل المزرعة ويسأل عن موسى بنفسه، كان صاحب المزرعة يشرف على الأعمال في الحظيرة والمزرعة بنفسه فتفاجأ بدخول هاشم ثم رحب به وأدخله إلى مجلسه الخاص حيث كان يظن بأنه أحد التجار الذين يشترون المحاصيل الزراعية، فقال له هاشم بأنه مندوب لأحد أكبر تجار كتالونيا وهو يبحث عن عبد ليشتريه، فقال له صاحب المزرعة كنت أظـنك تاجراً تشتري المحاصيل الزراعية، ولكن العبيد الذين أملكهم لا أود بيع أحدهم فأنا أحتاجهم كلهم، فقال له هاشم سوف أدفع لك ضعف ما يدفع لشراء العبيد شريطة أن تدعني أختار بنفسي العبد الذي أود شراءه.

أبدى صاحب المزرعة استـغرابه من كلام هاشم، ثم قال حسـنا لا مانع لدي.. تفضل معي، ذهب هاشم معه الى خارج المنزل ثم أخذ الرجل طبلا وجعل يضرب عليه بطريقة معينة.. وبعد دقائق معدودة تجمع العشرات من العبيد وهم يهرولون حتى توقفوا أمامهم.

تقدم هاشم وجعل ينظر اليهم واحدا واحدا وضربات قلبه تزداد كلما تقدم نحو أحدهم، ولكن.. للأسف لم يجد موسى كما كان يتوقع. لقد كانت تلك هي الفرصة الأخيرة التي منحها هاشم لنفسه في البحث عن صديقه موسى. ثم شعر هاشم بالاحباط واغتم كثيرا، ثم لاحظ هاشم وجود أحدهم وهو مربوط على جذع شجرة فاقترب منه بداعي الفضول.. وإذا به صديقه موسى!!

لم يصدق موسى ما يرى فجعل ينظر باستغراب وهو لا يكاد يصدق بصره فإتسعت حدقتا عيناه، ثم غمز هاشم عينه طالبا من موسى السكوت. فهم موسى ذلك وصمت، فسأل هاشم صاحب المزرعة ما بال هذا.. لماذا هو مربـوط هكذا؟ فقال له إنه لا يصلح لك يا سيدي، إنه يفتعل المشاكل دائما ولا يعـمل بجد، فقال له هاشم لا بأس أنا أريده.

فلم يتردد صاحب المزرعة في بيعه لأنه كان يريد أن يتخلص منه، دفع هاشم المبلغ الى صاحب المزرعة وأخذ موسى الذي ظل صامتا لفترة وكأنه صدم وذهل، فهو لا يزال غير مصدق بأنه تم تحريره على يد صديقه هاشم والذي هو أيضا قد تم بيعه كعبد!! ولكن هاشم نجا بذكائه.

ركب الاثنان في العربة وكان موسى يبدو كأنه لا يزال يحلم بأن هاشم أتى ليحرره ويأخذه من هنا بعد أن كان عبدا مملوكا ومربوطا على جذع تلك الشجرة. إلتفت موسى نحو هاشم وقال له.. هل أنا احلم يا هاشم؟ كيف أتيت الى هنا؟ وكيف تخلصت من العبودية؟ أنا لا أصدق ما الذي يجري. ثم قام يبكي في أحضان هاشم وقال له أنا ممتن لك يا هاشم ومدين لك بحياتي، وأعدك بأني سوف أفعل ما تطلبه مني، فقال له هاشم أنا لا أريد شيئا سوى ما اتفقنا عليه مسبقا.. وهو أن تذهب معي الى روما.

هل تذكر يا عزيزي ما اتفقنا عليه؟ فقال له موسى أعدك بأني سوف أفعل ما تطلبه مني. قاربت الشمس على الغروب، فتوقفا ونزلا من العربة ثم جلسا يتحدثان ويذكر كل واحد منهما ما جرى له من مآسي وآلام. وكان سائق العربة معهما حيث أمره البارون أوغستين بالتوجه مع هاشم حيثما يريد.

لقد كانا يتكلمان العربية في حين اكتفى سائق العربة بالنظر الى وجهيهما والضحك معهما عندما يضحكان فهو لا يعرف الا لغته الاسبانية فقط. لقد كان هؤلاء الثلاثة أشبه بالأخوة، فكانوا يحترمون بعضهم البعض مع أن هؤلاء الثلاثة كانوا من ديانات مختلفة فكان أحدهم مسيحيا والثاني يهوديا والثالث مسلما. ومع ذلك لم يؤثر ذلك الإختلاف على علاقتهم واحترامهم مع بعضهم البعض، فالانسان مهما اختلفت آراءه وميوله وعقائده عن الآخرين يظل إنسانا بطبعه يفرح لفرح الآخرين ويحزن عندما يرى الآخرين حزانى.

طوال ذلك اليوم.. ظل الثلاثة يضحكون تارة ويتألمون تارة أخرى حتى غابت الشمس وهم على تلك الحالة، فغلبهم النعاس على إثر ذلك الهواء العليل في شمال إسبانيا فناموا جميعا بينما ظلت النار موقدة وتداعب بألسنتها ذلك الهواء العليل حتى خمدت مع-هم ولم يبق منها سوى الجمر الأحمر الذي يتراءى خلف الرماد.

نام الجميع وامتلأ المكان بهدوء الليل وسكون المكان إلا مما تحركه ريح المساء. لقد حصل لهاشم ما أراد حتى هذه اللحظة، فقد تحرر من العبودية وذهب ليبحث عن صديقه فوجده بعد بحث مضن، ثم قام بشرائه وتحريره، وتوجها الى روما لكي يسبر أغوار المجهول ويضع النقاط على الحروف ويهتك سر أطلانتس.. تلك الجنة التي كانت عصية على الكثيرين ولكنها لم تكن في يوم من الأيام عصية على طموحات هاشم وأحلامه.

ومع بزوغ الشمس في ساعات الصباح الأولى استيقظ الكل في وقت واحد على صوت زقزقة الطيور المهاجرة، فتأملها موسى وقال في نفسه ما أجمل الحرية التي تعيشها تلك الطيور المهاجرة فهي تهاجر أينما تريد وحيثما تشاء، ثم قال إذا كان عيد الفصح اليهودي هو ذكرى خروج بني اسرائيل من مصر لتحررهم من العبودية، فإن هذا اليوم الجديد هو يوم عيدي لتحرري من عبودية الأسبان.

قال هاشم سوف نبدأ اليوم رحلتنا الحقيقية نحو روما، وسوف نمر بمملكة الفرنجة «فرنسا» عن طريق البر لأننا لا نريد أن نتعرض لما تعرضنا له سابقا من اختطاف من قبل قراصنة البرتغال عندما قدمنا عن طريق البحر. أبدى موسى موافقته على ذلك بشكل فوري وقال له سوف أساعدك بكل ما تريد لأرد لك الجميل في تخليصي من العبودية والرق.

سار الثلاثة متجهين نحو هدفهم الأصلي.. روما. مرورا بمملكة الفرنجة وهم يسيرون بالنهار ويستريحون بالليل، وظلوا على تلك الحالة أياما وليالي يأكلون مما تنبت الأرض من خيراتها الوفيرة، ويشربون من ماء تلك الأنهار الكثيرة.

وفي يوم من الأيام وبينما كانوا يمشون في أرياف مملكة الفرنجة لاحظوا وجود مبنى صغير وبعض أجزائه متهدمة.. كانت تبدو ككنيسة مهجورة، فقال موسى لماذا لا نستريح هنا قليلا من ذلك الحر القائض لساعة ثم نكمل مسيرتنا، فقال هاشم لا بأس.

نزلوا هناك ودخلوا الى تلك الكنيسة القديمة فتفاجئوا بوجود أحدهم داخل تلك الكنيسة القديمة والتي كانت تبدو كالمهجورة، وإذا به قسيس عجوز خرج إليهم ورحّب بهم بأدب واحترام، لقد كان ذلك القسيس صالحا متصوفا ومتأملا مبتعدا عن ملذات الدنيا لأجل حب الله، فلا المكان الذي يعيش فيه مريح ولا حتى ملابسه تبدو كذلك، ثم أجلسهم بداخل تلك الكنيسة وقدّم لهم بعض الفواكه المجففة مع الماء، واعتذر لهم بلهجة إسبانية عن عدم وجود فراش آخر ليجلسوا عليه.

إستغرب هاشم كثيرا من هذا الرجل وقال في نفسه ماذا سيقول قساوسة إسبانيا الذين يلبسون الذهب والفضة والجواهر ويدّعون الزهد والتقشف والورع عن محارم الله عندما يرون هذا القسيس المسكين. ثم قال لهم بماذا أستطيع أن أخدمكم؟ فقال هاشم نحن مسافرون وجئنا الى هنا لنستريح ولكننا تفاجأنا بوجودك هنا، فقد كنا نظن أن هذا المكان مهجور فهو يبدو متهدما.

فقال القسيس هذا صحيح لقد آثرت الابتعاد عن الناس لأتفرغ للعبادة. ثم سأله هاشم عن الوجهة المثلى التي يجب أن يسلكوها للوصول الى روما، فقال ذلك القسيس.. روما، آه لقد كنت أعشقها ولكن بعدما اكتشفت حقيقة البشر آثرت أن ابتعد عن كل حدود الدولة البابوية حتى لا أكفر بالله!!

إستغرب الكل من كلام ذلك الرجل، ولم يفهموا مقصده. ثم قال لهم عليكم أولا الحذر من هؤلاء الفرنكيين لأنهم إن قبضوا على أحدكم فسوف يودعونه في سجن «الباستيل» وهو سجن الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود!! وإذا خرجتم من حدود هذه المملكة سوف تواجهكم حدود الدولة البابوية

ثم اسلكوا جهة البحر حتى تصلوا الى التلال السبعة ومدينة روما.

كانت العلاقة متوترة بين مملكة الفرنجة والدولة البابوية بسبب التمييز الطائفي بين المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت الأمر الذي يحتم عليهم أن ينتبهوا من الفرنكيين ولا يثيروا الشكوك. وبعد أن استراحوا قليلا قرروا الذهاب، فشكروا ذلك الراهب.

ازداد حماس هاشم عندما وصلوا الى حدود الدولة البابوية وهم متجهين الى روما.. المدينة التي يحلم أن يجد هاشم بها حلا للغز أفلاطون ونعيم جنة أطلانتس، وكشف السر الذي عجز عن كشفه الكثير من الذين سبقوه دون أن يعلّقوا حتى على محاورات أفلاطون حول تلك الجنة الفردوسية، لم يهدأ فكر هاشم لحظة واحدة وهو يفكر في الحصول على مبتغاه، ثم التفت نحو موسى وقال له هل لا زلت عند وعدك بأن تساعدني في الدخول الى مكتبة قصر لاتران للحصول على ما اتفقنا عليه سابقا أم لا؟ فقال موسى لقد سبق أن وعدتك، وبما أنك قمت بتحريري من عبودية ذلك التاجر الكتالوني فأنا مستعد لما تريده مني.

ثم تساءل هاشم في نفسه وقال ولكن هناك سبب آخر يا عزيزي تريد من أجله الذهاب الى هناك ولكنني سأعرفه حتما. كان ذلك الأسباني سائق العربة يغط في نوم عميق داخل تلك العربة بينما ظل هاشم وموسى يقودان تلك العربة حتى لا يثيرا تلك الشكوك ويصلان الى روما بسلام.

لقد عانى هاشم وموسى كثيرا من الفرنجة عندما يتعاملان معهم بشراء الخبز أو غيره، فهؤلاء الفرنجة لا يفهمون لغتهم ولا حتى لغة الأسبان. ظل الثلاثة يسيرون نحو روما حتى وصلوا الى تلالها السبعة، التي تحيط بمدينة روما فقرر هاشم وموسى أن يستريحا على مقربة من حدود مدينة روما ويفكرا في خطة محكمة للدخول الى مكتبة قصر لاتران والبحث عن الوثائق التي قدما من أجلها.

كان موسى لا يزال يكتم أمر سبب قدومه الى روما ولكنه لا يزال مصرا على ضرورة حصوله على كتاب الكابالا والرموز السرية، في حين كان جل اهتمام هاشم هو الحصول على وثائق حول جزيرة أطلانتس، تلك الجنة التي شغلت تفكير هاشم وجعلته يصر على البحث عن الحقيقة مهما كلفه الأمر.

أعاد موسى ما قاله لهاشم بأنه يجب أن يدخلا على بابا روما بحجة أنهما كهنة من كنيسة القيامة بأورشليم جاءا من هناك للمطالبة بوثائق مسروقة لبعض أقوال يسوع المسيح كتبها بولس الرسول وكانت مخبئة في المدافن السردابية في نطاق كنيسة القيامة، وقد سرقها فرسان الهيكل في ذلك الحين.

جلسا لوحدهما وبعيدا عن زميلهما سائق العربة ليتشاورا في الأمر، فقررا أن يخبرا السائق بأن يرجع الى إسبانيا حتى لا يكشف أمرهما أمام الآخرين وذلك بعد أن يكلفاه بالذهاب الى روما وشراء ملابس رجال دين كنسيين حتى يلبسها هاشم وموسى، فأبدى الرجل استغرابه وقالا له سوف نعطي الزي الكهنوتي لذلك الراهب المسكين الذي كان يسكن في الكنيسة المتهدمة، فاقتنع الرجل ثم ذهب الى روما وأحضر الزيين، ثم شكراه وقالا له الآن يمكنك الرجوع الى إسبانيا عن طريق البحر فهو أفضل لك وقد انتهت مهمتك هنا، فقال الرجل سوف أفعل.. ولكن ماذا عن ملابس ذلك الكاهن؟ كيف ستوصلاها له؟

فقال هاشم لقد فكرت في الأمر وعدلت عن رأيي، فهو رجل زاهد عابد وقد تغيّر تلك الملابس الجديدة والزاهية من سلوكه ونفسيته. ألم تسمعه حينما قال بأنه ابتعد عن روما حتى لا يكفر بالله!! ثم كيف سترجع لوحدك، عليك أن تذهب عبر هذا البحر ومع القوافل المتجهة الى إسبانيا، فاقتنع الرجل وقفل عائدا الى بلاده.

خلا الجو لهاشم وموسى وجلسا لوحدهما وهما يفكران بصمت، فهما لا يعلمان ماذا سيكون عليه الحال هناك، ولربما سيلقيان بأنفسهما الى التهلكة إن بدر منهما ما يشكك في صحة أقوالهما. وأثناء ما كان موسى يقلب تلك الملابس السوداء ويتأمل ذلك الصليب الذي كان مطرزا بخيوط حريرية على ذلك

الزي الكهنوتي، أدرك أن هذا الصليب هو «صليب روما» وهو مختلف اختلافا كليا عن «صليب أورشليم» والذي زُعم بأنه تم صلب المسيح عليه.

كانت أشكال الصليب في المسيحية مختلفة عن بعض-ها البعض اختلافا كليا، حالها في ذلك حال الأناجيل التي وجد فيها الكثير من الاختلاف والتشتت والتحريف. فصاح موسى قائلا خطأ.. خطأ كبير يا هاشم، فانتبه هاشم بعدما كان مستلقيا على ظهره فقال لموسى.. ما الخطأ؟ فقال موسى هذا ليس صليب أورشليم سوف يكتشفون أمرنا بسرعة، فصليب أورشليم ذو أضلاع متساوية وتنحني أطرافه على شكل مرساة السفينة، بينما صليب روما هو الصليب الاغريقي متساوي الأطراف وهما مختلفان كليًّا عن بعضهما البعض.

تلاقت نظرات هاشم وموسى وبدا الخوف في عيونهما فقال هاشم.. كاد أن يُكتشف أمرنا لولا أنك انتبهت لذلك، ولكن كيف عرفت ذلك يا موسى وانت لم تذهب الى أورشليم؟! فقال له كان جدي يبحث عن أصل الرموز في الديانة المسيحية واليهودية فتوصل الى أشكالها وأصولها. وتوصل كذلك إلى أن الصليب في الديانة المسيحية كان مستعملا قبل ولادة يسوع المسيح بعدة قرون!!

يرجع تاريخ الصليب الى عهد قديم جدا من عهود حضارة الانسان الوثنية، فقد كان الكلدانيون الوثنيون في بابل يرسمون اشارة الصليب على جباههم عند الاحتفال ببعض أسرارهم المقدسة تكريما للاله الكلداني «تموز». ثم هل تعلم يا عزيزي هاشم أن يسوع المسيح لم يمت على الصليب إنما مات على خشبة حسب ما ذكرته الأناجيل المسيحية!! ولم يذكر في أي منها أنه مات على صليب مكون من قطعتين من الخشب!!

فقال هاشم إذا لماذا انتشر الصليب في الكنائس؟ فقال موسى إنه عند حلول منتصف القرن الثالث للميلاد هجر رجال الدين الكنسيين بعض تعاليم الايمان المسيحي وشوهوا بعضها، الأمر الذي جعل الناس ينفرون منهم، فعمد رجال الدين هناك الى قبول الوثنيين في الكنائس دون تجديد ايمانهم، وسمح لهم بالمحافظة على رموزهم الدي-نية وذلك لزيادة هيبة النظام الك-نسي المسيطر آنذاك، وق-د ق-دم الص-ليب مع أولئك الوثن-يين وظل مس-تخدما حتى يومنا هذا، فهؤلاء لا يمجدون المسيح وإنما يمجدون الإله «تموز» ويقبّلون الصليب الذي قتل عليه يسوع المسيح، ألم يكن الأجدر لهم أن يتشائمون منه وينفرون من كل صليب يرونه أمامهم لأنه يذكرهم بقتل المسيح. فابتسم هاشم في وجه موسى وهز رأسه، ثم قال في نفسه إن من حاول قتل المسيح هم أجدادك يا موسى.. فأجدادك هم الذين عذبوه وهم الذين اتهموه بأنه ابن زنا وأن أمه حملت به خلال حيضها وأنه مشعوذ ومضلل وأحمق، ولكن هيهات هيهات.. لقد شبه لهم ولم يقتلوه. بل رفعه الله.. رفعه الله.

لقد كان موسى يتحدث مع هاشم الذي كان يتأمل ويسرح بفكره حول جريمة محاولة قتل عيسى عليه السلام، وهاشم لا يسمعه، حتى انتبه هاشم لنظرات موسى الغريبة في عيونه، وقال لموسى ماذا قلت؟ لم أسمعك؟ فقال موسى يبدو أنك اشتقت لأهلك.. فابتسم هاشم وقال ليس قبل أن أنهي ما جئت من أجله.

ثم قال موسى كيف سنفعل الآن حيال هذه الملابس الكهنوتية والتي خيط عليها صليب روما؟ كيف سنلبسها ونقول للبابا بأننا جئنا من أورشليم!! فقام هاشم ليبحث عن شيء حوله ليزيل تلك الخيوط من ذلك اللباس ويبدله بصليب أورشليم، فوجد على مقربة من المكان الذي كانا يجلسان به بعضا من قطع صوف الأغنام الصغيرة الذي كان يتطاير هنا وهناك وتحمله الريح من مراعي الأغنام حول مدينة روما، فجمع هاشم بعضا منها، كما وجد بعضا من عظام الحيوانات فأخذ إحداها وقام يصنع إبرة من تلك العظام بواسطة حك العظام بخنجر كان مع هاشم.، ثم وضع الصوف الذي غزله بداخل تلك الإبرة وقام يخيط صليب أورشليم على ذلك اللباس بعد أن أزال القديم عنه، وهو يتأمل في صليب أورشليم

الذي رسمه له موسى على الرمال.

وعندما انتصف الليل كان موسى يغط في سبات عميق في حين كان هاشم لا يزال يعمل على خياطة الصليب الذي سلب النوم عنه في تلك الليلة. لقد كان نسيم الهواء يجفف عرق هاشم الذي على جبينه ويمسح عنه التعب وينسيه المعاناة مع كل نسمة هواء عليل، مع أنه كان طوال تلك الليلة يفكر بما مر عليه ويفكر فيما سوف يلقاه، ولكن اصراره جعله لا يعرف الكلل أو الملل، فهمم الرجال تزيل الجبال.

وفي وقت السحر نام هاشم ممسكاً بالإبرة في يده وهو لا يعلم أنه انتهى من الخياطة، ومع بزوغ شمس الصباح قام موسى من نومه متثاقلا وشاهد هاشم وهو نائم، فذهل موسى من مهارته في إجادته لخياطة ذلك الصليب مع قلة الأدوات اللازمة ولكنه أنجز العمل على اكمل وجه. كان موسى يتأمل ذلك الصليب ويبتسم بمكر وكأنه كان يضمر شيئا ما.

في قصر لاتران

وكز موسى صديقه هاشم وكزة خفيفة وقال له كفاك نوما فالشمس قد أشرقت يا بطرس!! فالتفت اليه هاشم وقال له.. بطرس؟! قال نعم سوف يكون اسمك بطرس من الآن أم نسيت اننا جئنا من كنيسة القيامة؟ سيكون اسمك من الآن بطرس السرياني وسيكون اسمي يوحنا سمعان. هاه.. هل أعجبك ذلك؟ فقال هاشم موافق ولكن ما هي رتبتنا الكنسية يا موسى.. أقصد يا يوحنا؟ فضحك الاثنان.

ثم قال موسى سوف تكون رتبتنا أساقفة يا بطرس هل فهمت؟ لبس الاثنان تلك الملابس السوداء وذهبا يمشيان نحو روما التي لم تكن تبعد عنهما سوى سويعات قليلة. وعندما وصلا، ظلا يمشيان بين أزقتها المرصوفة بالحجر وهما يتأملان جمال روما الأخاذ. لقد كانت روما آنذاك تعيش بدايات عصر النهضة، فكانت المباني ذات الطراز القوطي والرومانسيكي تبدو مزخرفة بأبهى الحلل وتنتشر فيها الأقواس البارزة والعقود المعمارية المضلعة، وكانت الكنائس جميلة جدا ومزخرفة بالنقوش والتماثيل ومزينة بنوافير الماء الجميلة، وخصوصا كنيسة القديسة مريم الكبرى والتي كانت تمثل البازيليك الكاثوليكي الروماني في روما، وكاتدرائية القديس بطرس والتي تعد من أكثر المواقع قداسة وتبجيلا في الكنيسة الكاثوليكية.

أما مدرج الكولوسيوم فقد كان شاهدا على حضارة روما وعراقتها في أوروبا، حيث كان يعتبر ذلك المبنى مدرجا يستخدم لقتال المصارعين في عصر الدولة الرومانية آنذاك. لقد كانت روما مدينة الجمال والقداسة الدينية لدى المسيحيين الكاثوليك حول العالم، ولكنها كانت أيضا مدينة المحافل الماسونية السرية!!

عاصر هاشم عند قدومه الى روما أشهر ثلاثة ماسونيين في روما وهم «مايكل آنجلو» و «ليوناردو دي فينشي» و «نيكولو مكيافيلي» في حين كان يرأس الكنيسة الكاثوليكية في روما والكنيسة اللاتينية الغربية في العالم البابا الفاسد أخلاقيا «الكسندر السادس» آنذاك. وعندما وصل هاشم وموسى الى قلب روما كانت كاتدرائية القديس بطرس القديمة تقبع هناك، فتقدما نحوها لعلهما يجدا من يدلهما على البابا الكسندر السادس. فوجدا هناك أحد شمامسة تلك الكاتدرائية وهو يبدو صغير السن وقد حلق وسط رأسه وترك الباقي دون حلق، وحاولا التحدث معه لكنه لم يفهم لغتهم العربية، لأن اللغة التي يتحدث بها رجال الدين هناك هي اللغة اللاتينية، وهي لغة الدراسة هناك أيضا.

أشار عليهما أن ينتظرا قليلا وغاب عنهما ثم عاد بعد برهة من الزمن ومعه أحد رجال الدين الذي تقدم نحوهما حيث كان يجيد التحدث باللغة العربية ورحب بهما، ثم أبدى اعتذاره عن عدم وجود أحدهم ليتحدث باللغة السريانية والتي يتحدث بها رجال الكنيسة الشرقية بسبب ذهاب المترجمين في رحلة رسمية الى إسبانيا لترجمة الكتب من العربية والسريانية الى اللاتينية بأمر من البابا. فتفاجأ هاشم وموسى ولم يكونا يعرفا بأن عليهما أن يتحدثا باللغة السريانية، فقال هاشم في نفسه كاد أن يكشف أمرنا لولا لطف الله.

ثم قال لهما ذلك الكاهن أنا أتحدث اللاتينية والعربية فقط، ثم أبدى استغرابه عن سبب قدومهما من أورشليم فهي بعيدة جدا والطريق مليئة بالمخاطر، فقال هاشم نود مقابلة قداسة البابا الكسندر السادس لنطلعه على رسالة سرية من قبل بطريرك أورشليم. فقال لهم أن قداسة البابا يسكن في القصر اللاتراني ولا بد أن أستأذن كرادلة المجمع اللاتراني لأخذ الإذن لكما بالدخول الى هناك، ولكن قد يكون الدخول على قداسته فيه شيء من الصعوبة، سأحاول على أية حال.

توجه الكاهن بعد ذلك الى المجمع اللاتراني لأخذ الإذن من قبل كرادلة المجمع اللاتراني لزيارة

البابا، فلما أطلعهم على الأمر لم يهتموا بالأمر كثيرا وخصوصا بعدما عرفوا بأن هؤلاء الكهنة المقدسيين هم اتباع الكنيسة الرومانية الشرقية، لأن كنيسة أورشليم كانت تتبع لكنيسة القسطنطينية وأتباعها من البطاركة الآرثودكس.

لقد ولّد الاختلاف والانقسام بين الكنيسة الرومانية الشرقية والكنيسة الرومانية الغربية إنشقاقا حادا في المسيحية كلها، فانقسمت إلى مئات الفرق واشتد الخلاف بينهما. لقد كان أساس ذلك الاختلاف أن كنيسة القسطنطينية تعتقد أن الروح القدس من الأب وحده، لا من الأب والابن، في حين كانت كنيسة روما تعتقد أن الروح القدس منبثق من الأب والابن معا. كما أن كلا الكنيستين تنازعتا حول مكان الرئاسة الكهنوتية فكل منهما يدّعي الأحقية في ذلك، وحتى لغة الدراسة ولغة رجال الدين كانت مختلفة لديهم أيضا، فقد كانت لغة البطاركة الشرقيين اللغة السريانية واليونانية اما لغة بابوات روما الغربيين فقد كانت اللغة اللاتينية، ناهيك عن الاختلاف المذهبي.

لقد ظن كرادلة المجمع اللاتراني بأن هؤلاء الكهنة المقدسيين قدموا من أجل تقريب وجهات النظر حول التقارب العقائدي بين عقائد الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، حالهم في ذلك حال الكثير من الوفود التي قدمت الى هنا لتناقش ذلك مع بابا روما، والتي كانت غالبا ما تفشل في التوصل الى تقارب ملموس، بل كان يصل الأمر في بعض الأحيان إلى تكفير الآخرين والبصق في وجوه بعضهم.

فلذلك لم يعبأ كرادلة المجمع اللاتراني بطلب هؤلاء الكهنة المقدسيين. وبعد إلحاح وإقناع شديدين من قبل هاشم طلب رئيس المجلس البابوي مقابلتهما لمعرفة مضمون الرسالة السرية التي يحملاها الى البابا. فقالا له لقد قدمنا الى هنا وتحملنا مشاق وعناء السفر لأجل أن نقابل قداسة البابا ونوصل له رسالة شفوية من قبل بطريرك أورشليم ولا نستطيع أن نخبر غير قداسته بمضمون الرسالة.

وبعد عدة أيام من انتظار الرد، جاء الرد بالموافقة على مقابلتهما بعد قداس يوم الأحد القادم أي بعد ثلاثة أيام، كما أمر البابا بأن يكونا في ضيافة المجمع اللاتراني الخاص بالوفود الرسمية. فرح الاثنان كثيرا واستبشرا بذلك وكان يرافقهما ذلك الكاهن الذي يتحدث العربية، طوال فترة تواجدهما هناك بأمر من البابا الكسندر السادس.

توجه هاشم الذي حمل إسم بطرس السرياني وموسى الذي حمل اسم يوحنا سمعان الى السكن المخصص لهما في المجمع اللاتراني ليستريحا من عناء ذلك اليوم، حيث سيصحبهما ذلك الكاهن في صباح الغد في جولة تعريفية لمرافق مدينة روما ومبانيها. وفي اليوم التالي أخذ الكاهن هاشم وموسى في رحلة جميلة لمباني روما ومرافقها الساحرة طافت بهما من عالم الحقيقة الى عالم الخيال، كانت نقطة البداية من كنيسة سيستين في روما والتي كانت حديثة حينذاك ولم يمض على تشييدها أكثر من عشرة سنوات، وكانت مليئة بالرسومات والزخارف الرائعة والمجسمات الجميلة.

التفت الكاهن نحوهما وقال لهما قد لا تعجبكما تلك المنحوتات والتماثيل المجسمة هناك، ولكن بالطبع هناك اللوحات الفنية الرائعة في أنحاء هذه الكنيسة سوف تعجبكما. كان ذلك الكاهن يظهر التودد لهما لأنه كان يعرف بأن اتباع الكنيسة الشرقية يحرمون التماثيل والمنحوتات المجسمة على خلاف أتباع الكنيسة الغربية والذين لا يرون بأسا بها لأنها تمثل الكمال الإلهي من خلال تصوير جمال الأجساد البشرية للأنبياء والقديسين حسب زعمهم، ثم أطلعهما على لوحات فنية مرسومة في الكنيسة كانت تعبّر عن قصة بعض أسفار العهد القديم، وكان أغلبها عبارة عن قصص وردت في الكتاب المقدس. لقد كانت الرسومات تبدو وكأنها تخرج من مكانها، فالألوان كانت براقة وجميلة والرسومات كانت في غاية الروعة والجمال. وأثناء ما كانوا يتجولون في أنحاء هذه الكنيسة الجميلة لاحظا وجود أحد الرسامين وهو يرسم لوحة فنية في جدران تلك الكنيسة.. لقد كان ذلك الرجل هو المبدع مايكل آنجلو، التفت الكاهن نحو رفيقيه وقال لهما هذا الرجل هو من أشهر الرسامين في الدولة البابوية.. إنه

بارع وجريء فهو يجسد الأنبياء والملائكة وحتى الله في رسوماته!!

لقد كان ذلك الرسام يبدو مكتئبا وهو يرسم، وتبدو على تجاعيد وجهه علامات القلق، كان يرسم بتركيز بحيث لم ينتبه لوجودنا ونحن بقربه، أو قد يكون أراد تجاهلنا لأنه منهمك في عمله. أشار إلينا الكاهن بالرجوع والابتعاد عنه فخرجنا من كنيسة سيستين ثم اتجهنا نحو كاتدرائية القديس بطرس أحد التلاميذ الاثني عشر ليسوع المسيح وأحد المقربين له، حيث كانت تقع تلك الكاتدرائية قرب القصر الرسولي اللاتراني، وهذه الكاتدرائية تحتل مكانة بارزة في العالم المسيحي.

كانت الكاتدرائية على شكل صليب إغريقي ضخم، وهي مكونة من خمسة أروقة وصحن واسع في المنتصف وعلى جانبيه ممرات تؤدي الى أفنية أخرى أصغر من الصحن الرئيسي، احتوت الكاتدرائية على إحدى وعشرين عمودا من الرخام الأبيض المُهدى من قبل الامبراطور قسطنطين، أما سقفها فقد كان مكسوا بالخشب المزين بالصور والأيقونات الفسيفسائية.

لقد شدت هذه الكاتدرائية أنظار هاشم وصديقه موسى نحوها بطريقة جعلتهما يتأملان تلك المنحوتات والزخارف والأحجار الملونة بدهشة وانبهار، توجها بعد ذلك نحو ضريح القديس بطرس وبدأ الكاهن بتلاوة الصلوات أمام الضريح واضطر الاثنان أن يفعلا كما فعل الكاهن، ثم توجها بعد ذلك الى سرداب الكاتدرائية حيث يتكون من باحة وردهات وأقبية جانبية لحفظ الشموع والنبيذ لاقامة القداس الالهي، وبعد ذلك توجها نحو المتحف البطرسي المتواجد بالقرب من السرداب الملحق بالكاتدرائية، فقد احتوى على مجموعة من الأعمال الفنية التي تعود لزمن الكنيسة القسطنطينية مثل تابوت جوليانوس وفسيفسائية خميلة الصياد ونصب برونزي لسيكستوس الرابع.

كانت الكاتدرائية تحتوي على الكثير من الأضرحة الأثرية والرسوم الجدارية الجصية، كان الكاهن يُعرّفهما على كل الموجودات وتواريخ الأعمال الفنية وهما يبديان تعجبهما من جمال ما يريان. وفي اليوم التالي حضر الكاهن إلى مقر إقامة هاشم وموسى واخذهما في جولة جديدة ليستكملا الجولة التعريفية معه، فكان أن أطلعهما على مباني روما القديمة مثل سوق تراجان والذي كان بالقرب من الكولوسيوم، حيث يعد هذا السوق أقدم مركز للتسوق في العالم، ثم تم تحويله الى مبنى دفاعي عسكري، ومبنى البانثيون ذلك المبنى الأثري الروماني حيث كان معبدا لجميع آلهة روما وأصبح الآن كنيسة.

انتهت الجولة التعريفية بمرافق ومباني روما الجميلة ولم يتبق غير سواد تلك الليلة، ليلة الأحد ليقابلا بابا روما. كان الإثنان مستلقيين على أسرتهما تلك الليلة وهما يتأملان ويفكران في يوم الغد حيث عم الصمت المكان. التفت هاشم نحو صديقه موسى وقال له.. موسى.. موسى.. فلم يجبه موسى، ثم التفت نحوه موسى وهو غاضب فقال له لقد قلت لك مسبقا أن اسمي يوحنا، إحذر يا عزيزي بطرس لئلا يسمعنا أحد فالجدران لها أذان، فقال له هاشم هل أنت واثق من خطتك؟ هل هناك مراسم أخرى لا نعرفها عندما نقابل البابا غدا؟ فقال له لا تخف أنا متأكد من نجاح الخطة يا بطرس.. إطمئن.. إطمئن، هيا نم الآن وسوف نرى في الصباح ماذا سيكون.

تمدد الاثنان على فراشيهما وغطيا رأسيهما بالاغطية وأدار كل منهما ظهر للآخر وناما نوما عميقا. وفي الصباح الباكر توجه الكهنة والقساوسة والشمامسة لاقامة قداس يوم الأحد، فكان أن ذهب الاثنان معهم للاشتراك في ذلك القداس حتى لا يثيرا الشبهات حولهما. وبعد الانتهاء من القداس توجه ذلك الكاهن الذي كان يرافقهما طوال تلك الأيام الثلاثة الماضية إليهما بعد أن شاهدهما ثم ابتسم في وجهيهما وقال لهما نستطيع الذهاب الآن للدخول على قداسة البابا.

بدأ قلب هاشم يخفق وبدت التساؤلات تروح وتجيء، فهو لا يزال يجهل الوضع هناك، ويخاف أن يرتكب خطأ يكشف حقيقة أمرهما. توجه الاثنان مع الكاهن نحو القصر الرسولي اللاتراني الفخم،

وهاشم يتساءل ويقول في نفسه وهو يشاهد جمال وفخامة البناء كيف يسمح البابا ببناء هذا الاسراف والبذخ هنا في مكان اقامته بينما هو زاهد وراهب ومبتعد عن الدنيا!!

لقد رسم هاشم صورة للبابا الكسندر السادس في قمة الزهد والتصوف والابتعاد عن الدنيا، لأنه كان قد قرأ عن رهبانية القساوسة في المسيحية الأمر الذي جعله يرسم تلك الصورة البيضاء الطاهرة حول شخصية البابا والتي تمثل القداسة الروحية لكل المسيحيين الكاثوليك حول العالم. ومما زاد استغراب هاشم هو أنه لاحظ مظاهر البذخ والترف والتكلف في البناء والمبالغة في تجميل المكان تزداد كلما اقتربوا من القاعة المخصصة لاستقبال الوفود والشخصيات الرسمية والتي يجلس فيها قداسة البابا!! الأمر الذي زاد من حيرة هاشم كثيرا.

وأثناء ما كانوا يمشون بين تلك الأروقة والممرات والغرف التي كانت مزينة بتماثيل الملائكة والقديسين وبأبهى رسومات وجداريات عصر النهضة الزيتية، إذ استوقفهم اثنان من مرتزقة الحرس السويسري من الذين كانوا يعملون في قصور ملوك اوروبا، وطلبوا منهم التوقف حتى يستأذنوا البابا بالسماح لهم بالدخول ومقابلته.

توقف الثلاثة وبدا هاشم مرتبكا بعض الشيء، ثم لاحظ هاشم أنهم يقفون أمام لوحة جدارية وقد رسم عليها البابا الكسندر السادس وهو يركع على يمين أرجل العرش الذي كانت تجلس عليه مريم الصديقة ووليدها يسوع وحولهما الملائكة. كانت جدارية جميلة جدا والألوان فيها تكاد تنطق من جمالها وروعتها. وأثناء ذلك عاد الحارسان وأمروهم بالدخول الى تلك القاعة.

قدم الكاهن هاشم الذي كان يبدو أطول من صديقه موسى وقال له تفضل يا نيافة الأسقف، فدخل الاثنان وهاشم في المقدمة وتراجع الكاهن عنهما وهو ينحني احتراما للبابا، تقدم الاثنان نحو البابا في تلك القاعة الضخمة حتى صارا في وسط القاعة وظلا يتأملان المكان وهما يحاولان إخفاء دهشتهما، والتي زادت عندما شاهدا البابا الكسندر السادس وحوله العشرات من الكرادلة الأسبان والحرس السويسري والنساء الجميلات.

لقد أثار ذلك المنظر الدهشة لدى هاشم وموسى أيضا، فكيف يفعل ذلك رأس الكنيسة الكاثوليكية وبابا روما والأب الروحي للمسيحيين الكاثوليك؟! فقال هاشم في نفسه متسائلا وهو يتأمل ذلك الجمع الذي كان يحتشد ويلتف حول البابا الذي كان يلبس الملابس المنسوجة بخيوط الذهب والفضة ويعتمر التاج الذهبي المرصع بالياقوت والزبرجد والأحجار الكريمة كيف يسمح البابا لنفسه أن يفعل ذلك؟!

أين الرهبانية والانقطاع الى الله؟! هل هذا هو الزهد؟! لقد كان المسيح ينام على الأرض ويلتحف السماء ويأكل من حشائش الأرض، ماذا سيفعل لو نزل المسيح ورأى مفاتيح ملكوت السماوات التي أعطاها لبطرس قد تسلمها الكسندر السادس!!

لم يحظى البابا الكسندر السادس "رودريغو بورجا" باهتمام المؤرخين الأوروبيين كثيرا كأحد البابوات الذين تركوا ايجابيات ملموسة يذكرها التاريخ، فقد وصفوا الأوضاع الاجتماعية أثناء حبريته بأنها كانت سيئة حيث تدفق على روما آنذاك المجرمين والعاهرات.

تقدم الاثنان نحو البابا وانحنيا له تقديرا واحتراما، فالتفت البابا نحو الكاردينال "أسكانيو سفورزا" غير آبه بهما فقال له هل يجيد هؤلاء العرب الاسبانية؟ وعلى الفور نطق هاشم وقال له نعم يا قداسة البابا نحن نتكلم الإسبانية.

لقد كان البابا الكسندر السادس يتحدث الاسبانية أكثر مما يجب مع الكرادلة وحاشيته الخاصة، وذلك لأنه في الأصل ينحدر من عائلة إسبانية، كما أنه رفع الى مقام الكردنالية تسعة عشر إسبانيا وأحاط نفسه بحاشية وخدم كتالونيين ولذلك لقبه الايطاليون بالبابا الهجين، كما عين حشدا كبيرا من الاسبان في مناصب الدولة، كان معظمهم من أقارب البابا الأسبان الذين هرعوا الى روما أثناء حبريته، وكانوا

يتكلمون الاسبانية في ايطاليا الأمر الذي أثار غضب واستياء الايطاليين من هذا السلوك.

فقال البابا فليعرفني كل منكما باسمه، ولتش‍رحا لي هدف زيارتكما باختصار، كان هاشم يتأمل وجه البابا فقد أثار في نفسه الخوف ولم يكن على وجهه علامات الحكمة والتروي، حيث كان ذا عيون دائرية كبيرة وجفون منتفخة وانف معقوف يشبه انوف اليهود، وكان حليق اللحية في حين كان القساوسة والرهبان يطلقون لحاهم.

فقال هاشم أنا الأسقف بطرس السرياني وقال موسى وأنا الأسقف يوحنا سمعان يا قداسة البابا. ثم سكتا قليلا فقال هاشم.. قداسة البابا لقد جئناك برسالة شفوية من قبل بطريرك أورشليم «غري‍غوريوس الثالث»، فقال البابا هيا أكمل، فقال هاشم لقد بعثنا قداسة البطريرك للمطالبة ببعض الوثائق المسروقة والتي كانت مخبئة في المدافن السردابية حول كنيسة القيامة حيث سرقها فرسان الهيكل إبان الحروب الصليبية على أورشليم ووصل الى علمنا بوجودها في مكتبة المجمع اللاتراني، فقاطعه البابا وقال له لعلك تقصد وثائق يوسيفوس المهرطق؟ فقال هاشم إنها وثائق تحتوي على بعض أقوال يسوع كتبها بولس الرسول يا قداسة البابا.

التفت البابا الى الكاردينال أسكانيو سفورزا وقال له هل توجد هذه الوثائق في مكتبتنا يا أسكانيو؟ فقال الكاردينال لم أسمع بها يا قداسة البابا، فقال البابا وكيف سمع بها من أتى من أورشليم وانت هنا ولا تعلم بها؟! فخاف الكاردينال من سطوة البابا وقال له بصوت متقطع ولكن يا قداسة البابا هناك الآلاف من الوثائق في المكتبة وقد تكون موجودة في أرشيف المكتبة السري.

فالتفت البابا نحو الضيفين وقال لهما ولكني لا أسمح بخروج أي وثيقة من المكتبة قبل أن أأذن لكما. لقد كان البابا قد أمر بإحراق جميع الكتب التي طبعت دون إذن مسبق منه لكي لا يطلع الآخرين على فضائح لا يريدها البابا أن تنتشر هنا وهناك. ثم صاح البابا بالجمع وقال كيف عرف هؤلاء بمحتويات المكتبة وهم في أقصى بقاع الأرض، ثم احمر وجهه وانتفخت أوداجه وقال أقسم أنني لو علمت أن أحدكم يسرب الأسرار المقدسة للكنيسة فإنني سوف أنتقم منه شر انتقام واجعله عبرة لمن يعتبر.

فلما أدرك سيزار بورجيو ابن البابا أن والده استشاط غضبا، أراد أن يهدأ من عصبيته، فصاح قائلا.. جيليا.. وبعد لحظات تقدمت فتاة صغيرة في السن موفورة الجمال وهي تحمل في يدها كأسا من الخمر وتوجهت نحو البابا الكسندر السادس، فلما اقتربت منه وقفت أمامه مباشرة ونكس الحاضرون رؤوسهم، فلم يفهم هاشم لماذا نكس الحاضرين رؤوسهم ففعل مثل ما فعلوا خوفا من سطوة البابا. ظل الآخرون منكسين رؤوسهم والصمت يخيم عليهم وبدا المكان هادئا جدا سوى صوت عشيقة البابا "جيليا" والتي كانت تتودد الى البابا وتتحدث معه بصوت منخفض تتخلله ضحكات شبقة . لم يستطع هاشم أن يرفع رأسه ليرى ما حدث ، وبعد دقائق نطق البابا وقال حسنا سوف نرى ماذا سنفعل، عندها رفع الكل رؤوسهم عندما نطق البابا، التفت البابا نحو الكاردينال سفورزا وقال له نسق معهما في صباح الغد ليحصلا على ما يريدان.

لقد كان الدخول الى مكتبة المجمع اللاتراني صعبا جدا وكانت تمنع على العامة لاحتواء المكتبة على أسرار قد تسيء الى المقام الكنسي إن كشفت للعامة!! ولكن البابا قرر السماح لهما بالدخول لكي يعرف أهمية هذه المخطوطات التي قدما من أجلها من أقصى بقاع الأرض، ثم التفت البابا نحوهما وقال لهما بإمكانكما الذهاب الآن والتنسيق مع الكاردينال أسكانيو للحصول على ما تريدون في صباح الغد.

خرج الاثنان وجباههما ترشح بالعرق من الخوف خشية اكتشاف امرهما، فلما خرجا التفت البابا نحو الكاردينال سفورزا وقال له: بعد أن يدخلا الى المكتبة يجب أن تراقبهما جيدا، فقال الكاردينال سمعا وطاعة يا قداسة البابا.

رجع الاثنان الى المكان المخصص لاقامتهما وجلسا هناك وعلامات الخوف لا تزال على محياهما. وبعد فترة قصيرة طرق أحدهم باب الغرفة، وإذا به ذلك الكاهن الذي كان يرافقهما منذ قدومهما الى روما. فسمحا له بالدخول، دخل الكاهن على استحياء بعدما شاهد كل ما جرى هناك في تلك القاعة، فقال لهما إنني اعتذر عن الذي صدر من أفعال البابا في هذا اليوم، وأنا أعلم أنكما مستاءان من تصرفاته الطائشة.

فنكس هاشم رأسه وسكت، وقال موسى للكاهن لا تقلق يا أخي إن وارث كرسي بطرس ومجده مغفور له خطاياه. فقال الكاهن صحيح ما تقول ولكن أن يصل إلى الحد الذي يهين به مقدسات الكنيسة فهذا ما لا نرتضيه يا نيافة الأسقف. ثم بدا الكاهن غاضبا واحمر وجهه وقال إن ما يفعله ذلك البابا الهجين هو إساءة لمقام البابوية.

فقال له موسى وماذا تقصد بالبابا الهجين؟ فقال له الكاهن إن البابا الكسندر السادس ينحدر من عائلة يهودية اسبانية ويقولون أن هذه العائلة قد اعتنقت المسيحية فيما بعد، وانا لا أصدق ذلك، فمن يقدس المسيحية لا يجعلها هدفا لأهوائه ورغباته الشخصية. فقال له موسى ماذا تقصد يا أخي؟ هل تقصد أن قداسة البابا لا يزال يعتنق الديانة اليهودية؟ فقال له الكاهن بصوت منزعج وهل رأيت أو سمعت أن يهوديا غير ديانته؟! هنا تلاقت نظرات هاشم وموسى حيث امتعض موسى من كلام الكاهن الذي كان يمسك برأسه من الانزعاج والحسرة.

ثم انتبه وقال.. ماذا قلت انا؟ يا الهي.. يبدو انني بدأت أهذي من الصداع ولا أعرف ما أقول، سوف أذهب الآن وآتي لكما في صباح الغد لآخذكما الى الكاردينال سفورزا الذي سوف يقوم بالتنسيق معكما للحصول على ما تريدانه.

خرج الكاهن وهو يبدو نادما على ما بدر منه، لأن ميليشيات المسيح التي أسسها البابا كانت تتجسس وتراقب الوضع في روما وبالخصوص في المجمع اللاتراني. وفي صباح اليوم التالي جاء الكاهن ليأخذهما الى مكتبة المجمع اللاتراني حيث كان الاثنان مستعدين لذلك ومبدين تحمسهما للذهاب الى هناك. لقد كان هاشم يمني نفسه طوال تلك الرحلة المتعبة والمؤلمة الى الوصول الى الحقيقة. الحقيقة المغيّبة حول جزيرة اطلانتس والجنة الفردوسية التي طالما قد حلم بالكشف عنها ليهتك أسرار غيبها ويعيش متعة وجودها.

أما موسى فكان يمني نفسه بالحصول على أسرار الكابالا ليكشف الغيب في طلاسم السحر وللحصول على الجنة المسحورة.. لقد كان كلاهما يبحثان عن الجنة حسب طريقة كل منهما غير أن الطريقة مختلفة هنا، لكن الطريق الى الجنة لا بد أن يكون محفوفا بالمكاره والمخاطر. ذهب الاثنان مع ذلك الكاهن الى مكتبة قصر لاتران ودخل معهما الى مكتب الكاردينال أسكانيو سفورزا والذي كان المؤرشف الفخري للمكتبة بالاضافة الى منصبه كنائب لرئيس الكنيسة.

قابل الثلاثة الكاردينال وقال للكاهن بإمكانك الذهاب وسوف أتولى أنا مهمة تسهيل دخول السيدين الى المكتبة، وبقي الاثنان مع الكاردينال أسكانيو فالتفت اليهما بنظرة شك وريبة وقال لهما بلهجة إسبانية أن الدخول الى مكتبة المجمع اللاتراني ليس بالأمر الهين فهناك الكثير من الأسرار لا نريدها أن تخرج من حيز المكتبة، ولولا أن قداسة البابا قد سمح لكما بالدخول لكان دخولكما الى هنا مستحيلا.

ثم صمت قليلا وأطرق رأسه ثم قال لهما هناك شيء آخر أريد أن أخبركما به وأحذركما منه.. وهو أن من يدخل الى الارشيف السري لمكتبة المجمع اللاتراني فهو إما.. أن يكفر بالرب.. أو يفقد عقله، كما حصل للكاردينال آنجلو فرانشيسكيو رئيس أساقفة ميلانو، فقال هاشم وماذا حصل له؟ فقال له لقد خرج من المكتبة وهو يهذي ويقول: كلمة الانس ان أم كلمة الرب.. لقد قتلني برنابا وهرمس!!

إلتقت عينا هاشم وصديقه موسى وحاولا إظهار الخوف. ثم قال موسى ربما كان الكاردينال

فرانشيسكو يعيش حالة الشك في عقيدته بالمسيح، أما نحن فقد جئنا من أقصى بقاع الأرض لنبحث عن وثائق تعمق الإيمان في قلوب المسيحيين. إطمئن الكاردينال أسكانيو وقال لهما هذا ما أرجوه، ولكن لا تستنسخا شيئا حتى تطلعاني عليه أولا، فالمكتبة لا تخلو من كتب المهرطقين والوثنيين والملاحدة.

أعطى الكاردينال أسكانيو الأمر للحرس بدخول الاثنين الى المكتبة بشكل يومي حتى يجدان ما يبحثا عنه، كما أمر مجموعة من الحرس وبعض أفراد ميليشيات المسيح بالتجسس عليهما دون أن يشعرا بذلك. وصل الاثنان الى بوابة المكتبة والتي فتحت بواباتها بمجرد وصولهما هناك ووقوفهما أمام تلك البوابة الضخمة، فقد كان الكل على علم بأمرهما.

دخلا الى هناك فوجدا مجموعة صغيرة من الرفوف وقد وضعت فوقها مجموعة من البرديات والكتب القديمة والتحف النادرة، فأحسا بخيبة الأمل، فقد كانت المكتبة تحتوي على مجموعة صغيرة من الكتب القديمة مكتوبة باللغة اللاتينية!! أحس هاشم بخيبة الامل وبات حلمه الذي كان ينام ويصحو على أمل الوصول اليه مستحيلا، فقد سمع عن تلك المكتبة غير ذلك، أما موسى فلم يكن وضعه أفضل من صاحبه، الأمر الذي جعل الاثنان يصابان بخيبة الامل فقد بان ذلك على وجهيهما.

وأثناء ذلك تقدم نحوهما أحد مسئولي المكتبة وهو يرتدي زيا كهنوتيا ثم رحب بهما وطلب منهما أن يذهبا معه الى المكتبة، فقالا له أليست هذه هي المكتبة؟ فإبتسم الرجل وقال المكتبة هناك وهذه بداية الطريق نحو المكتبة. فإنفرجت أساريرهما وأحسا براحة وذهبا معه يسرعان الخطى وهما يسيران خلفه. دخل الإثنان مع ذلك المسئول في دهاليز وسراديب سرية تحت الأرض مزينة بأبهى النقوش والتماثيل المذهبة واللوح الزيتية والسجاد الفارسي الوثير والشموع الجميله وظلوا يسيرون وينتقلون من فراغ الى آخر ومن سرداب الى آخر تحت حراسة مشددة حتى وصلوا الى أحد السراديب الكبيرة والذي كان يمثل المكتبة الرئيسية للمجمع اللاتراني.

ذهل الاثنان لرؤية تلك المكتبة الضخمة والمليئة بالكتب وعند ذلك قام الشخص المسئول بتوضيح أماكن الكتب اللاهوتية والعلمية وكتب الشرق والغرب وطرق التصنيف ثم قال لهما إذا لم تجدا مبتغاكم هنا فسأضطر الى اطلاعكما على الارشيف السري لمكتبة المجمع اللاتراني، وقد يتطلب ذلك إذنا من الكاردينال سفورزا. ثم قال لهما ربما تحتاجان عدة أيام للقيام بعملية البحث هنا، وبعد أن اطلعهما على المكتبة إستأذنهما وقال لهما سوف أترككما الآن وأذهب وسأنتظركما كل صباح في مكاتب إدارة المكتبة لأدخلكما الى هنا.

ذهب الرجل وترك الاثنان وقد تسمرت أرجلهما وهما يتأملان في تلك المكتبة الضخمة المليئة بالكتب. كانت الكتب الموجودة هناك في معظمها غنائم حرب وتحتوي على كتب التوراة والاناجيل وعلم اللاهوت والقانون الكنسي وكتب التاريخ والفلسفة وأعمال اليونانيين واللاتينيين الفلسفية ونصوص البابوات الذين اعتلوا الكرسي الرسولي، وكتابات غاليليو وإبداعات أرسطو ومحاورات أفلاطون ومخطوطات حول حياة أباطرة الرومان، والنصوص اللاهوتية البيزنطية ومخطوطات علماء وفلاسفة المسلمين امثال إبن سينا والرازي والغزالي وابن رشد والفارابي، والكثير من المخطوطات السريانية والعربية والعبرية والفارسية والأثيوبية واللاتينية التي تعود الى قرون مبكرة بعد الميلاد.

لقد كانت مكتبة المجمع اللاتراني تعتبر ملكية خاصة للبابا بكل ما تحتويه من مخطوطات وكتب وخرائط وكنوز معرفية أخرى. تقدم هاشم نحو أحد الرفوف التي أمامه ولاحظ صندوقا زجاجيا وضع بداخله إنجيل سرياني وقد كتب تحته إنجيل سرياني وجد في الموصل في بدايات القرن الثالث عشر وتمنع قراءته!! كانت بجانبه نسخة أخرى من الانجيل وهي أقدم منه بكثير كتب تحتها «مخطوطات سيناء» كما دون تحتها عبارة يمنع قراءتها بسبب عدم مطابقتها لنصوص الانجيل المعتمدة حاليا في

الكنائس!!

لقد أثارت عبارة منع القراءة هاشم في أن يطلع على محتويات تلك المخطوطات في الأيام القادمة. فإبن آدم حريص على ما منع. وأثناء ذلك التفت هاشم نحو صديقه موسى ليهمس في أذنه كلمة لكنه تفاجأ بعدم وجوده وكأنه اختفى، فقام يبحث عنه لعله يجده ولكن دون جدوى. فأحس هاشم بالقلق وجعل يبحث عن صديقه بين رفوف المكتبة وإذا به يجده واقفا أمام رف الكتب اليهودية ويتصفح بعضها!!

فقال هاشم في نفسه نعم مثلما توقعت إنه يبحث عن كتب يهودية، كنت أعلم ذلك. فأتاه هاشم وقال له أين كنت يا يوحنا؟ لقد كنت أبحث عنك. فقال له اعذرني يا صديقي فالمكتبة فيها الكثير من الكتب القيمة.. إتركني هنا قليلا وسوف أعود لك فيما بعد. فقال هاشم حسنا سوف أبدأ البحث بنفسي عن محاورات أفلاطون، بدءاً من أول رف حيثما كان يقف عند رف الأناجيل ومخطوطات سيناء.

فقال مخاطبا نفسه لماذا منعت هذه الاناجيل من القراءة؟! مع أنها كتبت في عصور مبكرة من فجر المسيحية!! وجد هاشم ملخصا مع كل انجيل كان مرفقا مع مخطوطات سيناء فقرأه، وإذا به يذكر سبب منع القراءة وذلك لأن هناك نصين في تلك الأناجيل غير واردين في نصوص العهد الجديد وهما رسالة الراعي هرمس ورسالة برنابا، والذي يظهر الاختلاف من خلال الادعاء بأن قتلة المسيح هم اليهود وليس الرومان.

كما تظهر هذه المخطوطات مئات الاختلافات مع الكتاب المقدس الحالي، مع أن هذه المخطوطات تعد أقدم كتاب مقدس موجود يحتوي على أسفار غير موجودة في الكتاب المقدس لدى المسيحيين اليوم.

فقال هاشم مخاطبا نفسه الآن عرفت السبب الذي جعل الكاردينال آنجلو فرانشيسكو يفقد عقله ويقول: كلمة الإنسان أم كلمة الرب؟! لقد قتلني برنابا وهرمس. ثم قال هاشم وهو يحدث نفسه لو خرجت هذه الحقائق المغيبة للناس لهدم المسيحيون هذا المجمع اللاتراني فوق رأس البابا القابع فيه ولكنها السياسة وحب السلطة، اللذان يلعبان بعواطف الناس والمستضعفين بإسم الدين والورع عن محارم الله في حين يعيش البابوات في قصور أشبه بجنان على وجه الأرض!!

عند ذلك رأى هاشم أن يرجع فيما بعد ليقرأ ماذا كتب في إنجيل برنابا والراعي هرمس ليرى ما ذكر به ولم يذكر بالعهد الجديد. لقد كان الفضول لدى هاشم يحثه دائما للبحث عن المجهول وما خفي عنه، ولولا ذلك الفضول لما قدم من بلاد المغرب العربي لأجل ذلك، فهو يعيش لذة البحث عن الحقيقة واكتشاف المجهول في كل لحظة من لحظات حياته.

استمر هاشم في البحث بين طيات الكتب المرصوصة فوق الرفوف لعله يجد أي مخطوطات للبابا سلفيستر الثاني تتحدث عن تلك الجنة الفردوسية أو محاورات جديدة لأفلاطون تتحدث عن حقيقة أطلانتس، حيث ظل هاشم يتذكر مقولة أفلاطون والتي تنص على أن سكان أطلانتس ليسوا بشرا مثلنا بل إنهم قادمون من أبعاد أخرى، وتذكّر هاشم أيضا العبارة التي كانت موجودة في المخطوطة القديمة والتي تنص على أن الجزيرة سوف تظهر مجددا على أيدي الفلاسفة.

كانت عيناه تقرأن عناوين الكتب وعقله يفكر في سبر أغوار جنة أطلانتس التي عشقها هاشم وعشق كل شيء يتكلم عنها، كان ينام ويصحو على أمل اكتشاف تلك الجنة. كان يفكر بها في يقظته ونومه واكله وشربه وأينما ذهب. استمر في البحث وهو يطالع الكتب الموجودة هناك حتى انقضى ذلك اليوم ولم يجد هاشم أي معلومة حول مخطوطات البابا سلفيستر الثاني التي اختفت من مكتبة الاسرار القديمة في دار الحكمة بالقيروان، فلما أحس بانقضاء الوقت قرر أن يرجع ويقرأ ما ذكر في إنجيل برنابا والراعي هرمس ولم يذكر في العهد الجديد من الكتاب المقدس، فذهب الى هناك وامسك بنسخة

مخطوطات سيناء التي تعد أقدم كتاب مقدس موجود يحتوي على أسفار غير موجودة في الكتاب المقدس، ثم اطلع عليها بصورة سريعة فلاحظ في هذه المخطوطات أنه ذكر أن المسيح عليه السلام لم يصلب ولم يقتل وإنما حمل الى السماء الثالثة، وأن الذي صُلب وقتل إنما هو الخائن يهوذا حيث ألقى الله عليه شبه صورة المسيح عليه السلام. دُهش هاشم مما قرأ وتحمس للقراءة أكثر فأمسك بذلك الكتاب المقدس وجعل يتصفحه على مهل، ثم كانت المفاجأة الكبرى وهو أن مسيا المنتظر قدومه للعالم والمذكور في الكتاب المقدس هو سيد الأنبياء والمرسلين ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حيث ذكر اسمه صريحا ومتكررا في عدة مواضع.

رفع هاشم رأسه وقال لأجل ذلك منعت هذه المخطوطات من القراءة، سوف أرجعها قبل أن يراني أحدهم. كان الإثنان مراقبين من قبل ميليشيات المسيح وهما لا يعلمان بذلك، وكانت تكتب عنهما تقارير سرية وترفع الى الكاردينال سفورزا للإطلاع عليها في حين أنهما لم يعلما بذلك. كان موسى يبحث في رف الكتب اليهودية بجنون ويقلب طيات الكتب الضخمة صفحة صفحة.

استمر الاثنان في البحث في تلك المكتبة عدة أيام دون أن يجد احدهما ضالته. وفي يوم من الأيام وأثناء ما كانا كعادتهما يبحثان في الكتب صاح موسى قائلا وجدته وجدته. فإلتفت هاشم نحوه وذهب اليه وقال له ماذا وجدت يا يوحنا؟ فقال له لقد كنت أبحث عن كتاب ما ووجدته الآن. فقال له هاشم ولكنك لم تخبرني سابقا بأنك تبحث عن كتاب.

فقال له لا تقلق يا عزيزي من اليوم سوف أساعدك في البحث عن الوثائق التي تريدها.. لا تقلق. كان موسى يستنسخ ما يجده في كتاب الكابالا والرموز السرية والذي وجده في رف الكتب اليهودية ويخبئ ما استنسخه داخل جلبابه خوفا من أن يراه أحد.

وفي نهاية ذلك اليوم دخل الاثنان الى المكان المخصص لاقامتهما واستراحا من أعباء البحث وأثناء ذلك استخرج موسى مخطوطة كان قد خبئها داخل جلبابه وجعل ينظر اليها، فنظر اليه هاشم وقال له ماذا وجدت اليوم يا يوحنا؟ فرد عليه موسى وهو ينظر الى المخطوطة ولم يرفع بصره عنها قائلا له سوف تجد مبتغاك قريبا يا بطرس.. أنا متأكد فجعل هاشم يتقرب منه حتى جلس بجانبه وشاهد ما استنسخه موسى وإذا بها كتابات عبرية وأوفاق وأشكال غريبة.

كانت تلك مخطوطة مهمة جدا بالنسبة إلى موسى قد استنسخها من كتاب الكابالا الذي وجد بعض أجزائه في المكتبة هذا اليوم. فهم هاشم أن صديقه موسى كان يبحث عن تعويذات سحرية من بعض كتب اليهود لأسباب يجهلها هاشم. فقال له هاشم هل هذه تعويذات سحرية؟ فالتفت نحوه موسى وقال له وما الضير في ذلك؟ إنها تجلب السعادة التي تبحث عنها وتحقق الثروة وبها تتزوج أجمل النساء، وليس ذلك فقط، بل سوف أدلك على مكان وثائق أفلاطون والبابا سلفستر الثاني التي تريدها من خلال هذه التعويذات السحرية!!

فرح هاشم وقال له هل تمزح؟ فقال لا يا عزيزي انا لا أمزح وغدا سوف ترى ويتبين لك صدق ما أقول.. ولكن قبل ذلك علينا أن ندخل الى الأرشيف السري ونبحث بداخله عن وثائق أخرى مفيدة وبعد ذلك سوف أخبرك بالطريقة التي من خلالها سوف أرشدك الى مكان تلك الوثائق التي تريدها.

كان موسى يطمح بأن يجد كتباً أخرى ومعلومات تشابه ما وجده في كتاب الكابالا. اتفق الاثنان على أن يذهبا في الصباح الى الكاردينال سفورزا ويطلبا منه الدخول الى الأرشيف السري للمكتبة بحجة أنهما لم يجدا شيئا حتى الآن. وفي الصباح ذهبا الى الكاردينال وطلبا ذلك الأمر، وبالفعل تحقق لهما ما أرادا دون أن يناقشهما الكاردينال سفورزا وكأنه كان يعرف ما يفكران به!!

دخل الإثنان الأرشيف السري للمكتبة بمساعدة الحرس السويسري وبأمر من الكاردينال أسكانيو، وتوجها نحو تلك الرفوف الكبيرة المليئة بالكتب القديمة والتي كساها الغبار والرطوبة، فقال هاشم

لصديقه موسى ما هذه الرائحة الغريبة يا يوحنا؟ فقال له أفضل لك أن لا تسأل عن ذلك فأنا أعرف الجواب!! فألح عليه هاشم بأن يخبره بأمر تلك الرائحة الغريبة.

فقال له إن هذه الرائحة التي تشمها هنا هي رائحة جلود البشر تغلف بعض الكتب!! فارتعد هاشم وتسمر في مكانه، فاستطرد موسى قائلا، لقد سمعت أن كتب السحر لا تغلف الا بجلود البشر وقد يوجد بعض منها هنا أيضا. كان الأرشيف السري لمكتبة المجمع اللاتراني يحتوي على الكثير من المكتبات السرية، وفضائح البابوات، واعترافات المذنبين من رجال الكنيسة وغيرها كثير.

تفرق الإثنان في الارشيف السري وقام كل منهما بالبحث عن ضالته، قام هاشم كعادته بجولة سريعة على الأرشيف السري للمكتبة ولفت نظره أحد الكتب هناك فأخذه ونفض الغبار عنه وفتحه ليتعرف على محتوياته بدافع الفضول وحب اكتشاف المجهول وكان معنونا باسم سياسة السلطة الكنسية.

وجد عدة مخطوطات لبابوات سابقين اعتلوا الكرسي الرسولي، فقرأ هاشم مخطوطة للبابا بوني فاس الثامن يقول فيها «إن السيفين أصبحا في يد الكنيسة، الديني والمدني، الديني تقوده الكنيسة بأيدي رجال الأكليروس، والمدني تمارسه الكنيسة بأيدي جيشها، والسلطة الدينية من حقها اقامة وارشاد السلطة المدنية، وأن تحكم عليها وتدينها حينما تحيد عن الصواب، وبالتالي فإن أي إنسان يعترض على سيفي الكنيسة فهو يعترض على قانون الله «!!

إبتسم هاشم وقال في نفسه وحتى الكسندر السادس.. فمن يعترض عليه فإنه يعترض على الله!! ثم قام يقلب صفحات ذلك الكتاب وإذا به يجد مخطوطة أشنع من تلك الأولى تعود للبابا ليون العاشر إذ يقول البابا فيها «كم نعلم تماما ما أضفته علينا من مكاسب تلك القصة الخرافية ليسوع»!!

وفجأة أغلق هاشم الكتاب بسرعة وقد تطاير الغبار منه فقال يفترض بي أن أبحث عما كنت أنوي البحث عنه وليس أن أقرأ عن سياسة الكنيسة في روما. فأرجع الكتاب الى مكانه وبدأ يقرأ عناوين الكتب والبحث عن ضالته فانتصف النهار ولم يجد هاشم شيئا فذهب الى صديقه موسى ليراه ماذا يفعل، فوجده جالسا على الأرض ويقوم باستنساخ صفحات من كتاب جلدي كبير.

كان موسى يستنسخ ما به بشغف واهتمام مفرط، فقال له هاشم هل وجدت شيئا جديدا؟ فقال موسى نعم يا عزيزي وجدت الكثير.. الكثير، فالتفت نحوه وقال له هذه الليلة سوف أخبرك أين تجد ضالتك!! لقد وجد موسى كتاب «العزيف» لمؤلفه عبدالله الحظرد اليماني والملقب بالعربي المجنون، كان ذلك الكتاب مجلدا بجلد الأموات من البشر ويتكلم عن تاريخ الكيانات القديمة وطرق استحضار الموتى، ويعني اسم العزيف صوت الشياطين والجن، ولا يوجد الا نسخة واحدة منه هنا حيث سلمت من الحرق، وهي موجودة في الارشيف السري لمكتبة المجمع اللاتراني حتى الآن.

كان ذلك الكتاب يمثل كنزا عظيما بالنسبة الى موسى لأنه لم يتوقع أن يجد مثل هذا الكتاب هنا، فهو لم يسمع به من قبل، ولكنه أعجب بمحتوياته، ففيه الكثير من طرق استحضار الأرواح للجن والانس الذين ماتوا قبل مئات السنين. لم يهتم هاشم بهذه الكتب التي كانت تثير اهتمام صديقه موسى واستمر بالبحث بكل عزيمة عن الوثائق التي يبحث عنها.

وفي نهاية اليوم كان موسى قد استنسخ الكثير من طرق استحضار الموتى في جلديات كان يخبئها في جلبابه، ثم ذهب الى هاشم وقال له لا تتعب نفسك في البحث الآن، دعنا نذهب إلى مكان اقامتنا ونستريح من عناء هذا اليوم، وسوف أخبرك بأمر يسهّل عليك عناء هذا البحث وتعرف كل ما تريد بيسر وسهولة، فقد وجدت طرقا لاستخراج المعلومات من تلك الكتب التي استنسختها، فقال له هاشم أنا لا أصدق تلك الشعوذات الخرافية، فابتسم موسى وقال له سوف ترى الليلة بأم عينك يا عزيزي، هيا نذهب الآن.

قفل الاثنان راجعين الى مقر اقامت.هما بعد عناء هذا اليوم من البحث المضني، كان موسى فرحا بما وجده، وعلى العكس من ذلك كان هاشم مصاباً بخيبة الأمل لأنه حتى الآن لم يجد أي مخطوطة حول جزيرة أطلانتس. وكاد أن يفقد الأمل لولا بصيص من أمل بسيط في نفسه يقول له سوف تكتشف السر. وبمجرد خروجهما من المكتبة أحس موسى بأنهما كانا مراقبان فخاف وقال لهاشم يبدو أننا مراقبان.. تظاهر بأننا نصلي أمام أيقونة العذراء الموجودة هناك أمامنا حتى لا نثير الشبهات.

وصل الاثنان الى مقر اقامتهما فأغلق موسى الباب جيدا وجعل يراقب الوضع من خلال الشباك، ثم أغلق الشباك واستخرج الجلديات التي استنسخها، وقال لهاشم إذا أردت أن أخبرك بمكان الوثائق التي تريدها ومحتوياتها فسوف أخبرك بفضل المعلومات التي حصلت عليها اليوم، ففرح هاشم وقال هل أنت متأكد مما تقوله؟ فقال نعم بكل تأكيد، وليس ذلك فقط فلو أردت أن أستحضر لك روح أفلاطون والبابا سلفستر الثاني لفعلت ذلك!!

ذهل هاشم مما سمعه وقال لصديقه هل تعني ما تقول؟ فرد عليه قائلا وهل سبق وأن كذبت عليك؟ فقال هاشم أود أن أرى ذلك لعلي أستطيع معرفة سر جزيرة أطلانتس العجيب، فقال موسى هذه الليلة سوف ترى بأم عينك وتسمع بأذنيك كل شيء، فقال هاشم ولم ليس الآن؟ فقال له لا يا عزيزي ليس الآن ولكن عندما ينتصف الليل وينام الآخرون سوف أستحضر أرواح الموتى واسألهم عما تريد أن تعرفه، فقد يكتشف أمرنا أحدهم وعندها سوف يفتضح أمرنا.

كان هاشم خائفا من تلك التجربة الغريبة والمثيرة، فهو لم يتعود أن يحضر تلك الطقوس والشعوذات المريبة، ولولا إلحاحه على اكتشاف الحقيقة لما ارتضى ذلك. وعندما انتصف الليل نهض موسى من فراشه وهو ينتظر تلك الساعة ليقوم بعملية تحضير الأرواح بينما كان هاشم يغط في سبات عميق وقد علا صوت شخيره، قال له موسى بصوت منخفض هاشم.. هاشم هيا قم الآن ألا تريد أن تستكشف أسرار المجهول؟.

كان هاشم مترددا قليلا في المشاركة بجلسة تحضير الأرواح لأن محاولة الاتصال مع أرواح الموتى كانت تبدو تجربة غريبة ومخيفة بعض الشيء، فقام من نومه متثاقلا، أطفأ موسى السرج التي في الغرفة وأحكم غلق الشباك وتأكد أن الباب لا يزال مغلقا، ثم قام بإضاءة شموع في منتصف تلك الغرفة ووضع طبقاً به ماء وطلب من هاشم الالتزام بالهدوء التام عند البدء كجزء من طقوس تحضير الأرواح والتواصل مع الموتى.

إستغرب هاشم وهو يتأمل ما يجري حوله فقال في نفسه كأنني رأيت هذا الموقف من قبل ولكم أين؟ وحتى كلمات موسى وكلامي أنا أيضا، كأنني رأيته وسمعته من قبل، لكن لا أعرف أين. بعد ذلك قال موسى لهاشم إذا أردت أن تعرف الحقيقة التي جئت من أجلها الى هنا وتعرضت الى كل تلك المشاق والمصاعب فيجب أن توافق على أن تكون أنت الوسيط الروحي الذي من خلاله أتواصل أنا مع الأرواح واطرح الأسئلة عليهم، فقال له هاشم وهل تضمن لي ألا يصيبني مكروه؟ فقال له نعم اضمن لك ذلك.

ثم طلب منه أن يتمدد على الأرض ويسترخي ثم يغمض عينيه، فقال له عندما اقوم بتحضير روح الميت سوف تتراءى أمامك صور ذهنية وأصوات.. لا تخف من ذلك، وسوف أقوم بطرح الأسئلة عليك وتجيبني بما ترى، هاه.. هل أنت مستعد يا عزيزي؟ فقال له والعرق يتصبب من جبينه.. نعم مستعد، فقال له تذكر أن تحافظ على هدوئك وتحكّم بأعصابك حتى لو رأيت ما يزعجك، وإذا حضرت الروح فاضرب الأرض بيدك حتى أعرف أنها حضرت لأقوم بسؤالها.

تناول موسى ورقة ورسم عليها أوفاقا وكتابات عبرية كان قد استنسخها من كتاب العزيف ثم قام بتلاوة بعض العبارات الغير مفهومة، ثم رفع رأسه ونظر الى هاشم وقال له يا أيها البابا العظيم، يا وارث كرسي بطرس ومفاتيح ملكوت السماوات يا من يعرف سر جزيرة الخلود والسعادة الأبدية

«أطلانتس»، تواصل معنا وتراءى لنا، وقام يكرر تلك العبارة مرات عديدة دون جدوى، وأعاد الكرة عدة مرات أخرى، ونجحت أخيرا.

بدأ هاشم ينقر على الأرض عدة نقرات علامة على حضور الروح، وأحس بدفء وحرارة وتنميل عند الأطراف، في البداية رأى هاشم أضواء وألوان ثم شعر بالقوى الروحية، وفجأة تراءى له احدهم وهو على فراش الموت، ثم أتت ممرضته الحسناء وقامت تعالجه، فطلب منها أن تزوده بالحليب الدافيء منها ، لأنه يشعره بالشفاء ، كان هاشم لا يزال ينقر على الأرض.

فقام موسى يسأل الروح التي حضرت بواسطة هاشم فقال لها روح من هذه؟ فاختفت تلك الصورة أمام هاشم وتحولت الى أنوار حمراء ضبابية، فرد بلسان هاشم وقال بصوت متقطع وبعيد كأنه قادم من مقابر الأموات وقال أنا البابا اينوسنت الثامن، فقال له موسى ماذا تعرف عن سر جزيرة أطلانتس؟ فقال له لا أستطيع أن أخبرك فأنا لا أزال في السماء الأولى، فقال موسى ولماذا أنت في السماء الأولى؟ فقال له إنهم يحاسبونني على قتل أكثر من نصف مليون امرأة بسبب الاشتباه بأنهن يعملن السحر، بالاضافة الى تصفية الأبرياء من خلال محاكم التفـتيش، كما أنهم يحاسبونني على اتخاذ عشيقات، ولا أعلم كم سألبث هنا.

فقال له موسى إذا من هو البابا الذي يعرف سر جزيرة اطلانتس؟ فقال له قلت لك لا أعلم ويجب عليك أن تسألهم واحدا واحدا، فهنا في السماء الاولى يوجد أيضا ستة بابوات غيري ويمكنك أن تسألهم لعلك تجد ما تريد. فقال له موسى شكرا لك أيتها الروح، إنصرفي الآن.

ثم بدا موسى يتلو بعض العبارات العبرية، ونظر الى هاشم وردد مقولته الأولى يا أيها البابا العظيم، وظل يردد تلك العبارات عدة مرات، فرأى هاشم أحدهم وهو يجلس على كرسي البابوية في روما ويتلقى الأموال من أصحاب بيوت الدعارة وهو يقول هذه الأموال التي أخذتها منكم هي لبناء كنيسة سيستين وخدمة الدين.

فقام هاشم ينقر الأرض بيده، فقال موسى روح من هذه؟ فاختفت الصورة أمام هاشم وتحولت الى هيئة ضبابية فقال له على لسان هاشم أنا البابا سيكستوس الرابع، فسأله موسى قائلا أين انت الآن؟ فقال له أنا في بداية السماء الأولى، فقال له موسى وهل هناك سماوات أخرى فوقكم؟ فقال نعم، أرواح المعذبين هنا فقط في السماء الأولى، فقال موسى ولماذا أنت هنا؟ فقال له البابا لقد سمحت بإقامة بيوت الدعارة للإفادة منها في بناء الكنائس ولتعزيز خزانة الكنيسة وتوفير الرواتب للجنود والحرس بسبب عدم توفر المال اللازم لذلك، الأمر الذي سبب انتشار مرض السيلان ولو كنت أعلم ذلك لما سمحت باقامة بيوت الدعارة.

وأيضا بسبب أنني أعلنت وأبحت عيد الحبل بلا دنس، كما أنني أمرت بتجديد محاكم التفتيش، فقال له موسى هل البابا سلفستر الثاني معكم في السماء الأولى أم لا؟ فقال لا أعرف يجب أن تستدعي البابوات واحدا تلو الآخر ومن تكن روحه لديها الاستعداد أكثر فإنها سوف تستجيب وتحضر أولا، وأرجوك ألا تستدعيني مرة أخرى فأنا متعب جدا ومرهق ولا أستطيع التحدث اكثر من ذلك، فقال له موسى شكرا لك أيتها الروح، انصرفي الآن.

ثم بدأ موسى يتلو وهو ينظر إلى هاشم وكرّر ما قاله سابقاً تلك العبارات عدة مرات، فرأى هاشم أحدهم مسجى على فراش الموت وقد تجمع حوله خمسون كاهنا لعرض القداس لراحة روحه وأحدهم يقول مستغربا تسعة أيام لراحة روحه ولا يكفي لها البابا المذنب!!

قام هاشم بنقر الأرض دلالة على حضور الروح وعلى الفور سأل موسى الروح قائلا لها روح من هذه؟ فاختفت الصورة امام هاشم ونطقت الروح على لسانه فقالت أنا البابا كليمنت السادس، ثم سأله موسى قائلا وأين انت الآن؟ فقال له لا أعلم، كل شيء حولي مظلم ولا أسمع سوى صراخ المعذبين،

فقال له موسى هل تجلس في مكان واضح؟ فرد عليه قائلا لا.. لا، أحس بأنني لا أزال أسقط من آفاق السماوات وأنني سأقع على أم رأسي في أي لحظة، فقال موسى ولماذا انت هكذا وفي هذا المكان المظلم؟ فقال له لقد كنت أعشق الخمر لدرجة أنهم كانوا يلقبونني ديونيزوس الكنسي وهو إله الخمر عند الاغريق، كما أنهم يحاسبونني على اتخاذ عشيقات كثيرات حتى أصبت بمرض السيلان.. لم أكن أرغب النساء ولكن الخمر هو السبب في ذلك. فقال له موسى ليس هذا ما أريد ولكن هل تعرف سر جزيرة أطلانتس؟ فقال له إسأل البابا الساحر سلفستر الثاني فلديه الاجابة حول ذلك، فقال موسى وأين هو الآن؟ فرد قائلا هنا لا نعلم أسماء بعضنا البعض بل انهم ينادوننا بأسماء امهاتنا ولولا ان روحي قدمت الى الدنيا لما عرفت أن أنطق اسمه ولا أعرف أين هو حتى لو رأيته، ولكن استمر في تحضير الأرواح بتلك العبارات التي أحضرتني بها الى هنا وسوف يستجيب لك عندما يؤذن له بالكلام.

فقال له موسى شكرا لك أيتها الروح، انصرفي الآن، ثم بدا يتلو مرة اخرى تلك العبارات العبرية وهو يقول يا أيها البابا العظيم سلفستر الثاني، يا وارث كرسي بطرس ومفاتيح ملكوت السماوات يا من يعرف سر جزيرة الخلود والسعادة الأبدية "أطلانتس"، تواصل معنا وتراءى لنا، وقام يردد تلك العبارات عدة مرات، ولكن دون جدوى.

ثم أعاد المحاولة عدة مرات ولم تستجب روح البابا سلفستر الثاني للتحضير، فقال لعله في مكان أبعد مما أتصور، سوف أقوم بالمحاولة دون ذكر اسمه، فبدأ يتلو تلك العبارات قائلا أيها البابا العظيم يا وارث.. وفجأة ظهر شبح ضبابي من نور أبيض وهو يحوم حول الإثنين، وموسى يتأمل فيه بصمت وخوف، فقال له من أنت؟ من أنت أيتها الروح؟ فرد ذلك الشبح بصوت واضح ومسموع وقال أنا البابا يوحنا العاشر، فقال موسى هل أنت في السماء الآن؟ فقال له لا.. لا أنا لا أزال هنا.. روحي تجول في أنحاء هذا القصر، فقال موسى ولماذا أنت هنا؟

فقال له لقد قتلتني إبنة عشيقتي ماروزيا هنا في هذا القصر حتى يرتقي ابنها الطفل الكرسي البابوي، وهذا الطفل والده البابا يوحنا الحادي عشر. فقال موسى ومن هي ماروزيا؟ فرد البابا يوحنا العاشر قائلا هي العاهرة التي حكمت الكنيسة، فقد كانت هي وأمها ثيودورا يعينان من يريدان ويعزلان من لا يريدان من الكرسي البابوي.

فاستمرت الروح بالكلام قائلة آه ... ماروزيا الملعونة ، لقد أنجبت البريك الثاني الذي حبس أمه وأخاه يوحنا الحادي عشر وعيّن ابنه يوحنا الثاني عشر على كرسي البابوية ، فقال له موسى شكرا لك أيتها الروح إنصرفي الآن ولا تعودي ثانية. فاختفت تلك الكتلة الضبابية التي اخافت موسى وهي تحوم حوله.

ثم أسند ظهره إلى الجدار وهو يبدو متعبا وقطرات العرق ظهرت على جبينه بينما لا يزال هاشم ممددا وهو مستعد لتلقي الأرواح التي ترد عليه من عالم الأموات. إستراح موسى قليلا وقال لقد اتعبتني وأضاعت وقتي تلك الروح الأخيرة وشغلتني عما كنت أبحث عنه.

ثم اقترب من هاشم واستجمع قواه وتركيزه، وقال يا أيها البابا العظيم، يا وارث كرسي بطرس ومفاتيح ملكوت السماوات يا من يعرف سر جزيرة الخلود والسعادة الأبدية «أطلانتس»، تواصل معنا وتراءى لنا، وقام يردد تلك العبارات عدة مرات، فرأى هاشم الذي فرأى هاشم الذي كان ممددا، أحدهم وهو يحاول اغواء الصبية الصغار، ثم قام ينقر الأرض بكفه علامة على حضور الروح، فسأل موسى الروح قائلا لها روح من هذه؟ فردت الروح قائلة أنا البابا بونيفاس الثامن، فقال له موسى وأين أنت الآن؟ فقال لا أعرف أين أنا ولكني أعيش مع آخرين أسمع صراخهم ولا أراهم.

فقال له موسى ولماذا أنت في تلك الظلمة ولست في السماء؟ فقال له انهم يحاسبونني على ذبح سكان بلدة بالسترينا الايطالية ، ولأني كنت أحاول إغواء الصبية الصغار، لا أعرف لماذا ينقم الآخرون

علي فأنا لست وحدي من يفعل ذلك، فها أنذا أسمع صراخ البابا بيندكت التاسع وهو حولي في تلك الظلمة المطبقة، حيث أنه كان يفعل ما أفعله أنا. في قصر لاتران، حتى أن الكرادلة كانوا يسمونه شيطان من جحيم في ثوب كاهن!! لذلك لست وحدي من يفعل ذلك، ثم قال له موسى حسنا حسنا.. لا يهمني ذلك ولكن هل تعرف سر جزيرة أطلانتس؟

فقال له هناك وثائق في الارشيف السري لمكتبة المجمع اللاتراني تتحدث حول ذلك، فعليك البحث عنها وستجدها هناك. كانت ميليشيات المسيح التابعة للبابا الكسندر السادس تراقب الاثنان وترفع التقارير للكاردينال أسكانيو سفورزا، وفي تلك الليلة لاحظ الجواسيس صدور أنوار بيضاء وحمراء من غرفة أساقفة أورشليم، فذهب أحدهم مسرعا الى مقر إقامة الكاردينال أسكانيو وأبلغه بالأمر وقالوا له، يبدو أنهما يتعاملان بالسحر فنحن نسمع أصواتا غريبة تصدر من غرفتهما، وأنوار غريبة كأنها أشباح.

وعلى الفور أعطى الكاردينال أسكانيو أوامره بكسر الباب والقبض عليهما وتفتيش-هما ومصادرة الموجودات لدي-هما، واحضارهما الى مكتبه في الصباح الباكر.

بابوات أم قياصرة

اقتحمت ميليشيات المسيح تلك الغرفة وانتشرت حولهما، كان هاشم لا يزال ممددا وهو لا يحس بما يجري حوله، أوقدت السرج وانكشف كل ما كان مستورا. كان موسى يتأمل فيهم وقد تجمد في مكانه من الخوف كما كانت تلك الورقة ذات الكتابات العبرية لا تزال مفتوحة أمامه والشمعة موقدة.

لم يكن الوضع بحاجة الى أن يُفسّر بغير القيام بتحضير الأرواح من خلال السحر، فقال رئيس الحرس إجعل رفيقك يستيقظ مما هو فيه الآن، فصفق موسى بكفيه وعلى الفور فتح هاشم عينيه اللتين كانتا حمراوين، وإذا به يرى مجموعة من الحرس قد تحلقت حولهما فظل مستلقيا ولم يحرك ساكنا وهو يتأمل الحرس بخوف شديد.

اقتادها الجنود الإثنين ووضعوهما في أحد السجون الذي كان ضمن مباني المجمع اللاتراني ثم أغلقوا عليهما الباب وذهبوا. لم يستوعب هاشم الصدمة واكتشاف أمرهما بهذه السهولة وأنهما ربما سيقتلان أو يحرقان حالهما في ذلك حال الكثير من الذين تم حرقهم في محاكم التفتيش آنذاك. بدأ هاشم بإلقاء اللوم على صاحبه موسى ويقول له أنت الذي سببت لنا ذلك، لقد اكتشفوا أمرنا بسببك.. ألم أقل لك أنني كنت أخشى تلك التجربة السيئة؟ فقال موسى أسكت أسكت لا تكشف أمرنا أكثر من ذلك فهم لم يعرفوا بعد بأننا لسنا مرسلين من قبل بطريرك أورشليم أو بأننا لسنا مسيحيين أيضا.

كل ما في الأمر أنهم اكتشفوا بأننا نتعامل بالسحر فقط، لا تخف يا عزيزي، لا تخف وهدئ من روعك، وسوف نقنعهم بأننا وجدنا بعض التعويذات السحرية في أرشيف المكتبة السرية واستخدمناها في البحث عن الوثيقة التي ادعينا أننا جئنا من أجلها.

اطمئن هاشم قليلا وأقنعه كلام موسى ثم قال له أرجو ذلك. أمضى الاثنان تلك الليلة وهما خائفين ولا يعرفان ماذا سيكون مصيرهما في صباح الغد. وعند قرب طلوع الفجر نام الاثنان نوماً عميقاً حيث كان هاشم مسندا ظهره الى الجدار بينما نام موسى وهو يتوسد فخذ هاشم.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الاثنان واستيقظ كل من كان في السجن بعدما دخلت مجموعة من الحرس حيث اقتادتهما الى خارج السجن. كان السجن كبيرا وفيه الكثير من الممرات والعنابر.

كان كلما مرا على أحد العنابر هناك يمد المساجين أيديهم نحوهما الأمر الذي أثار الخوف والدهشة عند هاشم وصاحبه موسى، كان بعض المساجين قد تم قطع لسانه ولا يستطيع الكلام وهو يتمتم اليهما بكلمات غير مفهومة وكأنه كان يريد شيئا، وكان أحدهما يئن على الأرض وقد تم سلخ جلد رجليه ويديه وكان أحدهما قد تم سمل عينيه.

كان السجن مليئا بالرجال والنساء على حد سواء وصوت الصراخ وأنين المساجين لا يتوقف. وما أرعب هاشم هناك أنه شاهد أحدهم وقد تم دق مسامير في كفيه وعلق على جدار العنبر الذي يتواجد فيه وهو يئن ويتألم ويصرخ دون جدوى. عند ذلك عرف هاشم أن أمره قد انتهى وأنه لا محالة هالك.

وصل الحرس وهم يقتادون الصديقين نحو مكتب الكاردينال أسكانيو سفورزا الذي استقبلهما وهو يبتسم وقال لهما مرحبا بأسقفي أورشليم اللذين يتعاملان بالسحر!! ثم أمر بأن يجلسان أمامه على تلك الكراسي الخشبية، ثم قال لهما لم أكن أظن للحظة واحدة بأنكما تتعاملان بالسحر وأنتما رجال دين وأساقفة.. إذا ماذا سيفعل الآخرون لو شاهدوكما بتلك الحالة.. بالطبع سوف يقتدون بكما، فرجال الدين هم المؤتمنون على هذا الدين، أم أن بطاركة الشرق يبيحون استخدام السحر؟!

فرد موسى قائلا لا يا نيافة الكاردينال ولكني وجدت وثيقة كتبت بها بعض الأوفاق والكتابات

لتحضير الأرواح وسؤالها ورأيت أن أجرب طريقة تحضير الأرواح لكي أكتشف مكان تلك الوثيقة التي جئنا من أورشليم لأجلها، حيث أننا فتشنا عنها ولم نجدها، ثم إن طريقة تحضير الأرواح لا تعد من السحر يا نيافة الكاردينال، فضرب الكاردينال الطاولة بيده معبّرا عن استيائه وسخطه فقال له بل هو السحر بعينه.

التفت الكاردينال نحو هاشم وقال له حسنا حسنا.. روح من قد حضرتم وماذا قالت لكم هاه؟ فهز هاشم رأسه معبّرا عن عدم معرفته بشيء من الذي حصل بحكم أنه كان هو الوسيط الروحي النائم، ثم التفت الكاردينال نحو موسى وقال له أنت.. أنت الذي تعرف كل شيء، أجبني الآن وإلا أمرت بإعدامك الآن، ماذا كنتما تفعلان ولماذا؟

فقال موسى أقسم لك أن تلك هي الحقيقة ولا غيرها، فقال له إذا ما هذه؟ فاستخرج الكاردينال بعض الجلديات التي كان موسى قد استنسخها من أرشيف المكتبة السري حيث كانت تحتوي على كتابات سحرية لا تدع مجالا للشك في أنها تعويذات وطرق سحرية كتبت من كتب السحر الأسود. تلعثم موسى ولم يعرف ماذا يقول وبدت حبيبات العرق تظهر على جبينه.

وعلى الفور استدعى الكاردينال الحرس وأمر بأن يأخذوا موسى الى سجون الكفرة والمهرطقين، ثم التفت نحو هاشم وقال له أما أنت فقد كتب لك عمر جديد، سوف تعمل بالسخرة في القصر اللاتراني عشر سنين تغسل وتكنس وتعمل كل ما يطلب منك عقابا على سماحك لصاحبك بأن يستخدمك لتحضير أرواح الموتى.

لم يجد الكاردينال أدلة كافية على اشتراك هاشم مع صاحبه موسى في استخدام السحر وإنما تم استخدامه كوسيط فقط، لذلك اكتفى الكاردينال سفورزا بأن يكون هاشم عرضة للسخرة في قصر لاتران حيث يسكن البابا وحاشيته. تذكر هاشم عند ذاك العبودية والاسترقاق الذي مرّا عليه في إسبانيا عند البارون أوغستين فرناندو فقال في نفسه يبدو انني سأقضي بقية حياتي في هذه العبودية أسكب الخمر لهؤلاء السفلة وتبصق العاهرات في وجهي.

لم يكن يعرف هاشم مصير صاحبه موسى، ولكنه كان يعرف بأن وضعه سيء جدا وربما يتم تعذيبه في أحد العنابر التي شاهدها صباحا. كان البابا الكسندر السادس حينذاك يعيش عيشة القياصرة والملوك المنعمين ولا يأبه بأحد، كان كل همه أن يعيش كملك تحت رداء الكنيسة التي تضفي القداسة على منصبه الذي صعد به على أكتاف الآخرين، فأعطى من أحب وحرم من لا يريد إعطاءه، وأشاع المنكرات في المؤسسة الدينية الكبرى للمسيحيين الكاثوليك في العالم!!

لاحظ هاشم أثناء عمله بالسخرة تردد أحد المجانين على مجلس البابا الكسندر السادس بشكل دائم وهو يتكلم بكلمات غير مفهومة، الأمر الذي دعا هاشم الى الاستغراب، فكيف أن البابا ذا السطوة والنفوذ لا يأمر بقتله أو حتى ابعاده عن مجلسه.

وبعد عدة أيام عرف هاشم من أحد الحرس السويسري أن ذلك الرجل هو الكاردينال آنجلو فرانشيسكو. ثم قال هاشم في نفسه أقسم أنني سمعت باسم ذلك الرجل لكن لا أعرف أين ومتى!! وفجأة صاح هذا الرجل المجنون صيحة عالية فاجتمع الحرس حوله وأرادوا ضربه، فتقدم أحدهم وقال لهم ويلكم لا تضربوه يا أغبياء، ولو يراكم قداسة البابا فإنه سوف يغضب، ألا تعرفون أن هذا المسكين هو صديق البابا الخاص، وعندما جن قام يتفوه بكلمات وتهم تسيء الى قداسة البابا أحيانا لأنه لا يعرف ماذا يقول ومع ذلك فإن قداسة البابا لم يؤذه أبدا، بل كان يقول له اتركوه إنه ليس بكامل قواه العقلية.

وعلى الفور تركوا ذلك المسكين المجنون فقام يمشي نحو القاعة التي يتواجد بها البابا الكسندر السادس وثوبه يبدو مشققا ومرقوعا من كل جهة وهو يلبس قلادة الصليب. فدخل هناك ثم صاح مرة أخرى فلم يجرؤ أحدهم على المساس به والبابا ينظر اليه بأسى، فقال المجنون هذا الكرسي القذر هو

الذي قتل اينوسنت الثامن.. إنه ملعون لا تجلسوا عليه.. لا تجلسوا عليه.

فاحمر وجه البابا وقام يتلفت حوله وقال لحاشيته، مسكين نيافة الكاردينال آنجلو.. سأجلب له الأطباء من كل مكان لعل الله يشفيه. كان البابا اينوسنت الثامن هو البابا الذي سبق البابا الكسندر السادس على الكرسي البابوي، ثم مات بطريقة مريبة شكوك اثارت الآخرين وجعلتهم يتكلمون كثيرا حول موته، حيث كانت تشير أصابع الاتهام الى جريمة قتل حصلت داخل المجمع اللاتراني.

وفي المساء وعندما هم هاشم بالنوم وإذا به يتذكر هذا الاسم.. آنجلو فرانشيسكو.. فقال إنه الكاردينال الذي دخل الارشيف السري لمكتبة المجمع اللاتراني وخرج منه مجنونا وهو يقول: كلمة الانسان أم كلمة الرب.. لقد قتلني برنابا وهرمس!! كما قال لي الكاردينال سفورزا.

وأثناء ذلك تذكر هاشم بسرعة بأنه قرأ بعض أوراق من إنجيل برنابا وهرمس الراعي، فقال لقد كانت تبشر بظهور نبي بعد عيسى اسمه محمد، ثم بدأ هاشم يربط الأحداث مع بعضها البعض فقال.. نعم.. عرفت الآن لماذا جن هذا الرجل، لقد جن لأنه اكتشف أن أقدم وثيقة في الانجيل كانت تبشر بظهور سيد الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، في حين كانت الأناجيل التي ظهرت بعد انجيل برنابا لم تذكر ذلك!! فاهتدى الرجل الى أن الانجيل الذي بين يديه الآن هو كلمة الانسان وقد حرفت وليست كلمة الرب.

وفي صباح اليوم التالي لاحظ هاشم أن حاشية البابا تقوم بتزيين القاعة التي يجلس بها البابا الكسندر السادس وتمسح الأرضية، بعضهم يرتب الخمور ويلمع الكؤوس، فاستغرب هاشم ولم يعرف ماذا يجري، فصاح به احدهم.. أنت.. تعال هنا، فأوكل اليه بعض المهام، ثم سأله هاشم عن سبب ذلك، فقال له وهو يضحك يبدو أنك جديد هنا ولا تعرف ماذا يجري.

إنه في كل أسبوع يقام هنا احتفال مبارزة العاهرات، فقال هاشم وما هي تلك؟ فقال له الرجل هيا تحرّك ولا تتكلم أكثر من ذلك.. بسرعة..، فقام هاشم يعمل معهم بدون أن يفهم ما هي مبارزة العاهرات. دخل هاشم أحد الغرف المحيطة بالمكان وقام ينظفها، حيث كان الفنان مايكل آنجلو والكاردينال رافائيل رياريو يجلسان، ثم سمع هاشم ذلك الكاردينال وهو يتكلم مع آنجلو قائلا له: أريدك أن تعمل منحوتة جديدة لإله الخمر باخوس!! فالمكان هنا واسع ويحتاج الى بعض المنحوتات كما أن قداسة البابا يعشق الفنون والمنحوتات، ولا يوجد من هو أقدر منك في صنع ذلك.

فقد لاحظت أنك قمت بنحت تمثال للقديس يوحنا المعمدان وتعمدت أنت أن تظهرها كالقديمة لكي تبيعها بسعر مرتفع، لا تقل غير ذلك يا عزيزي فأنا أعرف موهبتك وسوف أعطيك ما تريد. ابتسم آنجلو وقد أحرج وقال لا مانع لدي سوف أفعل ذلك إن أعطيتني وقتا كافيا. ابتسم هاشم وقال متعجبا في نفسه: إله الخمر!! على المسيحية السلام إن كان هؤلاء هم من يمثلونها.

إستمرت حاشية الملك في ترتيب المكان والاستعداد لذلك الاحتفال حتى غربت الشمس، وفي المساء جاء البابا وجلس على كرسيه وحاشيته حوله وكذلك الكرادلة الأسبان، وقد جلسوا في تلك القاعة بانتظار بدء حفل ذلك المهرجان ليستمتعوا بالمشاهدة وقبل أن يبدأ المهرجان صاح البابا قائلا يا أتباع المسيح لقد جاء الرب يسوع الى البشر ليمسح خطاياهم ويعفو عن ذنوبهم فافعلوا ما تشاءون وما تريدون ما دمتم مؤمنين بالخلاص عن طريق الرب!!

بدأ المهرجان فتقدم أحد المهرجين بذلك الزي المضحك وقام ببعض الحركات المضحكة، فضحك الكل. كان سيزر بورجيو إبن البابا الكسندر السادس يضحك بطريقة غبية تدل على حماقته، في حين كانت جيليا تجلس بالقرب من البابا وتضحك بكل براءة.

كانت الضحكة تتوهج في فمها كما يتوهج البلور أمام النور ويتقاطر الندى من وجنتيها الحمراوين والمفعمين بالحيوية كما تتقاطر حبات الندى على حقول الخوخ الأحمر، وسيزر يتأمل جمالها فقامت

تنظر اليه بريبة.

وبعد انتهاء عرض المهرج تقدمت خمسين راقصة وهن يحملن السيوف المعدة للمبارزة فقط وانحنين أمام البابا، ثم بدأن المبارزة فكانت كل اثنتين تتبارزان مع بعضهما البعض وبعد ذلك تجردت الراقصات من ملابسهن وتعرين ببطء، ثم قام الحاضرون برمي حبات الكستناء على الأرض وأجبروا النساء على التقاطهن من الأرض وهم يتأملون فيهن بشهوة عارمة.

وبعد انتهاء الحفل قدم البابا الجوائز للمشاركين في تلك الحفلة من المجوهرات والملابس الراقية. كان هاشم يشاهد ذلك الحفل ويقول في نفسه كنت أظن أن البابا رجل زاهد ناسك يعيش في صومعته بعيدا عن الناس وعن شهوات الدنيا، ولكن يبدو أن هذا المنصب هو منصب دنيوي حقير وليس منصبا دينيا كبير!!

انتهت الحفلة في ساعة متأخرة من تلك الليلة، وغادر البابا تلك القاعة ذاهبا الى غرفتة نومه بصحبة جيليا. ظل بعض السكارى يرقصون ويغنون ومن بينهم سيزر بورجيو الذي كان يسكب الخمر على رؤوس الآخرين وهو لا يعي ما يقول.

وفي ساعة متأخرة من هذه الليلة جاء الكاردينال أسكانيو سفورزا مسرعا وكأنه يبحث عن أحدهم، فوجد بعض السكارى وهم نائمين في تلك القاعة ومن بينهم سيزر بورجيو، فحاول أن يوقظه من سكرته عدة مرات ويقول له سيدي لدي أمر هام يجب أن اقوله لك، فقال سيزر وهو يترنح من السكر قل يا عزيزي ماذا تريد.. هل تريد بعض المال؟

فقال له لا يا سيدي ولكن هناك من ينوون التجمهر وإثارة الفوضى غدا صباحا خارج هذا القصر، فقال له قل لهم أن يأتوا ليسكبوا دم المسيح على أفواههم حتى يعرفوا جمال الدنيا وجمال جيليا. وعلى الفور ترك الكاردينال سفورزا إبن البابا وتوجه الى الجناح الذي ينام به البابا، فوصل الى هناك واستقبله الحرس السويسري ومنعوه من الدخول، فقال لهم وصلتني بعض المعلومات حول مجموعة من الأشخاص الذين ينوون التجمهر وإثارة الفوضى غدا صباحا خارج هذا القصر، فقال له رئيس الحرس ولماذا يا ترى؟ فقال له بسبب فضيحة كبيرة قام بها بعض رجال الدين الذين يسكنون في الدير الكبير الذي كان بالقرب من المجمع اللاتراني.

ثم سمح له بالدخول على البابا، توجه الكاردينال فورا الى غرفة البابا ثم وقف على بابه ورفع يده ليطرق الباب، فسمع صوت تلك الفتاة المسكينة جيليا فارنيس وهي تصرخ وتتألم، فتردد الكاردينال في طرق الباب، كانت جيليا عشيقة البابا لا تحبه أبدا ولكنه اختطفها من زوجها "أورسينو أورسيني" بعدما اعتلى الكرسي الرسولي. وكيف تحبه وقد كان في الستينات من عمره في حين كان عمر جيليا تسعة عشر عاما!!

إحتار الكاردينال سفورزا كثيرا، هل يخبر البابا أم يتصرف هو.. ولكنه لا يريد أن يزعج البابا كما أنه لا يريد أن يتصرف من تلقاء نفسه لعله يثير بذلك غضب البابا وهو الذي قام بتعيينه نائبا لرئيس الكنيسة فقط لأنه من أقربائه، فقرر الكاردينال أن يتصرف ولا يخبر البابا حول الموضوع وكأنه لا يعرف شيئا. مضت تلك الليلة وكان الناس ينتظرون طلوع الشمس ليتظاهروا ضد رجال الدين في حين كان سكان القصر ما بين سكارى وبين نائمين في احضان العاهرات.

لم يستطع الكاردينال سفورزا من النوم في تلك الليلة، فقرر أن يخبر البابا عن الموضوع عندما يصحو من نومه باكرا، ولكن.. سبقه المتجمهرون وخرجوا واحتشدوا أمام قصر لاتران وهم يهتفون: نريد اطفالنا.. لا للرهبنة. توجه الكاردينال فورا مرة اخرى نحو غرفة البابا الذي وجده قد خرج للتو من الجناح الذي يقيم فيه، وعلى الفور سأله البابا ماذا يجري يا أسكانيو؟ فقال له قداسة البابا فضيحة كبيرة حصلت في الدير الكبير ليلة البارحة.

فقال له ماذا حصل؟ فقال الكاردينال لقد شاهد أحد السكان أحد رهبان الدير الكبير وهو يقوم باختطاف اثنين من الأطفال الصغار داخل الدير، ولما قدم الأهالي للمطالبة بالأطفال من رئيس الدير أنكر وجودهما.

خرج البابا الى المتجمهرين عبر تلك الشرفة التي تطل من قصر لاتران وقال للناس لقد عرفت مطالبكم وأنا هنا لخدمتكم وخدمة الكاثوليكية المقدسة ولا يمكن أن يحصل ذلك هنا، ولكن مع ذلك فقد كلفت الكاردينال سفورزا بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق، وسأطلعكم على كل شيء في الوقت المناسب، كما أرجو أن لا تتجمهروا مرة أخرى بهذه الطريقة وليكن أحدكم مندوبا عنكم، فأنتم بذلك تسيؤون الى مقام البابوية المقدسة وتغضبون الرب.

تفرق المتجمهرون وعادوا الى بيوتهم. فقال الكاردينال سفورزا أحسنت صنعا أيها البابا العظيم، فقال له البابا ستكون أنت المسئول عن تقصي الحقائق، هيا اذهب الى هناك الآن، ولا ترجع الى هنا حتى تعرف ماذا يجري هناك، وسأنتظرك حتى قبيل غروب الشمس.

خرج الكاردينال مسرعا ومعه مجموعة من الحرس السويسري ورئيس ميليشيات المسيح ودخلوا الى ذلك الدير الكبير.

استقبلهم أحد الأساقفة هناك وكان رئيس الدير وقد لاحظ القلق على وجه الكاردينال سفورزا، كما أثار حضوره الى الدير بطريقة مفاجئة خوف وقلق رئيس الدير، فقد أحس بأن هناك أمرا ما قد حدث.

شرح الكاردينال سفورزا الأمر لرئيس الدير وطلب منه تفتيش الدير والكنيسة وعلى الفور. وبالفعل توجه الكاردينال مع ذلك الأسقف الى مهاجع الرهبان الذين كانوا نائمين بعد أن أدوا الصلاة الجماعية، ثم قام الكاردينال مع الحرس بفتح أبواب المهاجع غرفة غرفة. لم يكن عدد الرهبان في ذلك الدير كبيرا، فقد كانوا لا يزيدون على ثمانين راهبا.

تلعثم الأسقف وقال له ولكن الناس يحترمونهم كثيرا. استمر البحث عن الطفلين المفقودين في ذلك الدير حتى وجدهما أحد الحرس وقد تم ربط أيديهما وتكميم أفواههما في غرفة أحد الرهبان والذي هرب من الدير قبل أن يصل اليه أحد. فأعطى الكاردينال سفورزا أوامره لاثنين من الحرس بأن يسلموا الصبيين إلى ذويهما ويتوجه الباقون الى دير الراهبات لتفتيشه أيضا.

اقتحم الكاردينال دير الراهبات مع ذلك الحرس المرافق له ثم قابل المسئولة عن الراهبات، فالراهبات لا يحملن أي ألقاب هنا على العكس من الرجال - التي قالت له لقد سمعت بالفضيحة التي حصلت اليوم، وهل أستطيع أن أخدمكم بشيء؟ فقال لها نريد تفتيش مهاجع الراهبات، فسكتت الراهبة ولم تتفوه بكلمة ثم بدأ الكاردينال بحملة التفتيش مع الحرس المرافق له، كانت الراهبات تقوم ببعض الأعمال اليدوية في ذلك الدير وبعضهن كنّ يتدربن على ترتيل الترانيم الكنسية للقداس القادم، صمتت الراهبات عن ترتيل الترانيم وأمعنّ النظر فيما يجري حيث كان الحراس يفتشون الغرف بلا هوادة.

وأثناء ذلك تقدمت أحد الراهبات نحو الكاردينال سفورزا وهي تبكي بشده وتقول له نيافة الكاردينال إرحمونا من هؤلاء الوحوش البشرية!! لقد جئت لأخدم المسيح هنا فلم أجد غير الذل والمهانة، فقال لها وماذا تقصدين؟ فقالت تلك الأرواح البريئة التي أزهقت ولم تر النور خارج هذا الدير بعد؟ ثم بدأت بالبكاء مرة أخرى وقالت أقسم انني أراها تبكي كلما بدأت في النوم. فقال لها الكاردينال ماذا تقصدين بتلك الأرواح البريئة؟ فاحمر وجه المسئولة عن دير الراهبات وقالت لها ماذا تقولين أيتها المجنونة.. إنها مختلة عقليا، لقد أتى بها والدها الى هنا ليعالجها من مرض الأوهام النفسية التي تعانيها، فقاطعها الكاردينال فورا وقال لتلك الراهبة أكملي.. ماذا تقصدين بتلك الأرواح البريئة؟!

فبكت الراهبة وقالت هناك يا نيافة الكاردينال تحت بلاط السرداب الكبير مقبرة كبيرة للأطفال الخدج

الذين يدفنهم الراهبات والرهبان، وإذا كنت تظنني مختلة عقليا كما تقول هذه فإذهب معي واحفر هناك بنفسك وسترى صدق ما قلت لك. ابتسم الكاردينال في وجه مسئولة دير الراهبات ابتسامة تهكم وقال لها رائع جدا ما سمعت هذا اليوم.

ماذا سأقول لقداسة البابا؟ وماذا سيقول سكان روما عندما يعرفون بذلك؟! حتما سيرتدون عن دينهم الى الوثنية. ثم توجه الى ذلك السرداب وطلب من الحرس إحضار معاول وفؤوس لتكسير بلاط أرضية السرداب وحفر ما تحت البلاط بهدف استخراج تلك الجثث والتأكد من إدعاء تلك الراهبة.

إستمرت عملية التكسير والحفر ساعات طويلة ظهرت خلالها عشرات الجثث للأطفال الخدج والهياكل العظمية لصغار الأطفال الذين قضوا ضحية شهوات محرمة. بعد ذلك طلب الكاردينال من الحرس أن يقوموا بدفن ذلك السرداب بالكامل واغلاق جميع الفتحات التي تؤدي اليه، وطلب من مسئولة دير الراهبات أن تتكتم على هذا الأمر خوفا من انتشاره عند سكان روما، ثم أسر اليها قائلا لها تخلصي من تلك الراهبة لئلا تفضحنا بأسرع وقت.

خرج الكاردينال من دير الراهبات مع جنوده مسرعا وتوجه الى قصر لاتران ليقابل البابا ويطلعه على آخر المستجدات. وأثناء ذلك طلبت مسئولة دير الراهبات من تلك الراهبة أن تتبعها الى مكتبها، فكمنت لها خلف الباب وعندما دخلت تلك الراهبة المسكينة لم تجد أحدا في المكتب.. وفجأة انقضت عليها مسئولة الدير من الخلف وخنقتها بالصليب الذي كان معلقا في مكتبها حتى ماتت.

دخل الكاردينال أسكانيو على البابا الكسندر السادس الذي كان متوترا ذلك اليوم وقال له قداسة البابا لقد وجدنا الطفلين وأعدناهما الى ذويهما، ولكن الذي اختطفهما قد هرب، ثم دخلنا دير الراهبات لنبحث عنه فاكتشفنا ما هو أشنع من ذلك يا قداسة البابا، فقال البابا ما هو؟ فقال وجدنا مقبرة كاملة للأطفال الخدج في سرداب الدير، حيث كانت الراهبات تسقط أجنتها من السفاح هناك مع الرهبان.

لم يستأ البابا كثيرا وقال.. أسكانيو.. المهم ألا تهان سلطة الكنيسة والكرسي البابوي وتقل هيبته أمام الناس، هذا هو المهم. واثناء ذلك عادت جموع المتظاهرين مرة أخرى وهم ينادون.. نريد المجرم.. الويل له، ثم جاء قائد ميليشيات المسيح ودخل على البابا ثم انحنى له وقال له: قداسة البابا لقد عاد المتظاهرون مرة اخرى وهم يريدون القاء القبض على مختطف الأطفال.. لقد سمعت أحدهم يقول إذا كان الرهبان المتبتلين الى الرب يفعلون ذلك، فماذا يفعل الآخرون.. إنهم في حالة هياج تام يا قداسة البابا.

فنظر البابا في وجه الكاردينال سفورزا وقال له هذا ما كنت أخشاه يا أسكانيو. ماذا نفعل الآن؟ عند ذلك صمت الكاردينال وهو يفكر بالأمر، فتدخل قائد ميليشيات المسيح وقال للبابا لو سمحت لي يا قداسة البابا أن أطلعك على خطة تكون بها فكاكك من هذا المأزق، فقال البابا هيا قل ماذا لديك؟ فقال أخرج عليهم كما فعلت في الصباح وقل لهم لقد قبضنا على المجرم وهو ليس من الرهبان ولكنه من العوام، وسوف تتم محاكمته خلال أيام معدودة.

وأثناء ذلك ألزم الناس بدفع الأموال للكنيسة بسبب أن الأموال الموجودة لا تكفي لدفع رواتب الجنود وموظفي محاكم التفتيش، كما أن المسيحيين الذين يعيشون في منطقة حوض البلقان وشمال أوروبا قد أفتوا بإلغاء الحج الى روما الأمر الذي سبب خسائر مادية كبيرة، ومن يعترض سوف نزجه بالسجون بتهمة الامتناع عن دفع الأموال للكنيسة، وإلصاق التهم بمن يمتنع عن الدفع كالإشتباه بممارسة السحر والهرطقة وممارسة مهنة الطب، وذلك بهدف إسكات المتظاهرين من الناس وعدم مطالبتهم بأشياء أخرى قد تضعف من هيبة الكنيسة مستقبلا.

كما أنه بامكانك أن تبيع صكوك الغفران للميسورين منهم كما يفعل البروتستانت، كل حسب ذنوبه

بغرض الإعفاء الكلي أو الجزئي من العقاب على الخطايا والذنوب. ذهل البابا من كلام ذلك القائد وقال له أحسنت أيها القائد، كل ما قلت هو عين الصواب وسأفعل ذلك، ثم التفت نحو الكاردينال سفورزا وقال له ضاعف مرتبه الشهري واعطه راتبا آخر مكافأة له فلقد أنقذني هذا القائد الذكي.

وبالفعل قام البابا بتنفيذ ذلك المقترح بحذافيره، فعقدت محاكم التفتيش وزج الناس بالسجون، وأفلتت الشياطين مكانهم لتسرح وتمرح وتعشش وتفرخ في كل بيت وزاوية، وامتلأت العنابر بالناس على التهمة والظنة، وعم الناس خوف. ومن يشتبه به يؤخذ على الفور الى عنابر السجون دون نقاش، فإذا رأوا طبيبا سجنوه ثم قتلوه وكذلك إذا رأوا قابلة تولد النساء، لأن رجال الدين آنذاك كانوا يظنون أن المرض بُعث للناس من الله رحمة بهم وليطهّر ذنوبهم، ولذلك فإن المريض يجب أن يتألم ويعاني حتى تتطهر روحه من الآثام والدنس.

وأحرقت مئات الكتب الطبية التي ترجمت من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية، كما سجن الآلاف بتهمة الاشتباه بعمل السحر والكفر. تزايدت أعداد المساجين من الرجال والنساء مع تزايد أموال الكنيسة التي تتم مصادرتها قسرا من أصحابها الذين يتم سجنهم. وعادت هيبة الكنيسة أقوى وأغنى من ذي قبل.

كان هاشم يشاهد جميع تلك التناقضات في هذه المؤسسة الدينية الكبرى، ويشاهد ما يحصل فيها من تناقضات تشيب لها رؤوس الولدان، فكيف يعيش البابا في رفاهية كالقياصرة وهو المؤتمن على مفاتيح ملكوت السماوات، في حين يغرق الآخرون في بحر من الدماء والأشلاء دونما ذنب أذنبوه أو خطيئة أرتكبوها، ولماذا يقتل الانسان أخاه الانسان، فإن لم يكن أخوه في الدين فهو حتما نظيره في الخلق.

ولكن التاريخ يعيد نفسه هنا، فكهنة الرومان كانوا يفرضون على مواطنيهم دفع الأموال قربانا للآلهة والذي بدوره ينتقل الى كهنة المعابد الوثنية الذين كانوا يأكلون ويشربون ويتمتعون بتلك الأموال والنعم التي سلبت من أفواه الفقراء والمستضعفين الذين يحصدون ما لا يأكلون. كان هاشم يتوق الى أن يعرف مصير صاحبه موسى الذي سجن قبل عدة أشهر ولا يعلم عن مصيره شيء. وبعد أن زاد عدد المساجين وامتلأت العنابر بالمظلومين والمضطهدين تم توجيه هاشم الى تنظيف السجون وإطعام المساجين نظرا لكثرة عددهم.

لقد كان هاشم يتمنى أن يذهب هناك ليبحث عن صاحبه موسى. وفعلا تم له ما أراد، فبات تلك الليلة وهو يتساءل عن مصير موسى. وقام يلوم نفسه على ذلك التصرف الذي أدى به الى كشف امره هو وصاحبه وبالتالي الابتعاد عن الهدف الذي جاء من أجله. وفي صباح اليوم التالي بدأ هاشم مهمته الجديدة وهي تنظيف عنابر السجن وتوزيع الأكل للمساجين الذين زاد عددهم عن عدة آلاف من الرجال والنساء والعجزة.

كان ذلك الصباح أسوء صباح يمر على هاشم في حياته، فهو لم يتوقع أن يرى تلك المعاملة الوحشية والهمجية للمساجين من قبل رجال الدين الذين يفترض بهم ان يكونوا للناس رحمة حيث وعدهم البابا بأن كل ما يفعلونه بالمساجين مغفور لهم. كان هاشم يمشي مع بعضهم ليقوم بالمهام التي كلف بها، كان يمشي ويمشي في سراديب بعضها تحت بعض.. سراديب وممرات مظلمة لم ولن ترى نور الشمس مطلقا، كان أنين المساجين وصراخهم يرعب هاشم.

امتلأت السجون بالناس الذين لا يستطيعون الجلوس بسبب تكدس الناس في تلك العنابر، كانت النساء تصرخ من شدة الزحام والصراخ ورائحة العرق تملأ المكان. كان البعض منهم يمد يديه نحو السجانين عبر القضبان يطلب شربة ماء دون جدوى. كان المنظر أشبه بكابوس رهيب ولكنه حقيقة فكل ذلك من أجل الاستئثار بالمنصب وحب الذات والأنانية حتى لو كان ذلك متاجرة بالدين ولعباً

بعواطف الآخرين.

لقد واجه هاشم اختبارا قاسيا هنا، فقد طلب منه في أول يوم هنا تنظيف عنابر السجن من فضلات المساجين التي كانت تتواجد في أوعية قذرة تدور على كل من كان في العنبر، كان هاشم أيضا يدخل العنابر بمساعدة السجانين ويقوم بغسل ومسح أرضيات العنابر، وغالبا ما يلاحظ وجود بعض المساجين المرضى الذين قاربوا على الوفاة بسبب انتشار الأمراض هناك وانتقال العدوى بسرعة.

لاحظ هاشم أحدهم وقد غارت عيناه وبرزت عظام صدره ولا يتحرك منه سوى ما يحركه الهواء المنتن الذي يدخل رئتيه، تألم هاشم لذلك المنظر المؤلم الذي رآه فأراد أن يسقيه بعضا من الماء الذي يستخدمه لغسل الأرضيات فصاح أحد السجانين من خلفه وقال له.. أنت يا هذا لا تنسى أن تكمم فاك لئلا تتعرض للعدوى من ذلك المريض فنحن غير مسئولين عن أحد هنا.. هل فهمت؟!

لقد كان ذلك حال المساجين من الفقراء والمزارعين، أما الذين كانوا يملكون الضياع والأموال فكانوا يأتون الى البابا وينحنون امامه ثم يقبّلون قدميه ويدفعون أموالهم له، وبعد ذلك يمنحهم البابا صكوكا للغفران، ثم يخرجون، وليت الأمر ينتهي الى هنا فقط، فقد كانت ميليشيات المسيح غالبا ما تبتز هؤلاء الأثرياء ليجبروهم على رشوتهم في كل مرة، وإلا سيكون حالهم حال أولئك المساكين الذين تم سجنهم بلا ذنب ارتكبوه.

امتلأت خزانة الاموال الخاصة بالمجمع اللاتراني بالأموال والذهب والمجوهرات، حتى ان البابا طلب أن يكون مفتاح الخزنة مصنوعا من الذهب، وحتى الكرسي الذي يعتليه فقد تم ترصيعه بالمجوهرات النفيسة والنادرة وكذلك التاج الذي يلبسه وكل ما يخص البابا أصبح مفعما ببريق الذهب والمجوهرات.

لقد كان البابا يتمنى وجود بعض من المهرطقين والكفرة ليستبدل بهم أولئك المساجين كمبرر لتصرفاته الوحشية، فقال له الكاردينال أسكانيو لا تقلق يا قداسة البابا إن اشقائنا في أيبيريا قد عقدوا محاكم التفتيش هناك بعدما طردوا المسلمين واليهود من هناك. وأثناء ذلك ظهر الكاردينال المجنون في مجلس البابا، كان ثوبه مشققا وشعره منفوشا وهو يرتدي قلادة الصليب الذهبية التي تتدلى من رقبته، فتوجه نحو البابا الكسندر السادس وهو يمشي على هيئة الأعرج فضحك ضحكة مخيفة، ثم صمت وقال للبابا من ذلك الذي يركب على كتفيك وله قرنين على رأسه!!

ضحك مرة أخرى بصوت عال فقطع البابا ضحكته وقال له إخرس. والتفت الى الكاردينال سفورزا ثم قال له أخرج هذا المجنون من هنا بسرعة لا أريد أن أراه يدخل هنا. كان الكاردينال سفورزا دائما ما يشك في تصرفات ذلك الكاردينال المجنون، وكان يستغرب كثيرا من أقواله التي تبدو انها لا تصدر إلا من شخص عاقل، الأمر الذي جعل الكاردينال سفورزا يشك فيه أحيانا، ولكنه غالبا ما يغيّر رأيه عندما يرى هيئته البائسة وملابسه الرثة، وأثناء ذلك تقدم الحارس الخاص بالبابا وقال له قداسة البابا هناك أحدهم يود مقابلتك وقال انه جاء من مدينة فلورنسا، فقال له البابا من هذا وماذا يريد؟ فقال له الحارس لقد حاولت أن أعرف عنه المزيد ولكنه رفض وقال لي يجب أن أقابل صاحب القداسة، يبدو أن الأمر مهم يا سيدي، فقال له البابا حسنا دعه يدخل وانت يا اسكانيو لا ترحل أريدك بجانبي دائما.

ثم دخل شاب في العشرينات من العمر وانحنى أمام البابا، فقال له البابا عرف بنفسك ثم قل ما هو الامر الذي لم تفصح عنه للحرس؟ فقال له اسمي نيكولو مكيافيلي يا صاحب القداسة أحد رعاياكم في مدينة فلورنسا. كان نيكولو مكيافيلي ماسونيا ومفكرا ليبراليا وله دور كبير في تطور الفكر السياسي في أوروبا من خلال تأسيسه لمنهج جديد يبشر بمحاولة لإلغاء الفكر الديني.

رحب به البابا وقال له لقد سمعت بهذا الاسم من قبل لكني لا اعلم أين. فقال له لقد دعوتني هنا في أحد الحفلات وكنت حاضرا هنا يا صاحب القداسة فضحك البابا، ثم قال له لقد ذكروا لي بأنك تود

مقابلتي لأمر هام، فما هو هذا الأمر؟ فالتفت مكيافيلي نحو الكاردينال سفورزا ثم صمت وأنزل عينيه الى الأرض، فقال له البابا لا تقلق إنه نائب رئيس الكنيسة وحافظ أسراري، ثم ظل الرجل صامتا ولم يتكلم، فقال البابا للكاردينال سفورزا يبدو أن الرجل لا يريد أن يتحدث بوجودك.. هلا تركتنا لوحدنا يا أسكانيو، تضايق الكاردينال سفورزا وقام يتأمل وجه الرجل وهيئته ثم خرج.

وبعد أن خلا المكان للإثنين قال مكيافيلي للبابا.. صاحب القداسة أنا أحد المفكرين الذين درسوا علم السياسة، وقد قمت بدراسة الوضع السياسي لروما وشخّصت وضع الكنيسة في روما هذه الأيام فوجدت أنك وافقت آرائي وقرأت أفكاري في كل ما فعلته بهؤلاء الناس الذين تم زجهم بالسجون، لأنه من الأفضل أن يخشاك الناس على أن يحبوك، فقال له البابا كيف ذلك؟ فقال مكيافيلي، صاحب القداسة الغاية تبرر الوسيلة، والدين ضروري للحكومة لا لخدمة الفضيلة، ولكن لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس!!

إستغرب البابا كثيرا من جرأة هذا الرجل الذي كانت أفكاره حبلى بأجنة الخطيئة والظلام، فنزل من كرسيه وبدأ يدور حول الرجل، ثم قال له ماذا تقصد؟ وضّح اكثر. فقال الرجل قد أكون جريئا معك ولكنك أنت الرجل المناسب الذي كنت أبحث عنه فوجدته، صاحب القداسة أنا هنا لكي أقدم لك مشروعا يحمل بين طياته القوة الخفية، والتي ستجعلك تملك العالم بأسره، وتؤسس جمهورية عالمية تتحدث لغة واحدة ودينا عصريا واحدا يجمع البشر.

ابتسم البابا ثم قال له اجلس هنا وطلب له الخمر، فقال له البابا وما هي تلك القوة الخفية؟ فقال الرجل تلك القوة الخفية تحمل شعار الحرية والاخاء والمساواة والانسانية ولكنها للأسف لا تنسجم مع الأديان!! ومع ذلك فأنا أضمن لك أن تسيطر على كافة أنحاء القارة الأوروبية من شرقها الى غربها.. بل سوف تسيطر على العالم بأسره، ولكن بشرط!!

فقال البابا حسنا وما هو ذلك الشرط يا ترى؟ فقال الرجل يجب أن تقرب المنبوذين والأقليات في أوروبا وتجمعهم من الشتات وتمنحهم كيانا مستقلا حتى تكتشف القوة الخفية فيهم.

فقال البابا هل تقصد بذلك الغجر؟! فابتسم مكيافيلي ثم صمت قليلا فقال لا يا صاحب القداسة إنهم أجدادك.. اليهود!! فاليهود هم الذين سيوصلونك الى القوة الخفية، فقال البابا إذاً كان تخميني في محله فاليهود أشباه الغجر وربما يكونون أحفاد الغجر، وكما يقال فالبيضة من الدجاجة وليست الدجاجة من البيضة.

إستغرب مكيافيلي ثم قال ولكن يا صاحب القداسة إذا كانت البيضة اللاحقة من الدجاجة السابقة كما تقول فكيف يكون الخالق يسوع من المخلوقة مريم؟! وكيف يتقدم اللاحق على السابق؟!

وأثناء ذلك ظهرت كومة من الشعر خلف مدخل القاعة التي يجلس بها البابا وإذا به رأس الكاردينال المجنون يظهر وهو يتأمل بهما بشكل مقلوب وهو يصيح ويقول اليهود.. اليهود.. لقد وصلوا.. لقد وصلوا!! فغضب البابا وصاح بالجنود وقال لهم ألم أقل لكم إني لا أريد هذا هنا مرة أخرى.

ثم جلس البابا على كرسيه وقال لمكيافيلي حسنا، وبعدما نقرّب اليهود ونجمعهم من الشتات ماذا سنفعل بعد ذلك؟ فقال له مكيافيلي سوف نستفيد من أموال اليهود في إدارة شؤون البلاد، وننهي حروب الكاثوليك والبروتستانت من خلال دمجهم بدين واحد وهو المسيحية الجديدة والتي لا تنسخ الديانة اليهودية حتى تتحقق مبادئ القوة الخفية من حرية وإخاء ومساواة وانسانية، ولكي يتحقق ذلك للبشر يجب أن يكفروا بالله وبالأنبياء، فالإيمان هو خزعبلات وخرافات وضعت لأهداف مادية!! ألم يقل البابا ليون العاشر كم نعلم تماما ما أضافته علينا من مكاسب تلك القصة الخرافية ليسوع!! فلا مجال للدين والأخلاق هنا بل الباب مشرّع للعلم والموضوعية والحقائق التاريخية.

اقتنع البابا الذي كان ضعيف الايمان وكان فاسدا ولا يهمه سوى أن يعيش متمتعا كما يعيش الملوك

والقياصرة، ثم قال لمكيافيلي ولكن الإيطاليين ينقمون على الأسبان الذين جئت بهم من كتالونيا الى هنا بسبب أنهم يتحدثون الاسبانية الامر الذي جعل الآخرين يستاؤون فكيف إذا سمحت لليهود بأن يأتوا الى هنا؟! فقال مكيافيلي يأتون كما أتيت أنت إلى هنا ولا داعي لأن يظهروا عقائدهم بشكل علني، كل ما عليك هو أن تجمعهم من الشتات وستكتشف القوة الخفية التي كنت أذكرها لك.

ثم إنني قد مهدت الطريق لذلك، فقال البابا كيف ذلك؟ فقال لقد وظفت أذكى رجلين في ايطاليا ليقوما بتمهيد هذا الأمر من خلال تشبيع الصور الذهنية للناس ببطلان العقائد والديانات وأن القوة الخفية هي الديانة الجديدة!! وهما مايكل آنجلو وليوناردو دي فينشي. فقال البابا ولكنهما يعملان بالرسم المقدس فقط، فقال الرجل صحيح ذلك ولكن منذ متى كان الله والملائكة يصورون.. إنها أفكار وثنية ويجب أن تستمر حتى نحقق أهدافنا يا صاحب القداسة، فلا يجدي المرء أن يكون شريفا دائما.

صمت البابا قليلا وأطرق برأسه ثم قال له وكيف يؤثر الرسامون على عقول الآخرين.. لا أعتقد أن ذلك يجدي، فقال مكيافيلي صاحب القداسة إن بدايات الحب والحرب يؤججها الفنانون والشعراء بتحريك الكوامن الغريزية لدى البشر نحو حب الانتقام والغوص في الغرام، فيكفي لبيتين من الشعر أن يرفعا المدافع ويقلبا المواجع، ويكفي للوحة زيتية أن تثير الخيال وتخرس المقال.

أعجب البابا بأفكار مكيافيلي ووظفه سكرتيرا للكنيسة ومستشارا ثانيا له وطلب منه أن يفعل كل ما يستطيع في سبيل الحصول على القوة الخفية التي أقنعه بها، وفعلا تحقق ما يريده مكيافيلي، فتم إقصاء البعض عن منصبه وتم إحلال الوجوه الجديده بدلا منها، ودرجت لهجات ولكنات غريبة هنا وهناك في المجتمع الايطالي، وانتشرت بعض الافكار العلمانية والماسونية، وفرضت الضرائب على سك ان روما، واختفت بعض الاناجيل القديمة من مكتبات المجمع اللاتراني، وعادت روما غير ما كانت عليه سابقا وعيث بالأرض الفساد، فنقم رجال الكنيسة الإيطاليون على تلك الأوضاع السيئة التي لحقت بهم، وأحسوا بأن هناك شيئاً ما يدور في الخفاء، فانشق عن البابا الكسندر السادس ثمانية كرادلة تم سجنهم وتعذيبهم حتى الموت. وهكذا هو الحال فعندما تمتطي السياسة ظهر الدين وتسيّسه لأغراضها الدنيئة وشهواتها الشبقة، يولد منها سفاح مسخ مشوه يتعطش لدماء البشر ويعيث فسادا بالأرض ويهلك الحرث والنسل.

ثورة المضطهدين

كان الكاردينال المجنون آنجلو فرانشيسكو يشاهد جميع تلك التناقضات في قلب العالم الكاثوليكي ويتألم لذلك كثيرا، فلم يكن هو بالأساس مجنونا، ولكنه تظاهر بذلك بعدما شاهد عهر البابا وفساده لكي يستطيع أن يوصل رسائله بالخفاء لرجال الدين الايطاليين الذين كانوا ينقمون على أفعال البابا المشينة وفضائحه الأخلاقية لكي يثوروا عليه.

أراد البابا في أحد الأيام أن يبرر للناس بأن ما قام ويقوم به إنما هو عين الصواب، فخرج لهم في زينته ثم قال لهم من خلال شرفة قصر لاتران قائلا لهم يا سكان روما، نحن لا ننقم إلا على السحرة والمهرطقين وما عقابنا لهم إلا لأجل أن نطهّر أرواحهم من دنس الشيطان!! وهنا بيدي بيان طوروس الذي صدر في المجلس الكنسي في طوروس في القرن التاسع الميلادي إذ يقول البيان: على جميع الرهبان والقسس ورجال الدين المسيحي أن يحذروا الشعوب المؤمنة بأن السحر والتعاويذ السحرية لا تستطيع شفاء مريض، ولا حتى علاج حيوان أعرج أو شخص أشرف على الموت، كما أن المراهم والأعشاب لا تفيد، فجميع هذه الأمور والألاعيب ما هي إلا أدوات وحبائل الشيطان.

ثم قال البابا واعلموا أيها الناس أن المرض الذي يصيب البشر ما هو إلا عقاب مرسل الى ذلك الشخص الآثم ليطهّره من ذنوبه وآثامه، وما هذه الحملات التي ترونها ومحاكم التفتيش التي تعقد إلا لأجل تطهير أرواح أولئك من دنس الشيطان، ثم انصرف البابا وذهب الى القاعة الرئيسية حيث يجلس هناك غالبا، واجتمع مع نائب الكنيسة وكرادلة المجمع اللاتراني حول تطور الأوضاع في روما.

ثم أصدر البابا الكسندر السادس بيانا آخر يشابه البيان السابق جاء فيه توضيح من هو الساحر؟ فقال بأن الساحر هو الشخص الذي عقد مع الشيطان عقدا ليقوم الشيطان بموجبه بمحو اشارات التعميد من جسد الساحر، ووضع إشارات شيطانية بدلا منها. كما أشار البيان الى أن الساحر يقوم بعبادة الشيطان ضمن مراسيم مستهجنة، وكذلك يطلب الساحر من الشيطان بأن يمسح اسمه من كتاب المسيح وتسجيل اسمه في كتاب الشيطان الأسود، كما أن الساحر أيضا يقوم بتقديم قربان وأضحية للشيطان، لذلك وباسم الايمان المقدس فمن يساعدنا على معرفة السحرة أو من شككتم من كونه ساحرا سوف نمحي ذنوب المخبر مدة ستة أشهر وسيدخل في حمايتنا، ومن لم يخبرنا فسوف نقوم بحرمانه كنسيا وبعقوبات اخرى لا يتخيلها أحد.

لقد كانت تلك التعاريف المطاطة المبهمة وسيلة لجميع فئات المجتمع بأن يدلوا بأي شخص وإتهامه بالسحر حتى يحصلوا على الوعد بالغفران وربما الجنة!! فهرع الناس يدلي بعضهم على البعض الآخر، وسجن الناس من كل الطبقات والشرائح الفقيرة والنبيلة ومن منجمين وأطباء ومرضى وغجر وراقصات، لأن الرقص كان أحد علائم الارتباط مع الشيطان آنذاك.

أحرق مئات الآلاف من المظلومين والأبرياء والتعساء بتهمة السحر، كما أوعز البابا الى القرويين بأن يضعوا صناديقا في الكنائس لكي يوضع فيها أسماء السحرة والمشتبه بهم. لقد أدت تلك البيانات والوعود بالغفران بأن تدفع الناس لانتهاز تلك الفرصة والاخبار عن السحرة وعمن يشككوا فيهم مجرد شك بسيط فضلا عن تصفية الحسابات بين الأعداء وإلصاق التهم بهم، الأمر الذي جعل آلاف الأرواح تحترق فوق أكوام الحطب المشتعل.

كان هاشم لا يزال ينظف عنابر السجن في الصباح والمساء، وكان يتألم كثيرا عندما يشاهد آلاف المساجين يعذبون ويموتون من التعذيب والجوع والمرض، وفي منتصف النهار من كل يوم يقوم هاشم بتوزيع عشرة أرغفة من الخبز على كل عنبر من عنابر السجن حسب تعليمات المسئولين هناك، ولا

يكاد هاشم يرمي تلك الأرغفة حتى يعلو الصراخ والشتائم بين المساجين على تلك الأرغفة حتى يصل الأمر الى العراك بالأيدي للحصول على رغيف خبز أو حتى كسرة خبز صغيرة ليسد أولئك المساكين رمقهم. لقد كان أولئك الجلادون جائعين أيضا.. ولكن.. لرغيف الانسانية الحانية.

كان المنظر مؤلما ومفزعا جدا، فالنساء تصرخ والرجال يتعاركون من أجل الحصول على كسرة خبز، وأما الماء فكانوا يمرون عليهم بأوعية بها ماء لا يعطى إلا للبهائم فيرشونهم بالماء، والمحظوظ من يدخل في فمه قطرات من ذلك الماء، ومع ذلك كان هاشم يضطر دائما للدخول الى هناك لتنظيف أرضيات السجن من البول.

وفي يوم من الأيام دخل هاشم أحد العنابر ليقوم بتنظيفها واذا به يجد أحد المساجين وقد شارف على الموت، لقد كان ذا لحية كثة وشعر مبعثر، فنظر فيه هاشم مجددا وقال في نفسه أقسم أنني سبق أن رأيت هذا لكن أين؟ لا أعرف.

وبعذ ذلك ذهب لينظف العنبر فقال هاشم إنه يشبه شخصا ما أعرفه.. لكن من هو يا ترى؟! وفجأة رمى هاشم المنشفة من يده وتوجه الى الرجل بسرعة وقال له.. موسى؟ هل أنت موسى؟ فرفع الرجل رأسه والتفت اليه ثم ابتسم في وجهه دون أن يتكلم. فاقترب هاشم كثيرا منه وقال بلى أنت موسى فضمه الى صدره، فتألم موسى الذي كان جسمه هزيلا وكان يبدو جائعا ولا يقوى على الكلام، ففهم موسى وقال له انتظرني سوف أرجع لك، ذهب هاشم وعاد سريعا وقد أحضر لصديقه موسى رغيفا من الخبز الذي خبأه في جيبه حتى لا يراه السجناء ويتقاتلون على ذلك الرغيف.

لقد كانت تلك مغامرة خطرة من هاشم، فلو رآه أحدهم لكان مصيره مصير أولئك المساجين التعساء. ثم أعطى صاحبه ذلك الرغيف وسقاه قليلا من الماء في حافظة كانت تستعمل لحفظ الماء، فتعافى الرجل قليلا وبدأت حدقتا عيناه تتسعان شيئا فشيئا، فقال له هاشم سوف أعود لك في المساء لأن الحرس يقل عددهم هنا ليلا فأتمكن من التحدث معك ولو لساعة واحدة.

تطورت مهنة صيد السحرة والتعرف عليهم، حتى أصبحت مهنة مربحة ويعيش البعض منها، وراجت هذه المهنة رواجا كبيرا، وبدأ الجلادون يخترعون طرقا وأساليب جديدة للتعذيب، فلا هَمّ لهم سوى تنفيذ أوامر الكنيسة، فالبيوت التي يسكنون بها لا يدفعون إيجارها، كما أنهم كانوا يبيعون أسنان وشعر ورماد الضحايا الذين تم حرقهم بأسعار مرتفعة للناس بزعم أنها تشفي من الأمراض!!

وفي المساء وعندما هدأ ضجيج المساجين ونامت العيون، ذهب هاشم الى العنبر حيث موسى، ثم فتح باب السجن برفق حتى لا يحدث صوتا مسموعا وإذا بأحدهم يضع يده على كتف هاشم وقال له ماذا تفعل هنا؟ تسمر هاشم في مكانه، وأحس بأن قلبه توقف عن النبض من شدة الخوف والهلع وبدبيب العرق يسري في جسده، فقال هاشم يبدو أنني نسيت أن أغسل أرضية هذا العنبر هذا اليوم، فقال له ذلك الحارس لو كنت مكانك لما أتيت الا الصباح، فقال هاشم ولكني اخاف أن يسبب ذلك أمراضا تنتشر هنا وتصل العدوى لنا نحن ايضا، فقال الرجل حسنا تفعل.

انصرف الرجل وقام هاشم يتظاهر بمسح الأرضية حتى تأكد بعدم وجود أحدهم البته، فقام يبحث عن صديقه موسى بين حشود المساجين النائمين حتى وجده نائما على وجهه، فأيقظه وهو يتلفت من حوله خشية اكتشاف أمره وإذا به ليس بصاحبه وهو يقول أريد ماء أرجوك.

ففزع لما رآه وقد كان يظنه موسى فتركه وقام يبحث عنه حتى وجده نائما في زاوية العنبر، فأيقظه وجلس معه ثم قال هاشم له لقد كنت أظن أنهم قتلوك يا صديقي، فقال موسى لو قتلوني لكان أفضل لي من هذه الحياة البائسة التي مرت علي هنا في هذا السجن، ثم بدأ الاثنان يتحدثان عما جرى لهما هنا، كل يروي ما جرى له.

ثم قال له هاشم لا تيأس يا عزيزي أنا متأكد بأنك سوف تخرج من هنا، فقال موسى الذي كان لديه

القدرة على التنبؤ بالغيب ويقرأ الفأل بأنه يعلم مصيره ويعلم كيف وأين يموت، ثم قال موسى لهاشم يا عزيزي لا تقلق بشأني فقد انتهى أمري هنا. فقال هاشم.. آه.. ذلك الشيطان القذر بورجا.. البابا.. هو الذي أوصلنا وأوصل الآخرين لتلك الحالة، إنه شيطان قذر بلباس آدمي، فضحك موسى ضحكة بائسة يائسة وقال لهاشم فماذا ستقول لو ترى ماذا سيفعل الشيطان الأقذر في بيته الأسود عندما يخرج!! فقال هاشم من تقصد؟

فقال له سيأتي زمان على أهل الأرض يتسلط عليهم الشيطان الأقذر الذي يخرج عليهم من بيته الأسود ويفعل الموبقات السبع في أهل الأرض!! فقال هاشم وماذا سيفعل؟ فقال موسى سيفعل سبع موبقات أحدها أشنع من الأخرى. أما الأولى فانه عندما يخرج من بيته الأسود لأول مرة فهو يشن حرب إبادة ويقوم بقتل مئة مليون إنسان ويعطي المكافئات المجزية لأي شخص من عبيده يقوم باحضار فروة رأس أحدهم بزعم أن الأرض للشيطان الأقذر وأن هؤلاء السكان الأصليين الذين يعيشون على أرضه يجب أن يموتوا، الأمر الذي يجعل ذلك الشيطان الأقذر يطمع في أن يستعمر تلك الأراضي ويقطع رؤوس أصحابها الأصليين ويسلخ جلودهم.

وأما الثانية فانه سيحرق الناس قرب البحر في قريتين حرقا ليس له مثيل وسيصيب الناس هناك جوع وطاعون وسيضجون بالصراخ ويطلبون العون من الرب.

وأما الثالثة فان ذلك الشيطان الأقذر سوف يمارس الدياثة على ابنته العاهرة فيغاس، المتخمة بالخطايا والآثام، وسيبني لها ملجأ هناك لكي تمارس الرذيلة مع ألف رجل في كل ليلة!! وستشرب معهم الخمر وتلعب معهم القمار.

وأما الرابعة فانه سيجعل الناس يعبدونه وسيفخرون بعبادته، وأولئك العبيد لهم ملامح غريبة ومخيفة.. سوف يشربون الدماء ويرقصون على جثث الموتى، ولهم طقوس وتقاليد يسحقون بها الأخلاق والقيم والأديان.

وأما الخامسة يا هاشم فإن ذلك الشيطان الأقذر سوف يمر بين جبلين شامخين من الذهب لهما نفس الارتفاع والشكل ويجعلهما قاعا صفصفا، وهو عامد بذلك حتى يحصل على جبال من الذهب بدل الجبلين، وسيقاتل الآخرين بحجة أنهم هم من حطموا الجبلين، فيكشفه الناس على حقيقته ويظهر قرناه من فوق رأسه، فلا يبقى أحد إلا ويقول هو هو، ذلك هو الشيطان الأقذر.

وأما السادسة فهو الذي يقول للناس بأن الفوضى المضطربة هي الجمال والإبداع الذي يجب أن يكتشف، ويقنع الآخرين بذلك، فيجعل هذا يقتل ذاك وذاك يسرق الآخر، وتعم الناس فوضى لا خلاص لهم بها إلا بأمر الرب.

وأما السابعة فإن الشيطان الأقذر سوف يستأنف محاكم التفتيش مرة أخرى بعدما تتوقف لسنوات طويلة، ويعتقل عشرات الآلاف فيها بعيدا عن حدود بيته الأسود حتى لا يدنس سمعة بيته الذي يدعي بأنه يراعي فيه حقوق البشر والبقر، وسيذيقهم ألوان العذاب والحسرات وستنعدم فيها جميع قيم الانسانية حيث يعامل الناس هناك بقسوة وهمجية ليس لها مثيل.

فقال هاشم أرجو ألا تكون تلك النبوءة صحيحة، فأنا لم أكن اتوقع أن أرى مثل هذه الهمجية والوحشية التي يعامل بها رجال الكنيسة أبناء جلدتهم بحجج واهنة وغير مقنعة في سبيل الكسب والرقص على جراحات الآخرين، فكيف إن عشت أنا لذلك الزمان ورأيت ما قلته لي!! حتما سوف أقتل نفسي هناك.

وفجأة سمع هاشم صوت أقدام أحدهم وهو يتوجه إلى العنبر الذي يتواجد به، وعلى الفور اختبأ بين المساجين وتظاهر بالنوم وظل فاتحا عينيه ليرى ماذا يجري، وبعد دقائق تقدم أحدهم ووقف في الممر الذي بين العنابر.. لقد كان ذلك الرجل هو الكاردينال المجنون، فصاح بالناس قائلا الخلاص قادم

والظلام تفسخ فاستعدوا ثم استعدوا!!

وقام يكرر تلك العبارات وكأنه يحمل رسائل مشفرة الى المساجين ولكنها غير مفهومة، فلما ذهب ذلك المجنون وبدأ صوته يخبو شيئا فشيئا، خرج هاشم من السجن وهو خائف خشية أن يطّلع أحدهم على أمره أو يكشف سره.

وصل الى مسامع البابا الكساندر السادس أن التنافس اشتدّ بينهما حول استعمار دول العالم ولم يرق له أن تتقاتل دولتان كاثوليكيتان دون ان يتدخل ويفض ذلك النزاع فأرسل كتابا أشار فيه بأنه سوف يأتي الى إسبانيا لفض ذلك النزاع وايجاد الحلول المناسبة، وبالفعل ذهب البابا الى مدينة توردیسیلاس في اسبانيا وعقد المؤتمر هناك.

وكانت الخريطة موضوعة أمامهم فأخرج البابا سيفه وشق خريطة العالم الى نصفين، فأباح شرق الكرة الأرضية لإسبانيا وأباح غربها للبرتغال بدون أي اعتبار للبشر الذين يعيشون هناك بهدف نهب ثروات تلك البلدان واستئثار فئة قليلة بالتمتع بالخيرات وتهميش الطبقات الأخرى وسلب حقوقها، واشاعة ثقافة الكراهية بين بني البشر تحت غطاء الدين وسلب حقوق الآخرين وتسخير الدين لخدمة أغراض نفعية فئوية، وتم الاتفاق على ذلك. وأثناء ابتعاد البابا عن روما استغل بعض رجال الكنيسة الأوضاع في روما والذين كانوا ينقمون على البابا، فأرسلوا خطابا الى ملك فرنسا شارل الثامن بأن يأتي بأقرب فرصة ويحرر روما من قبضة الشياطين البشرية الذين استولوا على كرسي بطرس وأهانوا مقدسات الكنيسة.

لم يكن غياب البابا عن روما يسبب فراغا سياسيا هناك فقد زادت الأحوال سوء وزاد عدد السجناء وأحكمت الكنيسة قبضتها على سكان روما، ولم يعد في السجون مكان للآخرين فاستعيض عن ذلك بالحرق والذبح بالفؤوس الحادة، وكانت تعقد محاكم التفتيش داخل وخارج المجمع اللاتراني لأن ابن البابا سيزر بورجيو السفاح صاحب السمعة السيئة والتي كانت يداه ملطختين بالدماء هو من يقود تلك المحاكم ويشرف عليها. فحصل ذات يوم أن تم القبض على أحدهم بتهمة السحر، فقاموا بتعريته تماما وطلبوا منه قراءة دعاء معين، فلما قرأه قالوا ذلك لا يكفي مع أن السحرة لا يستطيعون قراءة ذلك الدعاء بزعمهم، ثم قاموا بسجنه أربعة أيام في غرفة مظلمة وهو عار، وبعد ذلك بدأوا استجوابه، وعندما لم يقتنعوا بأن ذلك المسكين لا يمارس السحر قرروا بأن يلقوه بالنهر ليروا هل يغرق بالنهر أم أنه سيطفو بفعل سحر الشيطان، ولما ألقوه بالنهر غرق الرجل فتأسفوا عليه.. فالمتهم في كلتا الحالتين سوف يموت.

كان هاشم دائما ما يلتقي مع ذلك الكاردينال الذي يدعي الجنون في أروقة قصر لاتران وفي عنابر السجون وفي مطبخ القصر، وكان ينظر الى هاشم نظرة رجل عاقل ويقول لهاشم إن السويسريون المرتزقة سوف يذبحون بعضهم.. الخلاص قادم والظلام تفسخ!! الأمر الذي جعل هاشم يعتقد أن هذا الرجل ليس مجنونا ويريد ايصال معلومات الى السجناء والى الآخرين.

كان هاشم في أحد الأيام يقوم بتنظيف أحد العنابر الصغيرة المجهزة بوسائل التعذيب لكي يستخدمها السجانون، وأثناء ذلك سمع هاشم جلبة وضجيجا وصراخ امرأة فالتفت نحو الباب وإذا بالسجانين وهم يرتدون ذلك الزي الأسود والفؤوس بأيديهم وهم يمسكون بامرأة حامل كانت تبدو بأواخر العقد الثالث من عمرها، وهي تصرخ وتقول لهم أقسم بالمسيح وبالعذراء القديسة أنني بريئة.

لقد وجّه هؤلاء التهمة الى تلك المرأة المسكينة بأنها سحرت أحد كرادلة المجمع اللاتراني، حيث كان يجبرها على ممارسة الرذيلة معه والرقص امامه. ولما دخل عليه مجموعة من أولئك الجنود الذين استنكروا ذلك، وهم يعرفون ذلك الكاردينال فأشار اليهم قائلا لقد سحرتني هذه الملعونة.. ولا أعلم كيف أتت الى هنا!! ثم قاموا بربطها إلى إحدى الكراسي الحديدية المعدة للتعذيب فأحست المرأة

بأن الكلام لا يجدي هنا، وظلت تتأمل بصمت وخوف، فإذا عجزت الأصوات.. نطقت العيون، فهناك ألف حكاية بين جفون البؤساء والمضطهدين، ثم قال أحدهم لها:

- لماذا سحرتي ذلك الكاردينال وجعلتيه يمارس الرذيلة معك؟

- أنا لم أسحره يا سيدي فقد أجبرني على ممارسة الرذيلة، لأنه كان يهددني بالسجن.

- ولماذا كنت ترقصين أمامه؟ ألا تعرفين أن الرقص من صفات الشياطين؟

- نعم رقصت، لكنه هو الذي أجبرني على ذلك.

- إذا لماذا أنت هنا؟

- خضوعا لعدالة الكنيسة وتنفيذا لأمر البابا.

- هل وهبت نفسك للشيطان؟

- لا يا سيدي.

فلما أنكرت علاقتها بالسحر والشيطان، قرر أولئك الجنود تعذيبها، فأحكموا اغلاق الحلقات الحديدية التي تحيط بمعصميها ورجليها وصدرها على ذلك الكرسي الحديدي، ثم خرجت من ذلك الكرسي مسننات حادة بدأت تنهش في جسد تلك المرأة الضعيفة. لقد كان أولئك الجلادون يرقصون على جراحات الآخرين، كما يرقص الأطفال على دموع الغيوم الملبدة بالهموم.

لقد كانت المرأة تصرخ وتصرخ حتى سقط ما في أحشائها. فالرحمة قد انتزعت من قلوبهم كما ينتزع الورد من الأشواك، فهم يصولون كالثور الهائج لشهوة الغضب المجنونة بأفئدة الجلادين. ثم قاموا بعد ذلك بفك تلك الحلقات ورجعت المسننات الحادة الى مكانها، وظلت المرأة كالمغشية عليها من شدة العذاب، ثم سألها ذلك السجان مرة أخرى قائلا لها:

- هل وهبت نفسك للشيطان؟

- نعم يا سيدي.

- وماذا قال لك الشيطان؟

- لا أذكر.

- هل حاول الشيطان أن يمارس معك الرذيلة؟

- كلا يا سيدي.

- هل كنت تحسين بوجوده معك دائما؟

- لا أدري.. ربما.

- منذ متى تمارسين السحر؟

- لا أذكر يا سيدي، لا أذكر.

وبعد ذلك ولما لم تعترف تلك المرأة المظلومة بتلك الفرية عليها، قرروا أن يعذبوها مرة أخرى، فأحضروا قضيبا مسننا من الحديد الساخن وقاموا بكي المرأة وهي تصرخ صراخا عاليا ضج منه السجن بأكمله. وبعد ذلك تم استئناف الاستجواب، فقال لها ذلك السجان، والآن:

- هل سحرتي ذلك الكاردينال؟

- نعم سحرته.. سحرته.

- ولماذا سحرتيه؟

- كنت احبه.. نعم كنت أحبه.

- هل كان الشيطان يمارس معك الرذيلة؟

- نعم.. كان ذلك.
- كيف ذلك؟
- لا أعرف. ولكنه يفعل ذلك ولا أراه.
- هل حثك الشيطان على اقتراف الشر بحق الآخرين؟
- لا أعرف.. بلى كان يحثني.
- هل قتلتي أحدهم بالسحر؟
- لا.. نعم.. ربما.. آآآه سيدي لست بكامل وعيي.
- من الذي قتلتيه؟
- لا أعرف، ربما يكون رجل.

تم تسجيل تلك الاعترافات، ورفعت الى محكمة التفتيش الموجودة في السجن هناك، لكن ذلك الاستجواب لم يكن كافيا بنظر المحكمة، لذلك يجب أن تكون الاعترافات صريحة وواضحة حتى يتم الحكم على المرأة وتتحقق العدالة المزعومة!!.

ثم أعيدت المرأة الى التحقيق مرة أخرى وتم تعذيبها بأبشع صنوف العذاب، حيث تم وضعها فوق عجلة دائرية، وتم جرها في اتجاهين متعاكسين حتى يتمزق جسدها، ولكن المرأة ماتت جراء ذلك التعذيب قبل أن تعترف بخطأ لم ترتكبه، فأخذت جثتها ورميت فوق كومة من الحطب وأشعل النار فيها لكي تتطهر روحها من الذنوب، ولكن.. هل ستسمح العذراء مريم بذلك الأسلوب لتطهير الروح أم أنها سوف تنكر ذلك وتحمل المسئولية الى.. العذراء ديفاكي التي يتبنى أبناؤها ذلك بهدف تناسخ الأرواح الشريرة وصيرورتها أرواحا بريئة!! حاشاك أيتها القديسة مريم أن تسمحي بذلك.

كان ذلك حال المئات بل الآلاف من السجناء هناك، وفي أحد الأيام جاء هاشم الى العنبر الذي كان موس-ى متواجدا به وإذا بالعنبر خال من المساجين، فسأل هاشم أحدهم عن سبب ذلك، فقيل له.. لقد تم حرقهم جميعا هذا الصباح وطهّر الرب أرواحهم!! حاول هاشم أن يتمالك نفسه وتظاهر بأن ذلك الأمر لا يعنيه.

وعندما ذهب ذلك الرجل الذي سأله هاشم، بكى هاشم بكاء مرا، وقال يا إلهي لقد أحرقوا المسكين.. لقد بدأت أحس بالخوف الشديد، ولا أعلم ما هو مصيري. ذهب هاشم الى غرفته لكي ينام ولكنه لم يستطع من الحزن والتفكير العميق فيما سيؤول اليه مصيره، ثم أسلم جفنيه للنوم من شدة الإعياء والإرهاق، ولم يفتحها إلا في صباح اليوم التالي على صوت ضوضاء وضجيج مرتفع.

فزع قائما ونظر من شباك غرفته فرأى ما لم يكن يتوقع رؤيته، رأى المساجين قد هربوا من سجونهم كما لم يلاحظ هاشم وجود أي من الجنود والحرس الذين كانوا يتواجدون هناك كالعادة!! نزل هاشم مسرعا ليرى ماذا يجري.

لقد قام الملك شارل الثامن ملك فرنسا آنذاك بغزو ايطاليا للمطالبة بعرش مدينة نابولي بجيش كان قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل ومن بينهم ثمانية آلاف من السويسريين المرتزقة، وكان الملك شارل يهدف الى احتلال نابولي ليجعلها قاعدة للحملات الصليبية ضد الأتراك العثمانيين، الأمر الذي جعل العساكر والجنود في روما يتجهون لمقاتلتهم ولم يبق هناك سوى بعض الحرس الذين تمت رشوتهم من قبل الكرادلة المناهضين للبابا الكساندر السادس، فقام أولئك الكرادلة بفتح السجون وإخراج الناس من سجونهم.

كان هاشم يتأمل المساجين وهم يركضون من كل مكان وهو متعجب وكأنه كان يحلم، ولم يعرف أين يتوجه فتارة يتوجه هنا وتارة يتوجه هناك، فرآه أحدهم وقال له أهرب أيها الغبي لماذا تقف هنا؟ ثم

لاحظ هاشم أن أحد المساجين قد وقع على الأرض فذهب لكي يس-اعده، وعندما اق-ترب منه وادار رأسه وإذا به.. الكاردينال المجنون وقد طعنه أحدهم بخنجر في بطنه، فتأسف هاشم كثيرا لمقتله حيث أنه كان أول المحرضين على هروب المساجين وقبل أن يقوم أولئك الكرادلة برشوة السجانين فتصدى له أحد الحراس وقتله بغضا منهم له.

ثم قال هاش-م لو لم يك-ن هذا الكاردي-نال الحر عاقلا لما قتلوه، تذكّر هاشم آخر كل-مات الكاردي-نال وهو يق-ول له.. الخ-لاص ق-ادم والظلام تفس-خ.. استعدوا.. استعدوا. لقد كان ذلك الكاردينال المغدور يعلم بكل ما يدور في أرجاء المجمع اللاتراني من مؤامرات وأسرار ودسائس، فقد كان يتجسس على الكل ابتداء من الطباخ وانتهاء بالبابا، حيث كان البابا يشك في تصرفاته.

لم يعرف هاشم أين يذهب فقرر أن يهرب مع هؤلاء السجناء وبسرعة قبل أن يعود الوضع على ما كان عليه الوضع سابقا. كان السجناء يتوجهون الى ميناء روما ويستغلون السفن للسفر الى إسبانيا ظنا منهم أن الوضع هناك أفضل بكثير من الوضع في روما فهم بذلك كمن يستغيث من الرمضاء بالنار، فهربوا من السجن كما يهرب المارد المسجون من الزجاجة، فلا يستطيع أحد ايقافهم وهم يدهسون كل شيء أمامهم، فالحرية هنا عمياء.. فإما الموت أو الهروب الى المجهول!!

ركب هاشم مع مجموعة من السجناء في أحد السفن وانطلقت السفينة تمخر عباب الموج في البحر متجهة الى روما، كان المساجين يغنون مبتهجين بهروبهم من السجن، أما هاشم فلم يكن الأمر لديه كذلك.. فقد تذكر المعاناة التي تعرض لها في اسبانيا من خلال استرقاقه كعبد لذلك التاجر الاسباني فتألم كثيرا، وقال مخاطبا نفسه لقد عانيت الكثير من أجل معرفة حقيقة الجنة الفردوسية.. الجنة التي كنت أحلم أن أصل إليها وأعيش فيها.. ولكن.. تكسرت أحلامي كما تتكسر الأمواج على شاطئ الرمال لتمحي ما بقى لي من ذكريات جميلة حول أطلانتس التي ظل أمرها سرا الى الآن وسيظل الى الأبد.

آه يا لتعاستي لو كنت أعلم ان ذلك قدري لما خرجت للبحث عنها. ظلت السفينة تسير في ذلك البحر دون توقف حتى وصلت الى شواطئ مدينة بلنسية.

المحاورة الأخيرة

نزل هاشم من تلك السفينة ووطأت قدمه أرض بلنسية، اقشعر جسده وقال كلما تذكرت فترة العبودية التي قضيتها على هذه الأرض في سوق النخاسة ازددت كآبة وغما، ثم استطرد قائلا وحتى روما.. فقد عشت فيها عبودية السخرة والألم، كل ذلك من أجل أن تصل قدمي لشواطئ جزيرة أطلانتس لأعيش الحب والسعادة ولكنني وطأت شواطئ الاستعباد والظلم.. كم أنت متهور يا هاشم كم أنت متهور.

قام هاشم يتلفت من حوله عله يجد أحدهم يوصله الى غرناطة ليستخرج ماله الذي خبأه تحت أحد الأبنية المهجورة على أطراف مدينة غرناطة ثم يعود مرة أخرى لبلاده ولينهي هذه المأساة. كان هناك الكثير من الايطاليين الذين هربوا من بطش رجال كنيسة روما وبعض التجار من سكان بلنسية الذين يعملون بصيد الأسماك وسفن النقل التجارية.

ظل هاشم يبحث هناك عن أحدهم ليساعده في أن يقله الى مدينة غرناطة بحرا، ولكنه لم يجد أحداً، فلما أحس باليأس جلس ليستريح قليلا وإذا به يجد شابا أشقرا في مقتبل العمر وهو يقوم بجر قاربه الى الشاطئ، وتبين لهاشم أنه صياد أسماك، فاقترب منه هاشم ثم سأله قائلا له هل تستطيع أن توصلني الى غرناطة يا عزيزي وأعطيك الأجرة، فالتفت له ذلك الشاب وقال له ألا ترى أن هذا القارب هو لصيد السمك فقط وليس للسفر، ثم ان غرناطة ليس بها ميناء.. فأقرب منطقة لها على البحر هي مدينة المرية، وبعدها سوف تضطر للمشي لمدة يومين حتى تصل الى هناك.

فقام هاشم ودنا من ذلك الشاب وقال له كم تجني أرباحا من بيع السمك في كل يوم؟ فقال له لا أصطاد في كل يوم، فقال هاشم له أقصد كم تجني أرباحا من بيع السمك لو كنت تبيع بشكل يومي هنا؟ فقال له لا أدري فكل يوم يختلف عن الآخر.. ولكن ربما أبيع في اليوم بقيمة نصف بيزو تقريبا، فقال له هاشم وهل ذلك يكفيك؟ فقال له ليس كثيرا ولكن ليس لدي عمل آخر ولا أملك سوى هذا القارب، ثم قال له هاشم هل انت متزوج؟ فقال له ليس بعد فأنا أعيش في كوخ صغير مع والدتي العجوز، فقال له هاشم وماذا لو أعطيتك مئة بيزو على أن توصلني بهذا القارب الى مدينة المرية، هنا وقف الشاب وكأنه صدم مما سمع، فقال لهاشم وقد رقق صوته بعدما كان يكلمه بتهكم.. ماذا قلت يا سيدي؟ هل قلت مئة بيزو؟ فقال هاشم نعم.. ما رأيك إذا؟

فقال الشاب ومتى تريدنا أن نسافر؟ فقال في أقرب وقت ممكن، فقال الشاب لا أستطيع الآن ولكني سأذهب الى البيت الآن وآتي في صباح الغد بعدما أقوم بتوديع أمي. وفي الصباح كان الشاب ينتظر هاشم وهو لا يعلم أن هاشماً كان نائما في قاربه تلك الليلة، فلما رآه تقدم نحوه وأيقظه من نومه، فقال له هاشم هل أنت مستعد؟ فقال له نعم، ثم قال هاشم يجب أن تعرف شيئا مهما قبل أن نذهب وهو أن النقود التي سأدفعها لك ليست معي الآن ولكني خبأتها في أحد المنازل المهجورة على أطراف مدينة غرناطة.

خاف الشاب وتردد قليلا ثم قال له ولكن يا سيدي أنا صياد فقير وليس لي أحد في هذه الدنيا سوى والدتي العجوز وهي مريضة فهل تقسم لي بالمسيح بأنك لن تؤذيني أو تخدعني؟ فقال هاشم أقسم لك بذلك، فتردد الشاب واحتار، ثم قال لهاشم هل تقسم لي مرة اخرى يا سيدي، فقال له هاشم أقسم لك بالمسيح أنني لن أؤذيك وسأعطيك مئة بيزو نظير أن توصلني الى هناك.

وافق الشاب بعدما تردد طويلا ثم قال إذاً يجب أن اذهب الآن واحضر حصانين لكي نصل بهما من المرية الى غرناطة.. لا تقلق سوف أحضرهما من صديقي، إنه ليس ببعيد من هنا. وبعد ساعة من

الزمن جاء الشاب وأحضر معه الحصانين ثم أركبهما في قاربه. قال الشاب لهاشم سوف أضطر لأن أبحر على مقربة من الشاطئ فالقارب لا يتحمل امواج البحر العاتية وربما يتحطم، فقال هاشم افعل ما بدا لك.

أبحر الاثنان متجهين الى المرية فقال الشاب ربما يستوقفنا بعض من جند اليسوعيين ويظنون أنني أقوم بتهريب اليهود والمسلمين، فإذا كان كذلك فسوف أخبئك بين تلك البراميل الخالية، وإذا سألني أحدهم ماذا تفعل هنا فسأقول له انني أشتري النبيذ من ملقه وأبيعه في بلنسيه. استحسن هاشم الفكره واطمأن لذلك الشاب. وأثناء ذلك لاحظ الشاب ملامح هاشم العربية فقال له سيدي.. هل أنت من الموريسكيين؟ فلما سمع هاشم ذلك تظاهر بالنوم ولم يجبه.

ظل الاثنان يسيران في البحر على تلك الحال حتى مضت أربعة أيام على سفرهم، شاهد الشاب شاطئ مدينة المرية بينما كان هاشم نائما، فصاح الشاب ابتهاجا بوصولهما، فاستيقظ هاشم مذعورا من صوت الشاب وقال له ماذا يجري؟ فقال له.. هناك.. انظر هناك.. إنها المرية.

إبتسم هاشم وقال الحمد لله لقد وصلنا ولم يعترض طريقنا أحد. وصل الاثنان الى الشاطئ وقاما بانزال الحصانين ثم توجها نحو غرناطة على ظهور الخيل. إستمر الاثنان بالمشي حتى انتصف النهار، ثم نزلا تحت ظل شجرة وقاما يأكلان غدائهما.

وفجأة لمح الاثنان جمعا من البشر يساق نحو البحر حيث يحيط بهم جنود اليسوعيين ليطردوهم من بلاد الأندلس، كانوا يضربونهم بالسياط ويقتلون من يتأخر عن ذلك الجمع، فتوارى الإثنان عنهم لئلا يكون مصيرهما مصير هؤلاء المساكين المستضعفين. وبعد أن اختفى ذلك الجمع وابتعد عنهم، قال هاشم لذلك الشاب لا ينبغي أن نمشي في النهار فلعل أحدهم يرانا ويظن بنا ظن السوء، ولذلك سوف نتحرك في الليل فقط، فأذعن الشاب لكلام صاحبه ولم يقل شيئا.

وبعد ثلاثة أيام وصل هاشم ورفيقه الى ذلك المنزل المهجور الذي تسكنه الريح وأحلام العابرين والذي كان على أطراف غرناطه في فجر أحد الأيام، فنزل هاشم مسرعا من حصانه وذهب الى حيث دفن نقوده ليجد المال كما وضعه، فتنفس الصعداء وقال لصاحبه أنت محظوظ. لقد كنت خائفا ألا أجده أبدا. فأعطى الشاب نقوده ثم قال له الشاب والآن أين تريدني أن أقلك؟

فقال هاشم دعنا نرجع الى قاربنا وهناك ستعرف.. سأعطيك ما تريد.. لا تقلق. وفجأة سمع الشاب صوت صهيل الخيل فخاف واصفر وجهه، فقال له هاشم ما بك إنه صهيل خيلنا. فقال الشاب ولكن الصوت قادم من تلك الجهة فنحن ربطنا خيلنا في الجهة الأخرى وليس من هذه الجهة!! فحاولا معرفة ما يجري وإذا بهما يشاهدان أربعة من جنود اليسوعيين وهم يحاولون اقتحام المكان، وعلى الفور رمى هاشم المال وقال لصاحبه ألق ما بيدك هيا ألقه.. فرفض الشاب ذلك ثم قال له هاشم سوف يسرقوننا ويأذوننا، لكنه ظل مصرا على رأيه.

صاح أحدهم بأن سلموا أنفسكم واخرجوا بسرعة وإلا أحرقنا الخربة عليكم، فخرج الاثنان. وعلى الفور اقتيدا الى أحد أديرة غرناطة دون أن يكلمهما أحد أو يسألهما عن سبب تواجدهما فقد كانت بشرة هاشم تحتوي على الكثير من الإجابات التي يريدها هؤلاء دون الحاجة الى السؤال.

ولما سألهم ذلك الشاب الأسباني عن سبب اعتقالهما كانوا لا يردون جوابا ويكتفون بالسباب والشتم والركل، لأنهم كانوا يظنون أن ذلك الشاب الاسباني حاول تهريب هاشم ذي الملامح العربية دون إبلاغ رجال الكنيسة عن ذلك. أدرك هاشم أنه في مأزق كبير واستسلم للأمر، وكان يقول في نفسه كنت أعلم انني سأموت هنا.. لقد كان موسى يقول لي دائما أنك ستموت غريبا عن أهلك وعن وطنك على يد شياطين بهيئة الملائكة.

أدخل الاثنان الى ذلك الدير الذي كان أشبه بقصور ملوك أوروبا من فخامته وروعة بنائه، ثم اقتيدا

إلى القبو السفلي حتى أصبح ذلك القصر الجميل أشبه بمقبرة مخيفة مليئة بالسجون المظلمة القذرة، حيث كان الهواء هناك فاسدا كمقابر الموتى وهي بعمق يقرب من عمق الآبار، ثم أجلسا في أحد الغرف هناك فتقدم نحوهما أحد رجال محاكم التفتيش هناك، وسألهما لماذا كنتما تريدان الهرب؟ ومن أين جئتم؟ فأراد أن يتكلم الشاب الأشقر فقال له أصمت أنت ليس الآن، أريد هذا الموريسكي أن يجاوبني.

فقال هاشم لقد قدمنا من بلنسية ونحن نبحث عن عمل هنا، فقال الرجل إن لم تخبراني بالحقيقة سوف أتصرف بالطريقة التي أراها مناسبة، فأقسما له بأن تلك هي الحقيقة، فلم يقتنع الرجل وقال لأحد مساعديه خذ هذا الشاب الأشقر وتحقق من أمره، أما هذا الموريسكي الوقح فأنا سوف أتصرف معه.

فأخذ هاشم لوحده لأنه كان يظن أنه من العرب الهاربين من محاكم التفتيش التي عقدت لقتل اليهود والمسلمين آنذاك. ثم سار به الى قاعات تحت الأرض تصل بممرات ضيقة بين بعضها البعض وهي كثيرة الانحناءات والزوايا. كانت تلك القاعات المظلمة والرطبة تستخدم للتعذيب، فجدرانها سوداء ومدهونة بالشحم والقار الأسود، وقد ثبتت على تلك الجدران مسامير ناتئة تعلّق عليها ادوات التعذيب، وفي أرضية تلك القاعات سلاسل ضخمة متصلة مع حلقات ومثبتة بالأرض، وتلك السلاسل كانت لربط المساجين وتعذيبهم.

كانت هناك أطواق حديدية لتمزيق لحوم البشر، وقدور يوضع بها الرصاص السائل الحار ليصب على رؤوس المعتقلين، وكلاليب حادة لسحب أثداء النساء، وادوات حادة لسحب الألسن واقتلاعها من أماكنها، وأحذية حديدية تحمى حتى تكون كالجمر الأحمر وتلبس للمساجين المعذبين، واثقال حديدية لتربط بها أعضاء الرجل الذكرية ثم تقذف فجأة بثقلها على الأرض لتتهشم أعضاء الرجل الذكرية، وتابوت مليء بالسكاكين الحادة ليدخل فيها المعتقل ثم يغلق عليه فتغرس تلك السكاكين في جسده وتنهش لحمه.

كان المكان مليئا بالرائحة الكريهة، ودماء المساكين التي يلعقها الذباب والحشرات. كان هاشم يعلم بأن الموت ينتظره فاستسلم لذلك وأحس باليأس يدب فيه، فخارت قواه عند ذلك وسقط على الأرض مغشيا عليه. فلما أفاق وجد نفسه مجردا من ملابسه عدا ما يستر العورة، وقد ربطت يداه بسلاسل على جدران أحد قاعات التعذيب، وأمامه مجموعة من المساجين وهم يعذبون.

كان معظم أولئك المساجين من المسلمين واليهود الذين طردهم الأسبان بعدما انهارت دولة الأندلس الاسلامية. رأى هاشم أحدهم وهم يعذبونه إذ كانوا يضعون قمعا على فمه ثم يملئون بطنه بالماء حتى تنتفخ، ثم سأله أحد رجال محاكم التفتيش قائلا له هل تريد الاعتراف أم لا؟ فقال على ماذا أعترف ارحمني أرجوك، فأمر المفتش السجان بأن يزيد من سكب الماء حتى تنتفخ بطنه وتجحظ عيناه ويختنق بالماء، وأثناء ذلك أدنى أحدهم من أنفه حديدة محماة ثم كوى بها أنفه حتى لا يتنفس وقام آخر وأدخل قطعة من القماش المبلل في فم ذلك المسكين حتى بدأ يختنق وازرق وجهه، ثم خرج الدم من أنفه وعينيه.

كان هاشم يشاهد تلك المناظر البشعة وهو يتألم بشدة لأنه يعلم أنه سوف يعذب بنفس تلك الطرق الوحشية. وبعد دقائق من ذلك الوضع المأساوي أدخلوا رجلا آخر الى تلك القاعة وكأنهم كانوا يريدون أن يخيفوا هاشم قبل أن يعذبوه، ثم علقوا ذلك الرجل الى السقف وربطوا كل طرف من أطرافه بحبل مشدود في بكرة تتدلى منها أثقال حديدية لكي تمزق جسده، وظل الرجل يصيح ويصيح دون أن يدنو أحدهم منه أو ينظر اليه.

وهم يترنمون ويقولون الله محبه، وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة!! أدرك هاشم أن هذه المرة مختلفة وأنه لا فكاك من هذا الأمر إلا بمشيئة الله تعالى، فبدأ يتذكر حياته منذ الصغر حتى وصل

الى ما وصل اليه الآن.. تذكر والده المسكين وتذكر القيروان وتذكر ذلك الحلم الذي كان يعشق أن يسبر أغواره واذا به يخرج من حلم الجنة الى واقع الجحيم.

ثم بكى وقال أي حال هذه التي وصلت اليها الآن، لقد ألقيت بنفسي الى التهلكة وأنا أبحث عن نعيم لا وجود له. ثم أجهش بالبكاء كثيرا. ظل هاشم مربوطا على تلك الحالة أكثر من ثلاثة أيام، ثم تقدم اليه السجانون ويتقدمهم أحد مفتشي محاكم التفتيش فقال له لماذا كنت هناك في ذلك المنزل الخرب؟ فقال هاشم لقد كنت أنا وصديقي نستريح هناك لكي نبحث عن عمل لنا.

فقال المفتش ولكن صديقك يقول غير ذلك. اعترف يا صديقي، فخاف هاشم من أن يقوموا بتعذيبه كما فعلوا بمن سبقه فاعترف وقال لهم بأنه قدم من بلنسيه لأنه كان عبدا لأحد الاقطاعيين في غرناطه ثم قام بتحريره وأعطاه المال وطلب منه الرجوع الى بلاده. فسأله المفتش قائلا له ما هو اسمك؟ فاحتار هاشم ماذا يقول له.. هل يقول له هاشم أم أنطونيو أم بطرس؟

فقال له إسمي انطونيو، فقال المفتش ولكنك يا أنطونيو هربت مع الهاربين من روما.. أليس كذلك؟ فاستغرب هاشم كيف أن ذلك المفتش كان مطلعا على ذلك، وعلى الفور قال هاشم أقسم يا سيدي أنني لم أكن مسجونا وإنما عوقبت بجرم لم أرتكبه فوضعت في السخرة القسرية فقط، وعندما هجم علينا جيش الفرنكيين هربنا منهم، فقال المفتش هل أنت مسلم أم أنك تنصرت حديثا؟ فقال له بل تنصرت حديثا. فالتفت الى السجانين وقال لهم إنه يكذب، ثم تركهم وذهب فما كان منهم إلا أن أنزلوا به أشد أنواع العذاب والتنكيل، فاقتلعت أسنانه وأظافره، وقطع لحم جسده، وسملت عيناه، وهم يترنمون أمامه ويقولون الله محبة، وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة!!

وبعد عدة أيام أحضر الى محكمة التفتيش التي كانت في نفس ذلك الدير، ثم سأله أحد المفتشين قائلا له:

- ما هو اسمك؟
- هاشم الطنجي.
- هل انت من الموريسكيين؟
- نعم.
- لماذا قدمت الى غرناطة؟
- تركت بعضا من مالي في خربة قرب غرناطة واتيت لآخذه.
- هل كنت في غرناطه أم في روما؟
- في كلاهما.
- هل أنت جاسوس للفرنكيين؟
- لا يا سيدي.

طلب المفتش من هاشم أن ينظر الى الصليب الموضوع امامه ولا يرفع بصره عنه، ثم يجيب على الأسئلة وهو ينظر اليه، فقال هاشم لم أعد أرى شيئا يا سيدي فقد أطفأتم بصري. فغضب المفتش وكان بجانبه صندوق به بقايا القديسين من عظام وخرق ممزقة يعلوها الغبار وأدوات ثم قال لهاشم إذاً إقسم على بقايا القديسين هذه أنك لست بجاسوس للفرنكيين، فقال هاشم:

- أقسم أنني لست بجاسوس للفرنكيين ولا لغيرهم.
- هل أنت مسلم؟
- لقد قاموا بتنصيري سابقا.
- إذا أنت لست مقتنعا بالمسيحية؟

- ليس كذلك.. بل مقتنع.
- حسنا يا هاشم، من هو الرب إذاً؟ عند ذلك أحس هاشم بأنه لا جدوى من تلك المواراة، وأنه هالك لا محالة، حاله في ذلك حال الآلاف من المسلمين قبله. فرد عليه قائلا:
- هو الله... الذي لا اله الا هو، الذي لا تراه العيون، ولا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود.
- بل ان خالق الخلق هو عيسى.
- اذا كان عيسى هو خالق الخلق، فهل خلق أمه مريم؟ وهل خلق الخلق من البشر الذين كانوا قبله؟
- هو الخالق وحسب.
- إذا كان هو الخالق والقادر فكيف لا ينقذ نفسه من الصلب كما تدعون؟
- لأن الله أرسله لتكفير خطايا بني آدم عندما تجسد في يسوع.
- إذا كان كذلك فلا حاجة الى جهنم يوم القيامة وليفعل الناس ما يريدون من جرائم وخطايا وآثام بحق البشر كما تفعلون أنتم الآن، ثم أنه من يصلب يكون ملعونا وفق عقيدتكم، فهل ان ربكم ملعون!! ألم تقرأ في الإنجيل في سفر التثنية أنه من يصلب فهو ملعون. فهل يعقل أن ربكم ملعون؟!

عند ذلك غضب الكاهن لأنه لم يعرف ماذا يقول، فقد أربكه هاشم، فأمر الجلادين بأن يحرق هاشم في الصباح الباكر في حفلة الحرق التي كانت تقام بشكل دوري. لقد حكم على هاشم بالحرق بسبب أنه كافر بالرب ولأنه من الزنادقة المجادلين بالباطل!!

ثم اقتيد إلى سجنه ووضع هناك ريثما يبزغ نور الصباح لكي يحرق هاشم مع جموع المساجين الذين سيحرقون في صباح الغد أمام آلاف الناس. وضع هاشم في سجنه فقام يتلمس الجدار حتى وجده ثم أسند ظهره اليه، وبدأ يستغفر الله ويطلب منه العفو عنه لأنه سوف يغادر هذه الدنيا في الصباح الباكر من يوم الغد. لقد كان يتمنى أن يعود الزمن الى الوراء ليعدل عن تلك الفكرة التي كان يبحث عنها.. ولكن ساعة الزمن الفائت هوت في قعر الأزل المظلم.

وكان كلما فكر في ألم الحرق يبكي ويضج بالصراخ. أمضى هاشم تلك الليلة حزينا كئيبا متأملا حال الدنيا وتكالب الناس عليها وقتل بعضهم البعض من أجل المال والسلطان، واللعب بعواطف الناس تحت عباءة الدين والتقوى من أجل السمعة الحسنة والعيش بنعيم وراحة بال. فهؤلاء البشر يستعبد بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا وينكلون ببعضهم البعض وهم بشر مخلوقون من طينة آدم. ظل هاشم متأملا حال الدنيا وما آل اليه مصيره الأسود وهو يقول يا رب ما لي سواك جئت أبحث عن الجنة فسقطت في الجحيم فلا تحرقني بنارك بعد حرقي ومماتي في الدنيا يا أرحم الراحمين.

كان يردد ذلك حتى غفت عيناه قبيل الفجر من شدة الإعياء والخوف، وكيف تغفو عيون من كان الموت ينتظره!! ولكنه غفا لثوان معدودة، فلما غفا رأى رؤيا عجيبة أذهلته وسكّنت من روعه وكانت هي الاجابة الشافية لما كان يبحث عنه هاشم، فرأى كأنه يقف أمام أفلاطون وهو يقول له: عزيزي هاشم لقد أخطأت التقدير فيما كنت تبحث عنه، فجنة أطلانتس الفردوسية كانت أقرب اليك من أي شيء آخر، ولكنك لم ترها ولم تدركها وظننت أنها جنة ذات أبعاد مادية ملموسة ولكنها ليست كذلك، وسبب تسميتها بهذا الاسم.. أطلانتس.. لأن كل حرف فيها يشير الى معاني فلسفية وأخلاقية سامية.

إن هذه الجنة الفردوسية هي موجودة وليس لها بعد مكاني لتلج إليها به ولكنها موجودة في قلوبنا وفي جوارحنا وفي عواطفنا، في التسامح والعفو عن الآخرين وليس بالكره والتمييز العنصري والديني والاضطهاد والتطرف والتعصب. إن تلك الجنة هي بداخلنا إنها الفردوس الأكبر، فإذا ما اختلفتم بأديانكم وعقائدكم فيجب أن ترتقوا بأخلاقكم، فإن الله لا ينظر الى صوركم ولكنه ينظر الى قلوبكم ويعرف ما كان فيها، يا هاشم لقد ذكرت لكم هذه الجنة لتهتدوا الى ما عند الله خالق السماوات

والأرض ولتقتدوا بالرؤوف والرحيم حتى تكونوا كالملائكة. ولكن الناس ينبذونها ولا يريدونها.. إنها هي الجنة المنبوذة!!

لقد كانت كلمات أفلاطون تلك هي المحاورة الأخيرة له والتي كانت بالصوت والصورة على خلاف محاوراته التي كانت مدونة في الكتب ولكنها جاءت بعد فوات الأوان. وعند ذلك أفاق هاشم من تلك الغفوة ثم قام على رجليه ودموعه تهطل كالمطر وهو يقول.. نعم.. نعم إنها الجنة المنبوذة فعلا.

وعند ذلك سمع هاشم صوت أحدهم وهو يفتح باب السجن حيث أشرقت شمس اليوم الموعود، فعرف هاشم أنهم جاءوا ليقتادوه الى المحرقة، فلم يعترض ولم يقل شيئا، بل كانت دموعه تصب وهو يقول اللهم اغفر لهم فانهم لا يعلمون.. اللهم اغفر لهم فانهم لا يعلمون.

ثم اقتادوه الى الخارج مع جحافل المحكوم عليهم بالحرق، ثم تقدم الموكب كاهن كان يرتدي حلة بيضاء ويحمل صليبا أسودا في يده وهو يترنم ويقول الله محبة، وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة!! ومر أمام عرش الملك الذي كان هو بدوره حاضرا هناك، ثم تقدمت مجموعة من الكهنة يلبسون الملابس البيضاء ويمسكون الصلبان السوداء ويترنمون أمام الملك بتلك الترانيم.

وبعد ذلك مر المحكوم عليهم بالحرق أمام الناس فقام الناس يقذفونهم بالقاذورات والطين ويبصقون في وجوههم وهم يرتدون ملابس الاعدام الصفراء التي نقشت عليها صور الأفاعي والشياطين، ثم قام السجانون وأصعدوهم على أكوام من الحطب المرتفع المعد للحرق، حيث تم تثبيت صليب كبير في وسط كل كومة من اكوام الحطب، ثم قال أحد الكهنة من ليس معنا فهو علينا والشجرة التي لا تثمر يجب أن تحرق بالنار، إن الذنب ذنبهم ودماؤهم على رؤوسهم.

ثم قال المجد لسيدتنا والدة الاله ومبارك كل مؤمن وطائع، ثم مد يده نحو المساجين وكان يمسك بيده صليبا من العاج ويطلب منهم أن يقبلوه ويتوبوا قبل أن يحرقوا بالنار. ثم التفت ذلك الكاهن نحو الملك وقال له صاحب الجلالة إننا ننتظر من جلالتكم أن تقسموا على ان تساندوا هذا الديوان المقدس، وأن تثبتوا سلطتنا في هذه البلاد، وأنت تمسك في يدك هذا الصليب المقدس، ثم أقسم الملك، فاستمر ذلك الكاهن الذي كان رئيسا لديوان التفتيش قائلا: وأن تقسم أيضا يا صاحب الجلالة على أن كل ما نجريه من أحكام إنما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرومانية، بهدف تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة والشياطين البشرية.

ثم أقسم الملك بذلك وقال له: ليباركم الله ويمكنكم من تطبيق شرائع الكنيسة. ثم تقدم أحدهم وبدأ بتلاوة تطبيق الحكم من خلال ورقة يقرأها كانت بيده، فقال: انه لما تأكدت المحكمة من استحالة إيمان هؤلاء فقد صدر بحقهم الموت حرقا، ثم تقدم رئيس المحكمة ومنح الغفران لأولئك المساكين، ثم رفع يده إيذانا ببدء عملية الحرق، فلما أنزل يده اشتعلت النيران في تلك الأكوام وعلت الصيحات من كل مكان وضج الناس بالصراخ وانتشرت رائحة لحوم البشر.

أما هاشم فقد كان رافعا يده وهو يدعو الله ويقول اللهم اغفر لهم فانهم لا يعلمون.. اللهم اغفر لهم فانهم لا يعلمون، وقام يكررها ويكررها حتى أذابت تلك النار لحمه ودمه وصار جسده كومة من الرماد، فهو لم يحس بحرارة تلك النار ولم يتألم منها لأن روحه احترقت بنار الشوق الى الله قبل أن تحترق بحرارة نار الدنيا، فالعشق أوله حب واشتياق وآخره ألم واحتراق.